رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الثاني

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

الأميرالاي أركان حرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

المشتركون في هذا الكتاب

١ ـ *محمد عبد الفتاح إبراهيم:*

أميرالاي أركان حرب ـ ماجستير في العلوم العسكرية دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من كلية الآداب بجامعة القاهرة.

كان أستاذ التاريخ العسكري في الكلية الحربية في فجر حياته العسكرية، وكانت آخر وظيفة شغلها في القوات المسلحة هي أركان الحرب الأول للفرقة الأولى مشاة، وآخر وظيفة شغلها في الوظائف المدنية هي سكرتير عام وزارة الإرشاد القومي.

كان رئيس تحرير مجلة المشاة وعضو لجنة تحرير مجلة الجيش.

صحفي من فجر حياته، وله عدة مؤلفات جلها في الشئون العسكرية منها «محمد القائد»، «بين حربين»، «الخوف والإجهاد في المعركة»، «الحرب البرقية»، «الحرب الأهلية الأمريكية.. ملاحظات على القادة والمعارك»، «التحركات والوقاية الجوية».

٢ ـ *إدوارد ميد إيرل:*

دكتوراه من جامعة كولومبيا الأمريكية.

مستشار خاص سلاح الجو الأمريكي.

محاضر في الجامعة العسكرية ـ أستاذ الدراسات العليا في جامعة برنستون وعميد قسم الدراسات العسكرية بها.

٣ـ سيجموند نيومان:

دكتوراه في الفلسفة من جامعتي شيكاغو وكورنيل، مؤلف كتاب «الإثنا عشر الذين يحكمون» وكتاب «لجنة الأمن العام إبان الإرهاب».

مساعد أستاذ التاريخ في جامعة برنستون.

يعمل الآن في قسم الدراسات التاريخية للقوات البحرية الأمريكية.

٤ـ هاجو هولبورن:

دكتوراه في الفلسفة من جامعة برلين:

مؤلف كتاب «بسمارك والسياسة الأوروبية في الحقبة السابعة من القرن الثامن عشر» وكتاب «ألمانيا وتركيا ١٨٧٨ ـ ١٨٩٠»، وغيرهما من الكتب التاريخية.

أستاذ التاريخ في جامعة ييل.

يعمل الآن في خدمة الحكومة الأمريكية.

٥ـ ستيفان بوسوني:

دكتوراه في الفلسفة من جامعة ڤيينا.

مؤلف كتاب «حرب الغد: تخطيطها وإدارتها ونفقاتها» اشترك في تأليف كتاب «الاستراتيچية الكبرى لدول المحور»

يعمل الآن في خدمة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية.

٦ـ آتيين مانتو:

دكتوراه في القانون من جامعة ليون.

يعمل في المحاماة والاقتصاد.

٧ـ جوردون كريج:

دكتوراه من جامعة ميتشيجان.

ضابط في القوات المسلحة الأمريكية.

يعمل مساعدًا لرئيس تحرير مجلة المشاة الأمريكية «القوات المقاتلة».

مؤلف كتاب «كبار القادة في الحربين العالميتين».

محتويات الكتاب

القسم الثالث

أصول الحرب الحديثة من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى

مقدمة

وصل بنا المطاف في دراستنا لتطور الفكر العسكري في صحبة صانعي الاستراتيچية الحديثة حتى النصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادي، عندما خرجت للناس هذه التعاليم التي جاء بها الرجلان اللذان فسَّرا وأوضحا أصول مدرسة نابليون.

وقد خرجنا من دراستنا في «الكتاب الأول» بتعريف «الاستراتيچية» ـ فن التخطيط للحرب وبإيضاح الفرق بينها وبين «التكتيك» ـ فن القتال ـ وبدراسة العوامل المؤثرة في الاستراتيچية. واتضح لنا أن نجاح استراتيچية ما يتطلب توافر المعرفة التامة بعدة عوامل عسكرية مؤثرة، وأن الاستراتيچية الناجحة هي التي تحقق حسن الاستخدام لهذه العوامل متفرقة ومجتمعة؛ ذلك لأن الاستراتيچية لا يمكن أن توازن النقص في العدد، ولا النقص في التدريب، ولا سوء التنظيم للقوات المقاتلة؛ وقد جاءت إلى جانب هذا ظلال باهتة لعوامل أخرى لم تبرز في صورة أخاذة تبعًا لطبيعة العصر وللنطاق المحدود الذي كان للحرب حتى أواخر أيام القرن الثامن عشر؛ أي حتى بداية عصر الجيوش الأممية المجندة من المواطنين الصالحين.

وقد أوضحت صورة الحرب منذ بداية ظهور نابليون على المسرح الأوروبي أن الاستراتيچية لا يمكن أن تسير سيرها الطبيعي لو انفصلت عن الشبكة المتداخلة معًا للعوامل السياسية والمالية، وإن كانت هذه الاعتبارات السياسية والمالية قد لا تبدو واضحة للجندي في ذات الضوء الذي تبدو فيه للسياسي، ولهذا فإن الأخير هو الذي يجب أن يتأكد من أنها

تلقى الاعتبار الكافي لها، فإذا ما تطلبت هذه الاعتبارات التبسيط أو التعديل فمن الضروري أن يتم هذا كله قبل أن ينتهي وضع التخطيط الاستراتيجي كاملًا.

على أن أهم ما قدمته هذه الدراسة العامة لتطور الفكر العسكري بين مكياڤيللي ونابليون هو أن الحرب عندما كانت عمليات أكثر بطئًا مما كانت في آخر مرحلة الدراسة في فجر القرن التاسع عشر، وكانت الجيوش أقل كفاية في التدريب، لم يكن من الضروري أن تكون الأخطاء التي تحدث مدمرة، ولكن تبعًا لتطور صور الحرب ولازدياد السرعة في التعبئة والسير والاشتباك في القتال لم يعد من الممكن أن يمنح القائد الوقت ليصحح من أخطائه، وأن يعطي نفسه وجنوده التجربة التي يحتاجونها. وفكرة وضع القائد وجنوده تحت مطرقة الحرب لتشكيلهم في الصورة الصالحة لم يعد لها من محل بعد الوصول إلى «الأمم المسلحة»، الأمم التي تقف بجميع حصيلتها من الأفراد للقتال، والتي تستخدم كل مواردها الطبيعية والمادية والصناعية والتجارية والثقافية من البداية، تستخدم هذا كله في الحرب ومن أجل الحرب؛ وكانت الظاهرة التي وضحت أولى رسومها الباهتة هي أن التنظيم العسكري قد بات علمًا يجب أن يدرسه بعناية السياسيون والعسكريون، وأن أصول ومبادئ هذا العلم يجب أن تطبق بعناية؛ كما وضح التأثير الكبير الذي للعقل الدرب.

وإذا كان بعض الحروب قد أوضحت قيمة القائد المحنك!. وأوضح بعضها قيمة الجيش المدرب؛ فإن صورة الحرب من فجر القرن التاسع عشر قد أوضحت ضرورة توافر القائد المدرب والجيش المدرب معًا في مجموعة واحدة.

وهكذا أوضح لنا تطور صورة الحرب أن التخطيط للاستراتيچية يتطلب أيضًا دقة المعرفة بعدة عوامل أخرى ليست ذات طابع عسكري بالرغم من التأثير العسكري الذي لها. هذا التخطيط الذي يستهدف إضعاف مقاومة العدو وتعطيله بشل تجارته وتدمير اقتصادياته، وكان هذا جديدًا في طابع استخدامه وإن لم يكن جديدًا في أصل وجوده.

والواقع أن الناس قد عاشوا لأمد طويل وهم يظنون أن الحرب صناعة تحترفها جماعات خاصة من الناس هي التي تكوِّن وحدات المتقاتلين سواء أكانوا مأجورين أم مواطنين مجندين، وأن الحديث عن الحرب بمتباين صورها وألوانها ومختلف نواحيها النظرية والعملية، وما يؤثر في هذه أو تلك من العوامل وما يتحكم فيها أو يسيطر على توجيهها من أصول ومبادئ إنما يرجع إلى الكتاب العسكريين الذين خرجوا من صفوف الجند أو الذين عاشوا على هامش الجندية وإن لم يكونوا أصلًا من طلاب المعاهد العسكرية.

ولم يكن هذا كل شيء، بل إن كل الكتب التي تحدثت عن الحرب من الناحية الفنية والتي تعرضت للحديث عن الاستراتيچية لم تعن إطلاقًا إلا بالنواحي العسكرية بالرغم من أنها كلها كانت تكرر ما قاله الاستراتيچي الدرب كلاوزيڤتز من أن الحرب ما هي إلا استكمال للمناقشات السياسية ولكنها تجيء فقط بأسلوب آخر، ولم تتعرض هذه الكتب للعوامل من النواحي البشرية والمعنوية والاقتصادية والتي تؤثر في التوجيه السياسي ثم بالتبعية في التوجيه العسكري.

وإن كان بعض الكتاب العسكريين في مطلع القرن العشرين قد عنوا بمسائل المواصلات البرية والبحرية ومروا سراعًا في عجلة ظاهرة بعوامل

التجارة والمواد الخام.

ثم تقدمت الدراسات الوثيقة الصلة بالحرب وأدرك الناس عن إيمان أنه توجد في الاستراتيجية الحديثة بعض النواحي غير العسكرية، وأن هذه النواحي يجب أن تراجع في دراسات نفر من الأعلام كلهم من غير العسكريين؛ هم رجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع، ورجال التاريخ وأعلام السياسة والتقنيين.

وبرزت إلى الضوء أسماء: آدم سميث، وألكسندر هاملتون، وفريدريك ليست، وفريدريك آنجلز، وكارل ماركس، وديلبروك، وهم مجموعة تقدم لنا في الواقع عدة مدارس من مدارس الفكر في علم الاجتماع بمختلف نواحيه من اقتصاد وسياسة وتاريخ.

ومن أجل هذه الدراسات كان هذا الكتاب الثاني من دراسة تطورات الفكر العسكري.

وهكذا سيجيء هذا الكتاب الثاني خالصًا للتحدث عن الاقتصاد والسياسة والتاريخ، سيقدم «الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية»، و «النظريات العسكرية للثورات الاجتماعية»، ودور المؤرخ العسكري في هذه الدراسات.

وستجيء في أعطاف هذه الدراسة المدرستان البروسية والفرنسية لإيضاح أثر هذه العوامل في تطور الأصول التي جاء بها صانعو الاستراتيجية حتى وصل العالم إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.

عبد الفتاح إبراهيم

أميرالاي أركان حرب

القسم الثالث

من القرن التاسع عشر

إلى الحرب العالمية الأولى

الفصل السادس

آدم سميث ـ ألكسندر هاملتون ـ فريدريك ليست
الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية

بقلم إدوارد ميد إيرل

قد لا يمكن فصل القوة الاقتصادية عن القوة السياسية إلا في المجتمعات البدائية؛ ففي العصر الحديث ـ مع نشأة الحكومة القومية وانتشار المدنية والحضارة في العالم، والازدهار الذي جاءت به الثورة الصناعية، وهذا التقدم المستمر في الفن العسكري ـ «بدا على التحقيق» أننا نواجه علاقة مشتبكة متداخلة للقوى التجارية والمالية والصناعية من جهة، والقوى السياسية والعسكرية من جهة أخرى، وهذه العلاقة المشتبكة واحدة من أعقد مشكلات السياسة؛ ذلك لأنها تجعل سلامة الأمة هي التي تحدد مدى ما يتمتع به الفرد من الحياة والحرية والتملك والسعادة.

وعندما يكون العامل الموجه لسياسة الدولة هو مبدأ السياسة التجارية الموجهة، أو مبدأ السياسة الجماعية(*) فإن قوة الدولة تكون في حد ذاتها هي الهدف والغاية، وتكون كل اعتبارات الاقتصاد الأهلي ورفاهية الفرد تابعة وخاضعة لغرض واحد هو تطور إمكانيات الأمة لجعلها قادرة على التأهب

(*) في الأصل Totalitatrianism، وهو مذهب في الحكم يجعل الأمر كله في يد الحكومة ويجعل الحكومة في يد القلة، ويجيء في الوصف Totalitarian أي صورة الحكم في الدولة التي يتولى فيها حزب واحد السيطرة التامة على الدولة، وتكون بقية الأحزاب الأخرى غير قانونية التكوين. "المترجم".

للحرب والإنفاق عليها، أو على ما يسميه الألمان إعداد الجيش Wehrwirtschaft والإعداد للحرب Kriegswirschaft.

ومنذ قرابة ثلاثمائة عام لخص كولبير السياسي الفرنسي (١٦١٩ ـ ١٦٨٣) نهضة الملكية الفرنسية في عصر لويس الرابع عشر بقوله: «إن التجارة هي المورد للمال، والمال عصب الحرب»، وفي هذا العصر الذي نعيش فيه أشار جورنج ـ نائب الفوهرر الألماني ـ إلى أن الاقتصاد السياسي للحكومة الألمانية قد وجه إلى «إنتاج المدافع لا الزبد»؛ كما أنه من المصطلحات الرئيسية التي جاء بها التأهب الشيوعي للحرب الشاملة القول بأن «من الخير أن توجد اشتراكية بدون اللبن عن أن يوجد اللبن بلا اشتراكية»، أما الشعوب الديمقراطية فإنها تكره القيود التي تجيء نتيجة لاقتصاديات تقوم على أساس الحرب والتأهب للحرب، وما يسميه الألمان «إعداد الجيش» يبدو للشعوب الديمقراطية مباينًا لأسلوب حياة أفرادها فضلًا عن أنه يتجاوز إلى مدى بعيد الحدود التي تراها هذه الشعوب ضرورية لأمنها ورفاهيتها، إن أفراد هذه الشعوب الديمقراطية يفضلون النظام الاقتصادي الذي يقوم على أساس رفاهية الفرد أكثر مما يعنى عناية كبيرة بقوة الدولة، وتتوافر في أعماق نفوسهم الشكوك تجاه الجمع بين القوتين الاقتصادية والسياسية، ويعتبرونه تهديدًا دائمًا لحرياتهم الموطدة منذ بعيد.

ولكن مهما كانت الفلسفة السياسية والاقتصادية الموجهة للأمة فإنها لا يمكن أن تتنكر ـ إلا بمخاطرة لها ضررها ـ لاحتياجات القوة العسكرية ومطالب أمن الأمة، وهما أساس غيرهما من مشكلات الحكم. ولهذا فمما لاشك فيه أن هاملتون كان يضع مبدأ أساسيًّا في فن سياسة الدول عندما

قال: بأن الأمن والسلامة من الخطر الخارجي هو «أقوى موجه للسلوك الأهلي»، فحتى الحرية ـ إذا لزم الأمر ـ يجب أن تفسح الطريق لمطالب الأمن والسلامة؛ ذلك لأن الناس يرغبون أن يكونوا أكثر أمنًا حتى لو «خاطروا بأن يكونوا أقل حرية»(١).

وكان آدم سمث(*) ـ الذي آمن بأن الرخاء المادي للأمة يمكن أن يوجد بأقل تدخل من الحكومة ضد حرية الفرد ـ راغبًا في أن يتقبل وجوب تنسيق هذا المبدأ العام مع غيره من المبادئ الأخرى عندما يكون الأمر متعلقًا بالأمن الأهلي؛ «ذلك لأن الدفاع أهم من الرخاء والازدهار»(٢)، وقد وجد فردريك ليست(**) الذي اختلف عن سمث في الكثير من الموضوعات، أنه يتفق معه تمامًا في هذه المسألة فقال: «إن القوة أكثر أهمية من الثروة. ذلك لأن نقيض القوة أي الضعف يؤدي إلى فقد كل ما نملك، لا من الثروة فحسب بل ومن القدرة على الإنتاج. وأن نفقد مدنيتنا وحضارتنا وحريتنا

---

(١) The Federalist لعام ١٧٨٧ رقم ٨ طبع المكتبة الحديثة بنيويورك سنة ١٩٣٧، مع مقدمة بقلم إدوارد ميد ايرل ص ٤٢، ويرجع إلى هذه الطبعة في كل ما يُشار إليه في هذه الصفحات، ويمكن أيضاً أن نجد الأصل كاملاً في مجموعة أعمال هاملتون المجلد ١١ و١٢ – راجع في الهامش رقم ٣٠ بيان مؤلفات هاملتون.

(*) آدم سمث اقتصادي اسكتلندي مؤلف (بحث في طبيعة ودوافع ثروة الأمم) والكتاب يُعتبر مرجعاً قيماً لعدة مبادئ أهمها وضع القيم على أساس العرض والطلب، وتحرر التجارة من أي صور التحريم. وقيام التنافس الحر. "المترجم".

(٢) An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (١٧٧٦) وقد استخدمت الطبعة التي أصدرتها المكتبة الحديثة والتي كتب مقدمتها ماكس ليرنرو التي هي إعادة طبع النسخة التي قدمها ادوين كانان (لندن ١٩٠٤) الفقرة المقدمة هنا توجد في الكتاب الرابع الفصل الثاني ص ٤٣١.

(**) ليست اقتصادي ألماني يُنسب إليه أنه أول من وضع فكرة الضرائب أو "العوايد – الرسوم" التي تُفرض على المتاجر، عاش من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨٤٦. "المترجم".

وحتى استقلالنا، وأن نفقد كل هذا على أيدي أولئك الذين يفوقوننا في القوة»(١).

كان غرب أوروبا لأكثر من قرنين من الزمان قبل أن ينشر آدم سمث كتابه «ثروة الأمم» يحكم بواسطة نظم وأصول ومعتقدات تعرف في مجموعها باسم «السياسة التجارية»؛ وكانت النظم التجارية أساس سياسة القوة، فقد عملت في الشئون الداخلية العامة لزيادة قوة الدولة ضد التعاليم التي عاشت من العصور الوسطى، أما في الشئون الخارجية فقد عملت لزيادة قوة الدولة ضد غيرها من الدول، وفي إيجاز فإن أهداف السياسة التجارية كانت التوحيد القومي للدولة وتنمية مواردها الصناعية والتجارية والمالية والعسكرية والبحرية؛ ولإدراك هذه الأهداف تدخلت الدولة في المسائل الاقتصادية، وبذلك وجهت نشاط رعاياها أو مواطنيها اتجاهات خاصة بقصد زيادة القوة السياسية والعسكرية.

وكانت «الدولة التجارية» في ذلك العصر شأنها شأن الدولة «الديكتاتورية» الفردية في عصرنا الحديث؛ دولة تعمل على الحماية التجارية وتتخذ سياسة وقائية، كما أنها تعنى بالاكتفاء الذاتي الاقتصادي وأن تسير الدولة دون أي تبادل تجاري مع غيرها من الدول، كما أنها تهدف إلى الاستعمار والتوسع وتتبع سياسة عسكرية قوية لتنفيذ أهدافها العامة.

---

(١) Friedrich List, Das nationale System der Politischen Okonomie (Stuttgart ١٨٤١) in Schriften Reden, Briefe (١٠ vol., Berlin ١٩٣٠ – ١٩٣٥), VI.

جمع أرثور سومر المجلد ٦ (برلين ١٩٣٠) ص ٩٩ – ١٠٠، وتعتبر هذه أحسن طبعة لمؤلفات فردريك ليست، وصدرت بالاشتراك مع الأكاديمية الألمانية، والفقرة المقدمة منقولة من الترجمة الإنجليزية بقلم سمسون لويد طبع لندن ١٨٨٥ ص ٣٧ – ٣٨.

على أننا إذا نظرنا إلى الأمر في ضوء المصطلحات الحديثة فإننا نستطيع أن نقول أن الغرض الرئيسي للنظم التجارية إنما كان تنمية الإمكانيات العسكرية، أو إمكانيات الحرب، ولهذا السبب توضع الصادرات والواردات تحت سيطرة أو رقابة عنيفة وتجمع المعادن الثمينة ويحافظ عليها، وتصنع مستلزمات البحرية أو تستورد على أساس دفع تعويضات أو هبات لتشجيع المصانع على الإنتاج، كما يشجع بناء السفن للنقل البحري وصيد السمك كمورد للقوى البحرية، وتنظم المستعمرات كما تعد وسائل حمايتها لاستكمال الثروة وللوصول إلى الكفاية الذاتية للدولة الأم، وكما يشجع نمو عدد السكان بغرض زيادة القوى العددية في الرجال(١)، وكانت هذه وغيرها من التدابير بقصد زيادة وحدة وقوة الأمة.

وقد أدى النظام التجاري بالطبيعة إلى الحرب، شأنه في ذلك شأن أي نظام تكون القوة فيه غرضًا في ذاته، كما تعبأ فيه الحياة الاقتصادية أساسيًّا للأغراض السياسية؛ ويعتقد ممثلو سياسة القوة أنه يمكن تحقيق أهدافهم بحالة جيدة ـ إن لم يكن بحالة أحسن ـ نتيجة لإضعاف القوة الاقتصادية للدول الأخرى بدلًا من تقوية قوتهم الاقتصادية هم أنفسهم؛ إن اعتبار الثروة كهدف لهو في الواقع حماقة وإن كان يعتبر أمرًا منطقيًّا لا غبار عليه من جهة نظر القوة السياسية؛ وتبدو أية محاولة للتقدم الاقتصادي بجهود

(١) كان من بين التدابير التي وضعت لتشجيع زيادة عدد السكان منع التوسع في المراعي، وأماكن الصيد بقصد امتداد الأراضي التي تُستخدم في زراعة المواد الغذائية، وعلى سبيل المثال صدر قانون في انجلترا جاء فيه "إن أمن الدولة يتطلب الدفاع ضد العدو بقوة الرجال وبتضاعف عدد الرعايا المواطنين لا بواسطة قطعان الماعز ولا جموع الحيوانات المفترسة" راجع: Eli Heckscher, Mercantilism (English translation by M. Shapiro) في مجلدين طبع لندن ١٩٣٥ – المجلد الثاني ص ٤٤.

الدولة وفي داخل أراضيها وكأنها غير محدودة الهدف إلا إذا اشتملت على اغتصاب أجزاء مما تملك الدول الأخرى؛ ومن النادر أن نجد عاملًا آخر في فلسفة سياسة التجارة يسهم بدرجة أكبر مع تشكيل السياسة الاقتصادية بل والسياسة الخارجية في جملتها[١]؛ وقد كان هذا المنطق السبب الرئيسي للحروب العلنية والمستترة والتي قامت في أوروبا من منتصف القرن السابع عشر إلى الحقبات الأولى من القرن التاسع عشر، وكان النظام الذي وضعه نابليون لقارة أوروبا، والنظام الإنجليزي الذي قام لمناهضة نظام نابليون هما في بساطة ذروة التطور لسلسلة طويلة من التدابير المماثلة.

وخرجت إنجلترا وحدها منتصرة من الحروب التجارية، وحصلت على وحدة قومية متماسكة قبل أي دولة أوروبية أخرى وتمتعت بالأمن الذي مكن له مركزها البحري؛ وكانت أقدر من غيرها في وضع «قوة أساطيلها وقوانين الملاحة في خدمة المصالح الاقتصادية للأمة والدولة مع السرعة والجرأة ووضوح الأغراض» وبذلك استطاعت الوصول إلى المركز القائد في الصراع من أجل الزعامة التجارية والسياسية[٢].

وفي قرابة عام ١٧٦٣ كانت انجلترا قد دمرت الأطماع البحرية والتجارية والاستعمارية لأسبانيا وهولندا وفرنسا، وقد دمرت في ووترلو من فرنسا التي نهضت بها الثورة من نابليون أيضًا، وفي عام ١٨١٥ بالرغم من أن

(١) نفس المرجع ٢ ص ٢١ و ٢٤.

(٢) Gustav Schmoller, The Mercantile System and Its Historical Significance (London and New York ١٨٩٦).

وقد ترجم عن الألمانية بقلم و. ج آشلي، والطبعة الألمانية قد نشرت في تقويم شمولر السنوي لعام ١٨٨٤ بعنوان:

"Das Merkantilsystem in seiner historischen. Bedeutung" Schmollers Jahrbuch ١٨٨٤.

انجلترا كانت قد فقدت مستعمراتها الأمريكية إلا أنها وصلت في الميدان العالمي إلى درجة من القوة تعيد للذاكرة ماضي الإمبراطوريات العظيمة القديمة.

يقول فردريك ليست: «ففي كل العصور كانت هناك مدن ومقاطعات امتازت على غيرها في الصناعة والتجارة والملاحة، ولكن لم يشهد العالم من قبل مثل هذه السيادة التي لبريطانيا في عصرنا هذا، لقد حاولت الأمم والدول في كل العصور الوصول إلى السيادة على العالم، ولكن واحدة منها لم تستطع أن تنشئ قوتها على مثل هذه الأسس؛ فكيف ذهبت هباء هذه الجهود التي حاول أصحابها أن يقيموا سيادتهم على أساس القوة عندما نقارنها بمحاولة انجلترا أن تنهض بصناعتها وتجارتها وبحريتها، وأن تكون لها بين دول وممالك الأرض مكانة الصدارة بالنسبة للبلاد التي تحيط بها، وأن تتوافر في داخليتها كل الصناعات والفنون والعلوم، وأن تتوافر لها كذلك الثروة والقوة البحرية التي لمركز التثاقل في العالم»(١).

وعلى أساس السياسة التجارية لانجلترا وضع كل من سمث البريطاني وهاملتون الأمريكي وليست الألماني السياسة الاقتصادية والأسس السياسية العامة للدولة التي هو من رعاياها، ومن الممكن أن نفهم ما أراد كل منهم أن يقوله خاصًّا بالأسس الاقتصادية للقوة العسكرية داخل الإطار العام للعصر الذي عاش فيه وروح الأحوال الخاصة بدولته.

***

(١) ليست – نفس المرجع ص ٢٩٣ – وقد كتب فردريك ليست هذا الحديث في عام ١٨٤١.

[٢]

وقد كان الوقت صالحًا في بريطانيا عندما نشر كتاب «ثروة الأمم» في عام ١٧٧٦ ـ صالحًا للنقد الصحيح لنظريات وأسس السياسة التجارية، كانت ثورة المستعمرات الأمريكية قد اجتذبت الأنظار والانتباه إلى أصول الأساليب والقوانين والنظم التجارية التي جاءت في أعطاف سياسة بريطانيا الاستعمارية، ***والواقع*** أنه كانت هناك مشاعر قوية تضاد هذه الحروب التي بقيت قائمة لأكثر من قرن، كما توافرت مشاعر السخط على هذا العبء الثقيل من ديون الحرب، هذا فضلًا عن أنه بعد انتصار بريطانيا على فرنسا في حرب «السبع سنين»(*) لم يعد هناك من ينافس انجلترا لا في القوة التجارية.. ولا في القوى البحرية، على أنه بسبب التزايد في الدراسة التشككية(**) للفلسفة السياسية والاقتصادية و«التي تعلمت بها الأمم أن مصلحتها الخاصة تتوقف على إفقار كل جيرانها»، فقد بدأت المشاعر تنمو وتتزايد مشيرة إلى أن بريطانيا قد وطدت مركزها كقوة عالمية، ولهذا فإنه من الممكن أن توجد سياسة أكثر تحررًا وأن «ثروة أي أمة مجاورة ـ مهما كان خطرها في الحرب والسياسة ـ لها على التأكيد فائدة أكبر في التجارة»[١].

(*) حرب السبع السنين ١٧٥٦ – ١٧٦٣، حاربت فيها بريطانيا وبروسيا ضد فرنسا والنمسا والروسيا، وامتازت هذه الحرب في البر بمعركة روسباخ وفي البحر والمستعمرات بفقد فرنسا لمستعمراتها في كندا والهند وقد انتهت الحرب بمعاهدة باريس (مُعجم لاروس ص ٦٨٧).

(**) في الأصل Skepticism وتعني الكلمة في أقرب الموارد العقيدة الفلسفية التي ترمي إلى أن حقيقة المعرفة يجب أن تكون دائماً موضع بحث يقوم على الشك. "المترجم".

(١) "Wealth of Nations" ص ٤٦٠ – ٤٦١، وحتى قبل حرب السبع كان دافيد هوم في=

وكان هناك أيضًا الشعور المستفيض بمضار هذا النظام السائد والذي مكن من أن تنتفع الحقوق الموطدة للطبقات باتحادها وتناسقها مع المصالح الحقيقية بل وحتى المصالح المتوقعة للأمة، وقد وجه سمث حملته ضد هذه المضار عندما هاجم طبقة التجار عامة والشركات التجارية خاصة؛ لما تقوم به من احتكار، ولاستخدامها سلطات الحكومة في أعمالها، ولتشجيعها على الحرب[١]، وقد قال سمث في حملته: «إن الأطماع الشخصية للملوك والوزراء لم تكن ـ في القرنين السابق والحالي ـ أكثر ضررًا بهدوء وسلم أوروبا من هذا التنافس وهذه الغيرة من جانب التجار والمنتجين الصناعيين، إن عنف وظلم الحكام شر قديم، ولكن هذا الجشع الرخيص وهذه الروح الاحتكارية التي تبدو واضحة في التجار والمنتجين «الذين ليسوا ولا ينبغي أن يكونوا حكامًا للجنس البشري»، هذا الجشع الرخيص يمكن بسهولة جدًّا أن نحول دون تسببه لأي ضرر إلا لهؤلاء التجار والمنتجين وحدهم»[٢].

وقد وجه سمث أعنف وأقسى نقد للسياسة التجارية في حملته على نظرياتها الخاصة بالنقد بما في هذا المبدأ القائل بأن الدولة يجب أن تحتفظ

=دراسة له وسمث بعنوان (الغيرة في التجارة) قد ذهب إلى حد معارضة كل الآراء التجارية بقوله "وليس فقط كإنسان بل وكأحد الرعايا البريطانيين المخلصين فإنني أصلي من أجل ازدهار التجارة في ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا بل وحتى في فرنسا نفسها، وذلك على أساس أن كل الأمم ستزدهر وأن سياستها تجاه بعضها البعض ستكون أكثر فائدة ونفعاً" ت. هـ. جرين و ت. هـ. جروس (دراسات هوم في المعنويات والسياسة والأدب) طبع لندن ١٨٩٨ ج١ ص ٣٤٨.

(١) "شركات الاحتكار" نفس المرجع ص ٥٩٥ – ٦٠٦.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٦٠.

بحصيلة كبيرة من الذهب والفضة «كصندوق للحرب»، وقد تقبل سمث أن بريطانيا يجب أن تستعد للإنفاق على الحرب «ذلك لأنها كدولة صناعية وكأمة مؤثرة تكون أكثر تعرضًا لأن تهاجم أكثر من تعرض غيرها من الأمم للهجوم»؛ ولم يغفل سمث كذلك عن أن بريطانيا بسبب مستعمراتها الكبيرة ولمصالحها التجارية الواسعة فيما وراء البحار تحتاج إلى الاحتفاظ بقوات عسكرية ومنشآت بحرية، ولكنه رفض اعتبار صناديق الحرب ضرورية أو حتى نافعة للدفاع عن الأمة؛ ذلك لأنه «لا يحتفظ بالأساطيل والجيوش بواسطة الذهب والفضة بل بالمتاجر الاستهلاكية، والأمة التي تستطيع أن تشتري هذه المتاجر الاستهلاكية من ممالك بعيدة تستطيع أن تقوم بالحروب في خارج أراضيها». وقد ثبت هذا بما قامت به بريطانيا من إعداد النفقات الكبيرة لحرب السبع سنوات من فوائد اتساع نطاق صناعاتها، ومن الزيادة الكبيرة في منتجاتها الخارجية[١] أو في كلمات أخرى، فإن سمث قد اعتقد بأن قدرة أمة ما على الإنفاق على الحرب إنما تقاس أحسن ما تقاس بقدرتها الإنتاجية، كما نوقش هذا بواسطة فردريك ليست في تاريخ متأخر.

وبالإضافة إلى هذا فقد عارض «صناديق الحرب» كما عارض «قروض الحرب» كوسيلة أساسية لتمويل الحروب، وقد فضل بدلًا من هذا إصدار الضرائب الفادحة؛ إن الحروب التي تدفع نفقاتها تدريجيًّا «تتم من وجهة عامة بسرعة أكبر، كما أنها تنفذ من جانب الحكومات في أسلوب مفكك نظرًا لأنها بدون دافع قوي، ثم إن الأعباء الثقيلة للحرب التي لا يمكن

(١) توجد المناقشة الخاصة بصناديق الحرب في الكتاب الرابع الفصل الأول وعلى الأخص الصفحات ٣٤٨ – ٤١٥، والفقرات المنقولة هنا مُقتطفة من الصفحات ٣٩٩، ٤٠٩، ٦٧٩.

تجنبها تعطل الناس من تطلبها عندما لا تكون هناك أية مصالح حقيقية للقتال من أجلها»[١].

وبالرغم من حقيقة أن كتاب «ثروة الأمم» قد بات المرجع المقدس للمدرسة الإنجليزية للقرن التاسع عشر، وأن آدم سمث قد بات الموجه العبقري لهذه المدرسة، فالحقيقة أن آدم سمث في الواقع لم يتنكر لأسس معينة من العقيدة التجارية، فقد اعترض على بعض وسائلها أو أساليبها، ولكنه قد وافق على الأقل على واحدة من غاياتها هي الحاجة لتدخل الدولة في المسائل الاقتصادية إلى المدى الضروري اللازم للقوة العسكرية للأمة، وكان أولئك الذين اتبعوه أكثر إيمانًا بحرية التجارة من سمث نفسه؛ وقد كتب سمث يقول: «إن الواجب الأول للملك هو حماية المجتمع العام من عنف غزو المجتمعات المستقلة الأخرى، ومن الممكن الوصول إلى هذا بواسطة القوة العسكرية»؛ ولكن وسائل إعداد هذه القوة في وقت السلم واستخدامها في وقت الحرب تتباين وتتغير بتغير الأحوال المختلفة للمجتمع؛ لقد باتت الحرب أكثر تعقدًا وأكثر نفقات تبعًا لتقدم المجتمعات في فنون التجارة، وذلك تبعًا لاختلاف التنظيم العسكري ووسائل تدعيمه وإمداده في الدول التجارية والصناعية عن هذا التنظيم ووسائل تدعيمه في المجتمعات الأقرب إلى الحال البدائية[٢]، أو بمعنى آخر ـ كما أشار ماركس

(١) نفس المرجع ص ٨٧٨ – ٨٧٩، ومن الصعب أن تدعم حقائق التاريخ فكرة أن الحكومات أو الشعوب تقدر بعناية نفقات الحرب قبل بدء العمليات العدائية.

(٢) ذات المرجع – الكتاب الخامس الفصل الأول القسم الأول ٦٥٣ – ٦٦٩، والفقرة من ص ٦٥٣، وتوضح هذه الفقرة بجلاء المدى الذي تقبل سمث على أساسه بعض المُعتقدات الموثوق بصحتها من السياسة التجارية؛ ويبدو أن ويليام كاننجهام الرجل الذي كان يعجب بسمث قد أغفل في كتابه (نمو الصناعة والتجارة الإنجليزية في=

وآنچلز فيما بعد ـ فإن صور التنظيم الاقتصادي هي التي تقرر ما يستخدم من آلات الحرب كما تقرر طبيعة العمليات الحربية، ومن أجل هذا فلا يمكن تجنب القول بأن القوة العسكرية تبنى على أسس اقتصادية.

وغاية ما يتصل الأمر ببريطانيا فإن عقد السياسة التجارية كان «قوانين الملاحة»(*)؛ ولربما كانت السياسة التجارية في مظاهرها الأخرى لأزمة

=العصر الحديث) Growth of English Industry and Commerce in Modern Times من جزئين طبع كامبردج ١٨٨٢ قد أغفل الحقيقة كلها عند ما قال بأن سمث (قد تحدث عن الثروة دون إشارة إلى القوة) وبلا شك أن سمث لم يكن ليوافق على ما قاله كاننجهام من أن دراسة الثروة يجب أن تنفصل عن "الأهداف القليلة الأهمية" المجلد ١ ص ٢٩ المقدمة و ص ٥٩٣ – ٥٩٤ وبخاصة الملاحظة ٢ هامش صفحة ٥٩٤، وقد تنبأ سمث فيما كتب بعد حرب السبع السنوات بأمدٍ قصير، وبمناسبة قيام الثورتين الفرنسية والأمريكية بحقائق سياسة القوة، على حين أن كاننجهام كان يكتب وهو في منتصف الطريق وفي قرن مر كله في سلام وهدوء، فلما بدت الحرب بعيدة رأى الموقف متغيراً، وقد غفل ليست – خصم سمث العنيف – عن الحقيقة كما غفل عنها كاننجهام، وقد أخطأ في اعتبار آراء الذين اتبعوا تعاليم آدم سمث من أنصار مدرسته على أنها آراء سمث نفسه كما يتضح هذا بسهولة.

(*) سلسلة طويلة من القوانين ذات طابع وقائي صدرت على أوقات متفرقة لمنع التجارة الأجنبية من التنافس على قدم المساواة مع التجارة الإنجليزية، وبالرغم من أن هذه القوانين ترجع إلى عهد ريتشارد الثاني إلا أن أهم هذه القوانين صدر في عهد كرومويل عام ١٦٥١ موجها على التخصيص ضد هولنده ونص فيه على أن كل واردات بريطانيا يجب أن تنقلها سفن إنجليزية أو سفن الدولة المصدرة، وأن كل صادرات بريطانيا يجب أن تحملها سفن إنجليزية وذلك بقصد احتكار نقل المتاجر الإنجليزية للعالم كله، وقد طبقت هذه القوانين أيضاً في ممتلكات بريطانيا فيما وراء البحار وقد أثار هذا القانون المشاكل ضد بريطانيا في مستعمراتها الأمريكية وفي أيرلندة، ولم تُعطل هذه القوانين إلا في منتصف القرن التاسع عشر. وقد نص في أمر التعطيل للقانون على وجوب العودة إليه إذا وضعت أية تحديدات على السفن الإنجليزية في المياه الإقليمية لأيٍ من الدول – دائرة المعارف المُجلد ٩ ص ٥٩١.«المترجم».

ضرورية في فترة مبكرة من تطورها الاقتصادي، ولكن في نهاية القرن الثامن عشر كانت انجلترا متقدمة صناعيًّا بدرجة كبيرة وكانت الإجراءات الوقائية أقل أهمية بالنسبة لها مما هي بالنسبة لفرنسا أو للولايات الألمانية، وكانت تستطيع إذا لزم الأمر ألا تفرض أي رسوم على معظم الصناعات؛ ذلك لأنها لم تكن تواجه منافسة قوية لا في أسواقها المحلية ولا في أسواقها فيما وراء البحار؛ ***والواقع*** أنها فيما بعد، واعتبارًا لمصلحتها الخاصة، قد نفضت يديها من هذه السياسة الوقائية؛ ذلك لأنها عرفت كما قال بسمارك(*): «أن التجارة الحرة هي سلاح الأقوى»، ولكن كانت القوة البحرية شيئًا آخر، وكان من الواجب أن ينظر إلى كل ما يتعلق بها تبعًا لمبادئ أخرى تكون هي الأساس للحكم والتقدير؛ كان أمن بريطانيا ثم أمن الإمبراطورية يتطلبان أن تتوافر لها على كل خطوط الملاحة في المحيطات سيادة غير مهددة، بل وأن تعمل في غير هوادة ضد أية قوة تحاول تهديد هذه السيادة، وبالإضافة إلى هذا فإن التكوين الصناعي والمالي والتجاري قد قام على أسواقها وموارد تموينها من وراء البحار، ولما كانت البحرية التجارية تعتبر بالنسبة لبريطانيا رأس مال اقتصادي كما أنها كانت عاملًا ضروريًّا في أمنها العسكري وعلى الأخص في عصر كان من الممكن فيه أن تحول السفن التجارية إلى سفن حربية بسرعة، فقد صرح لورد هاڤيرشام في مجلس اللوردات بقوله: «إن

(*) بسمارك أوتو (برنس أوف بروسيا) سياسي بروسي ولد في شاتهورن عام ١٨١٥، كان واحداً من مؤسسي الاتحاد الألماني، مكنه الانتصار على الدانمارك من ضم ولايتي شلزويج وهولستين، قاد الحرب السبعينية ضد فرنسا ١٨٧٠ – ١٨٧١ وأتم بعد معركة سيدان وحدة الإمبراطورية الألمانية، ولكي يعزل فرنسا عن باقي أوروبا كون الاتحاد الثلاثي مع النمسا وإيطاليا، ونجح في أن يوجه ألمانيا في ميدان الاستعمار، ثم اعتزل العمل بعد تتويج غليوم الثاني بقليل، ومات عام ١٨٨٩ (مُعجم لا روس ص ١٢٣٢).

أسطولكم وتجارتكم يرتبطان معًا بصلة وثيقة قوية ويؤثر كل منهما في الآخر تأثيرًا تعاونيًّا كبيرًا، ولا يمكن أن يفصل أيهما عن الآخر، فتجارتكم هي الأم التي ترعى رجال بحريتكم، ورجال بحريتكم هم عصب الحياة لأسطولكم، وأسطولكم هو وسيلة الأمن والوقاية لتجارتكم، والاثنان معًا هما الثروة والقوة والأمن لبريطانيا»[١].

ولهذه الأسباب فإن الاختبار الحقيقي لوجهات نظر آدم سمث عن السياسة التجارية وعن سياسة القوة إنما تقوم على أساس وقفته من قوانين «الملاحة والمصايد»، وقد قال سمث: «إن الدفاع عن بريطانيا يتوقف بدرجة كبيرة على عدد سفنها وملاحيها، ولهذا فإن قانون الملاحة كان جهدًا موفقًا لإعطاء بريطانيا وملاحيها حق احتكار تجارة بلادهم».

ويتابع سمث حديثه فيقول: «عندما صدر قانون الملاحة قام بين بريطانيا وهولندا عداء عنيف بالرغم من أنهما لم تكونا في حالة حرب معًا، لقد بدأ هذا في حكومة البرلمان «الطويل الأجل»[*] الذي وضع الأسس الأولى لهذا

---

(١) نقلها ج. س. جراهام في كتابه (القوة البحرية وأمريكا الشمالية الإنجليزية) طبع كامبردج ١٩٤١ ص ١٥، ويُعتبر هذا الكتاب مرجعاً طيباً للمناقشة الخاصة بقوانين الملاحة ومكانها من السياسة الإنجليزية وبخاصة الصفحات ١٥ – ١٧ من الكتاب:

"G.S. Graham, Sea Power and British North America"

(*) "البرلمان الطويل الأجل" هو البرلمان الذي دُعي للانعقاد بأمر شارل الأول في الثالث من نوفمبر سنة ١٦٤٠، وقد كان هذا البرلمان هو الذي قام بالحرب الأهلية ضد الملك شارل، وقد بدأ الاصطدام عند ما قرر البرلمان أن فرض الضرائب إنما يرجع إلى سلطة مجلس العموم وليس للملك، وقد بدأت الحرب الأهلية في يناير سنة ١٦٤٢ عند ما أبى النواب إطاعة أمر الملك بتسليم زعماء المجلس "هامبرن وبايم وهوليس وهازلريج وسترود" للمحاكمة؛ وقد أدى هذا إلى إلغاء مجلس اللوردات وتعيين المحكمة العليا التي حاكمت شارل الأول وحكمت بإعدامه، وقد استمر المجلس قائماً حتى سنة ١٦٥٣ عندما حله=

القانون، ثم لم يلبث أمر هذا العداء أن اشتد في عهد كرومويل(*) وشارل الثاني، ولهذا فإنه ليس من الخطأ أن نقول بأن بعض نظم هذا القانون قد جاءت نتيجة للكراهية والعداء الشعبي، إنها مليئة بالروية والعقل وكأنها قد جاءت كلها من المعين الذي لا ينضب من الحكمة، إن الكراهية الشعبية قد هدفت في ذلك الوقت إلى نفس الغرض الذي لابد وأن تكون الحكمة قد أوصت به، ألا وهو إضعاف القوة البحرية لهولندا؛ أي القوة البحرية الوحيدة التي كانت تستطيع أن تعرض أمن بريطانيا للخطر».

«إن قانون الملاحة ليس في جانب التجارة الخارجية، ولا إلى جانب اطراد الرخاء أو الثراء الذي يمكن أن ينتج عنها، ولكن لما كان الدفاع أكثر أهمية من الرخاء فإن قانون الملاحة ربما كان أكثر النظم التجارية لبريطانيا حكمة»(١).

وقد اتخذ بالتبعية ذات الاتجاه بالنسبة للمصايد البحرية: «ولكن بالرغم

=كرومويل بقوة الجيش، وعاد المجلس نفسه للانعقاد سنة ١٦٥٩ بعد موت كرومويل وكان هذا المجلس هو الذي استدعى شارل الثاني للحكم وحُل هذا المجلس سنة ١٦٦٠ وبذلك كانت مدته قرابة العشرين السنة وهي أطول مدة بقى فيها مجلس نيابي في تاريخ بريطانيا. "المترجم" .New Standard Encycl. Vol. VI (١٩٣٨)

(*) كرومويل (أوليفر) ولد في هنتنجدون سنة ١٥٩٩، كان عضواً في البرلمان طويل الأجل أعد للثورة وهزم قوات الملك باسم البرلمان في ناسيل عام ١٦٤٠، وكون المحكمة التي قضت بإعدام شارل الأول في عام ١٦٤٩، حل البرلمان الطويل الأجل عام ١٦٥٣ وتولى الأمر مُطلق السلطان مع لقب "حامي الجمهورية". ويعتبر كرومويل واحداً من أعظم الرجال في تاريخ بريطانيا طوال العصر الذي عاش فيه حتى عام ١٦٥٨، كتب عنه جيزو كتابه (تاريخ الثورة الإنجليزية)، وقد نشر كارليل خطب كرومويل ورسائله، كما قدم "ڤيليمين" تاريخاً قيماً لحياته في كتابه (تاريخ كرومويل). "المترجم"

(١) الكتاب الرابع فصل ٢، ص ٤٣٠ – ٤٣١ .Wealth of Nations

من أن ضريبة الحمولة لسفن الصيد لا تتمشى مع رخاء الأمة إلا أنه ربما يظن بتمشيها مع الدفاع عنها تبعًا للزيادة المستمرة في عدد السفن التي تعمل فيها، وعدد الملاحين الذين يعملون في هذه السفن»[١].

وقد وافق آدم سمث على القوانين التي فرضت الرسوم على إنتاج المحطات البحرية في المستعمرات الأمريكية التي نصت على تحريم تصدير منتجاتها من أمريكا إلى أي بلد آخر عدا بريطانيا، وكان هذا التنظيم التجاري عادلًا من وجهة نظر سمث؛ ذلك لأنه يمكن من جعل بريطانيا مستقلة عن السويد وغيرها من البلاد الشمالية في الإمداد بالاحتياجات الحربية، كما أنه يسهم في الكفاية الذاتية للإمبراطورية[٢].

ولم يقف سمث موقف الاعتراض من الرسوم الوقائية عندما كانت ضرورية لازمة لأغراض الأمن العسكري، وقد قال: «إنه من النافع المفيد من وجهة عامة أن يلقى جانب من العبء على الصناعات الأجنبية بقصد تشجيع الصناعات المحلية عندما تكون هذه الصناعات ضرورية للدفاع عن البلاد».

فقد منحت مثل هذه الوقاية لصناعة السفن بواسطة قوانين الملاحة، ولكن سمث كان راغبًا في فرض رسوم ووضع حواجز جمركية لصالح الصناعات الأخرى ولغير هذا من الأغراض العامة؛ ذلك لأنه «من الأهمية بمكان ألا تعتمد الدولة إلا لأقل ما يمكن على جيرانها من ناحية الصناعات اللازمة لدفاعها عن نفسها، فإذا لم يكن هذا مستطاعًا في أرض الوطن فمن المنطق إذن أن تفرض الضرائب على كل الصناعات الأخرى لمعاونة هذه

(١) نفس المرجع الكتاب الخامس، ص ٤٨٤ – ٤٨٥.

(٢) ذات المرجع ٥٤٥ – ٥٤٦ و ٦٠٩ – ٦١٠ و ٤٨٤ ملاحظة رقم ٣٩ بالهامش.

الصناعات الضرورية للدفاع».

أي أن المعاونة تكون عن طريق الحصيلة التي تتجمع من الرسوم المفروضة على الصناعات الأخرى، وقد وافق سمث أيضًا ـ مع بعض التمنع ـ على الرسوم المقابلة أي الرسوم المماثلة لغيرها، وبذلك بدأ ما وسم بعنوان «حروب الرسوم الجمركية»[1].

لقد كان سمث من أصحاب مبدأ «حرية التجارة» عن إيمان قوي وعقيدة في صدق نظريته، ولهذا فقد جرَّح بل ودمَّر تمامًا بعض النظريات التي كانت من أسس السياسة التجارية في الصورة التي عرفتها بريطانيا في أيامه، والتي كانت في نظره غير مستساغة ولا مقبولة. كان يشك في تدخل الدولة في أعمال وجهود الأفراد، ولم يكن محبًّا لسلطة الدولة من أجل إظهار هذه السلطة وحدها، ولكن السؤال المحير لتقدير صلته بهذه المدرسة من مدارس الفكر والتي كانت تعنى برسم السياسة التجارية، هذه الصلة لم تكن في «هل كانت نظريات التجارة صحيحة أم غير صحيحة؟ بل في: هل يجب ـ عند الضرورة ـ استخدام القوة الاقتصادية للدولة كوسيلة سياسية؟!!».

ومن الواضح أن إجابة سمث على هذا السؤال كانت بالإيجاب!!!، وأن القوة الاقتصادية يجب أن تستخدم بين الوسائل السياسية التي تستخدمها الدولة.

على أن هذا لم يكن مفهومًا كله، وكان مريدو سمث ـ وبخاصة أولئك الذين عاشوا في انجلترا إبان القرن التاسع عشر ـ مسئولين عن تقديمه

(١) ذات المرجع ٤٢٩ و ٤٣٤ و ٤٨٤ – ٤٨٩ وبخاصة الملاحظة رقم ٣٩ بالهامش.

كصاحب آراء في حرية التجارة، ولكنه يقف في منتصف الطريق فينزل عن جانب من اتجاهاته الأصلية تبعًا لظروف خاصة، وقد عاون بعض ناقديه ـ وبخاصة الألمانيين شموللر وليست ـ على أن تطغى الصرخات العالية المنادية بحرية التجارة على بقية تعاليم سمث، وهكذا كان سمث يعتبر في بعض المحافل مخادعًا على حين كان في البعض الآخر مواطنًا رأى بلاده تزيد من نمو استراتيجية وتكتيكات السياسة التجارية، هذه السياسة التي مكنتها من أن تكون قوة لا تبارى، فكان إذ ذاك على استعداد لأن يوصي بأن تنفض الدول الأخرى الأقل منها ثروة أيديها من هذه السياسة؛ أما أن سمث كان في قرارة نفسه مواطنًا صالحًا فهذا ما لا يمكن إنكاره، وأما القول بأنه كان مخادعًا فهذا بلا شك غير صحيح فهو لا يستحق إطلاقًا ما اتهمه به ليست الذي كان أكثر معرفة بمدرسة سمث من أن يعرف سمث نفسه على حقيقته.

ونلقي هنا حديث ليست الألماني وإيضاحه لرأيه في سميث ونظرياته:

«إنها عملية عادية مليئة بالمهارة، وهي أن أي فرد يصل إلى ذروة العظمة لا يتردد في أن يدفع بعيدًا بالسلم الذي ارتقى عليه، وذلك ليمنع غيره من الناس من الوصول إلى درجته وليحرمهم من وسيلة للصعود في أثره وفي أعطاف هذه الحقيقة يكمن سر العقيدة العالمية التي كان آدم سمث يدعو إليها، كما تبدو حقيقة هذه الاتجاهات المماثلة التي جاء بها ويليام بت وخلفاؤه من الذين عملوا في إدارات الحكومة الإنجليزية».

«إن أية أمة استطاعت بالتدابير والرسوم الوقائية وبالتحديد من حرية الملاحة، أن تنهض بقوتها الصناعية وبحريتها وملاحتها إلى الدرجة التي لا يمكن أن تصل إليها أمة أخرى، فتستطيع منافستها منافسة حرة، مثل هذه

الأمة ليس أمامها ما تفعله ـ وتكون حكيمة في عملها ـ إلا أن تلقي بعيدًا بالسلم الذي مكنها من الوصول إلى العظمة «لتحرم الدول الباقية من الصعود على أثرها، بل وأن تبشر الأمم الأخرى بفائدة ونفع التجارة الحرة وأن تعلن بنغمة مليئة بالشعور بالخطأ بأنها قد تخبطت في الطرقات الخاطئة، وأنها قد نجحت لأول مرة في اكتشاف الحقيقة»(١).

***

(١) "ليست" – ذات المرجع ٢٩٥ – ٢٩٦.

ونجد تعليقاً مماثلاً لشمولر ص ٧٩ – ٨٠ وإن كان حديث شمولر قد جاء أقل عنفاً، كما نجد نقداً نازياً حديثاً بقلم ب. و. شرودر تحسن مراجعته في هذه الدراسة، وقد جاء نقد شرورد في بحثه المعنون "نظرات في كتاب ثروة الأمم لآدم سمث" نشر في تقويم شمولر المجلد ٦٣ لعام ١٩٣٩ العدد ٣ ص ١-١٦.

[٣]

ولقد أشار فرانسيس بيكون(*) منذ أكثر من ثلاثمائة عام إلى أن قدرة الأمة على الدفاع عن نفسها تتوقف على ممتلكاتها المادية بدرجة أقل من توقفها على روح الأهلين، وأنها تعتمد على المدخر من الذهب بأقل من اعتمادها على عزيمة وإصرار التنظيم السياسي[١] لها؛ ولا بد أن آدم سمث كأستاذ للفلسفة المعنوية كان على دراية تامة بأعمال بيكون، وعلى أية حال فإنه كان يعتقد بأن «أمن كل مجتمع يجب أن يتوقف بدرجة ما كبيرة أو صغيرة على الروح الحربية للأهلين، على أن الروح الحربية وحدها ـ دون أن يعاونها جيش قائم جيد الضبط والربط ـ ربما لا تكون كافية للدفاع ولا لأمن أي مجتمع، ولكن حيثما تتوافر لكل مواطن روح الجندي فمن الضروري أن يتوافر أيضًا جيش صغير قائم يستند إلى هذا المجتمع»، وقد سار سمث إلى أبعد من هذا في اعتقاده بأنه: «وإن كانت الروح الحربية للأهلين عديمة النفع في الدفاع عن المجتمع إلا أنه للحيلولة دون انتشار هذا النوع من التشتت العقلي والاضطراب الاجتماعي والتخاذل الذي يكون الجبن أو الخذلان متغلغلًا فيه، لمنع انتشار هذا كله وسط مجموعات الأهلين يتطلب الأمر انتباه الحكومة، بل وأن تعنى الحكومة بهذا في نفس الصورة التي تعنى بها لمنع

(*) فرانسيس بيكون بارون ڤيرولام فيكونت سانت البان (١٥٦١ - ١٦٢٦) فليسوف وسياسي إنجليزي.

(١) Essays Civil and Moral, No. ١٩ "Of the Greatness of Kingdoms and Estates" In the Works of Francis Bacon, edited by James Spedding VII "Boston ١٨٤٠".

انتشار الأمراض والأوبئة وإن كان انتشار هذه الأمراض بين مجموعات الأهلين ليس خطيرًا ولا قاتلًا ولا مدمرًا» وإنما عن طريق «التدريب العسكري الذي تعاونه الحكومة يمكن الاحتفاظ بالروح العسكرية للأهلين بدرجة مؤثرة»(١)، وعلى مدى القرن التاسع عشر كان الكثيرون من مريدي سمث وأشياع مدرسته ـ بخاصة كوبدن وبرايت(*) ـ يدعون لحرية التجارة بإخلاص، كما أنهم كانوا مسالمين عن عقيدة غير راضين عن الحروب، وكان من الطبيعي أن هؤلاء كلهم ما كانوا ـ وهم أصحاب آراء تقدمية متحررة ـ أن يسجلوا مثل هذه العقيدة التي جاء بها سمث عن التدريب العسكري للاحتفاظ بالروح العسكرية.

وقد كانت هناك مشاعر عميقة بين المجتمعات الأنجلو / أمريكية ضد «الجيوش العاملة الدائمة» وإنشائها والاحتفاظ بها؛ فإن الموقع البحري للجزر البريطانية مكن مجلس العموم البريطاني من أن يتخبط طويلًا في مناقشة موضوع الدفاع الأهلي. وقد أدى التنافس الطويل بين البرلمان والملك، «هذا التنافس الذي كان الجيش ـ على مداه ـ آلة في يد آل ستيوارت»(**) من زيادة الاعتقاد بأن الجيش المحترف يعتبر خطرًا على الحرية الأهلية، وقد احتفظت الدول الأوروبية التي تنافس بريطانيا بجيوش دائمة كبيرة كدعامة لقوتها، بل واستطاعت أن تصل بالجنود المحترفين إلى

---

(١) ثروة الأمم، المجلد الأول، ص ٧٣٧ – ٧٤٠.

(*) كوبدن ريتشارد، اقتصادي إنجليزي (١٨٠٤ – ١٨٦٥) نشر الأفكار الحرة المتداولة في عصره.

جون برايت سياسي إنجليزي من حزب الأحرار (١٨١١ – ١٨٨٩). "المترجم"

(**) آل ستيوارت: أسرة اسكتلندية ينتسب إليها كثيرون من ملوك انجلترا منهم ماري ستيوارت وشارل الأول وشارل الثاني وغيرهم. "المترجم"

تقدم كبير في التنظيم العسكري وفي فن الحرب»[١]، على أن البرلمان مع هذا استمر في وقت السلم يحتفظ بجيش كبير العدد، كما تبع هذا استمرار النظام غير الصحيح المدمر للقوى المعنوية من إسكان الجنود مع الأهلين، والاعتماد على الميليشيا لإمداد الجيش باحتياجاته من الرجال، وقد هاجم الشاعر دريدن هؤلاء الجنود من الميليشيا في قصيدته «سيمون واڤيچينيا»:

«إن الأرض لتمتلئ بصرخات الفزع عالية».

«عندما ينساب جنود الميليشيا في الحقول».

«إنهم أفواه بلا أيد يتطلب إطعامها النفقات الطائلة».

«وهم في السلم يهاجمون ويهددون.. فإذا جاءت الحرب كانوا ضعافًا في الدفاع عن البلاد».

«إنهم يسيرون مرة كل شهر خلف موسيقى صاخبة».

«ودائمًا هم في المقدمة إلا إذا كانت هناك حاجة ملحة لسواعدهم فإنهم يتقاعسون..».

وقد كتب مكاولي[*] في نهاية القرن السابع عشر: «ولا يمكن أن يقرر أي

(١) راجع الفصل الثاني – ولدراسة أكبر لآراء سمث الخاصة بالجيوش العاملة راجع على التخصيص المقال القيم للعلامة السير تشارلس بولوك الأستاذ بجامعة هارفارد. Charles J. Bullock "Adam Smith's Views upon National Defence", Military Historian and Economist, I (١٩١٧), ٢٤٩ – ٢٥٧.

(*) مكاولي – تاماس بابينجتون بارون ماكاولي (١٨٠٠ – ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي تعلم في جامعة ترنيتي بكمبردج، عمل في الصحافة ودخل مجلس العموم عام ١٨٣٠، ورحل إلى الهند للعمل بها لخمس سنوات متتالية حيث وضع القانون الجنائي للقارة الهندية، ولما عاد إلى بريطانيا عاد من جديد لمجلس العموم، واشتغل لعشر سنوات بين عام ١٨٣٩ و١٨٤٩ في كتابة تاريخ انجلترا، وقد غطى في كتابه المدة من ثورة كروميل حتى موت=

من الرجال المسئولين أن سياستنا التقليدية يمكن أن تعيش جنبًا إلى جنب مع وجود جيش دائم، لقد كان (الأحرار) يكررون بأن الجيوش الدائمة قد دمرت التعاليم الحرة التي جاء بها جيراننا من الأمم الأخرى، وكان (المحافظون) يقولون دائمًا بأن الجيش الدائم العامل تحت إمرة كرومويل قد حارب الدين واضطهد النبلاء وذبح الملك، ولا يستطيع زعيم أي حزب ما لم يعرض نفسه للاتهام بالخبل والجنون أن يقترح بأن يكون الجيش من المنشآت الدائمة في حياتنا»[١].

كان هذا هو الموقف، عندما كان سمث أستاذًا للفلسفة في جامعة جلاسجو (١٧٥٢ ـ ١٧٦٣) وألقى محاضراته القيمة عن «العدالة» و«البوليس» و«الميزانية» و «الأسلحة»[٢] وفي هذه المحاضرات افترق سمث عن أستاذه الشهير فرنسيس هتشنسون[*] الذي عارض إنشاء الجيوش العاملة على أساس أن الفنون والفضائل العسكرية قد باتت حلية المواطنين الأشراف، وأن صناعة الحرب يجب ألا تكون حرفة دائمة لأي فرد، بل إن الجميع يجب أن يقوموا بها على التوالي، كل في دوره[٣]؛ وقد بدا هذا لسمث على أنه برنامج غير عملي، ووقف وقفة قوية للدفاع عن إنشاء الجيش

=چون الثالث. وقد صدر الجزء الخامس من الكتاب بعد وفاته بعامين. معجم دائرة المعارف البريطانية مجلد ٣، ص ٤٥٣. "المترجم"

(١) "تاريخ انجلترا" طبع بوستون جزء ٤، ص ١٨٦ – ١٨٧.

History of England (Riverside edition: Boston)

(٢) قدمها إدوين كانان طبع أُكسفورد عام ١٨٩٦ عن مذكرات دونها طالب في عام ١٧٦٣.

(*) فرنسيس هتشنسون أيرلندي الأصل أستاذ الفلسفة والدراسات الاجتماعية، له عدة مؤلفات قيمة عاش من ١٦٩٤ إلى عام ١٧٤٧. "المترجم"

(٣) "مقدمة قصيرة للفلسفة المعنوية" لفرنسيس هتشنسون في مُجلدين طبع جلاسجو ١٧٦٤ المجلد الثاني ٣٤٨ – ٣٤٩. Francis Hutcheson, a Short Inroduction to moral philosophy.

المحترف.

ولم ينكر سمث أن الجيش العامل قد يكون تهديدًا لحرية الأفراد؛ فإن كرومويل قد ألقى بالبرلمانيين من الباب مستندًا إلى الجيش، ولكن سمث كان يعتقد أن من الممكن ـ بالاحتياطات الصحيحة السليمة ـ أن يكون الجيش عضدًا للسلطة الدستورية لا وسيلة للقضاء عليها؛ وعلى أية حال فإن الأمن يتطلب قوة مسلحة مدربة تدريبًا عاليًا جيدة النظام. وإذ ذاك فقط تستطيع الدولة أن تطمئن إلى جدها في خوض المعارك، فلا يمكن للميليشيا ـ مهما دربت ومهما كان ضبطها جيدًا ـ أن تحل مكان الجنود المحترفين وبخاصة في عصر جعل فيه لتطور الأسلحة النارية أهمية كبيرة للتنظيم والنظام أكثر مما للمهارة الفردية والشجاعة، ولهذا فإن المطالب الأولية للاحتياطات العسكرية تتطلب أن يفسح كل من الشك التقليدي في الجيش المحترف والاستخدام التاريخي للميليشيا الطريق للحاجة الملحة التي وضحت في كل عصر؛ وهي ضرورة إنشاء جيش عامل، ثم إن المبادئ الاقتصادية الصحيحة تتطلب أن تكون الحرب صناعة وحرفة لا هواية.

وقد كتب سمث: «لما كان فن الحرب على التأكيد أنبل الفنون فإنه من الضروري أن يجعله تقدم تطوره من أكثر الفنون تعقدًا، فإن الصورة الآلية التي من الضروري أن ترتبط به ـ والتي ترتبط أيضًا ببعض الفنون الأخرى ـ هي التي تحدد درجة الكمال التي تجعل «فن الحرب» صالحًا لأن تنفذ عملياته في زمن محدد معين؛ ولكن لكي يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة من الدقة فمن الضروري أن يكون الصناعة الوحيدة والرئيسية لطبقة خاصة من المواطنين، والتخصص هنا لازم للتقدم الفني لصناعة الحرب. كما هو ضروري بالنسبة لأي فن آخر، إن التخصص في الفنون الأخرى يجيء تابعًا

لاتجاهات الأفراد بكل جهودهم ونشاطهم إلى حرفة خاصة واحدة فيصلون إلى درجة من المهارة في هذا الفن أكثر مما يصلون إليه بتوزيع جهودهم بين حرف وصناعات عدة، ولكن حكمة الدولة وحدها هي التي تجعل حرفة الجندية حرفة خاصة منفصلة انفصالًا تامًّا عن غيرها؛ إن المواطن الذي يقضي الجزء الأكبر من وقته إبان السلم في التدريب العسكري دون أي تشجيع من جمهرة الناس يستطيع بلا شك أن يصل إلى درجة كبيرة من التقدم في هذا التدريب وأن يشبع هوايته ورغبته، ولكنه بلا شك أيضًا لا يستطيع أن يتقدم بمصالحه الخاصة، وهنا تكون حكمة الدولة وحدها هي التي تجعل من مصلحته أن يعطي الجزء الأكبر من وقته لهذه الصناعة الخاصة؛ على أن هذه الحكمة لم تكن موفورة دائمًا لكل الدول حتى وإن كانت ظروف وجودها تتطلب هذا»[١].

ولقد كان من اتفاق الحوادث ـ وهو أمر كانت له قيمته الخاصة المميزة بالنسبة للشعوب التي تتكلم الإنجليزية ـ أن حدث في عام ١٧٧٦ طبع كتاب «ثروة الأمم»، كما حدث أيضًا «إعلان الاستقلال»[*]، وقد ناقش آدم سمث طويلًا علاقة بريطانيا بمستعمراتها الأمريكية، وكان ما قاله من الأهمية لكل من يدرس تاريخ بريطانيا وأمريكا؛ على أنه من الضروري

(١) ذات المرجع الكتاب الخامس الفصل الأول ص ٦٥٨ – ٦٥٩؛ وبالإضافة إلى هذا راجع "المحاضرات" الجزء الرابع.

(*) "إعلان الاستقلال" – أعلن استقلال أمريكا في الرابع من يوليو عام ١٧٧٦، وشمل هذا الإعلان ثلاث عشرة ولاية تحت اسم "الولايات المتحدة الأمريكية" وقد اضطر الإنجليز لإعلان هذا الاستقلال بعد هزيمتهم بواسطة واشنطون، واعترفت حكومة لندن بسيادة الولايات المتحدة في معاهدة ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣، وكان واشنطون أول رئيس للجمهورية. "المترجم"

لأغراض دراستنا هذه أن نعنى فقط بوجهات نظر سمث، فيما يختص بالسياسة الاستعمارية، فلقد اعتقد أن السياسة الاستعمارية لا ثمار لها من الناحية التجارية، ومع أنه فكر في أن الأمريكيين لم يقاسوا في الحقيقة بسبب التحديات التي فرضتها الدولة الأم أي بريطانيا، مثل هذه التحديدات التي استهدفت منع اختراق الحقوق المقدسة للجنس البشري كتحريم الإتجار بالرقيق الأمر الذي فرض على أمريكا بواسطة الطبقات الرسمية وطبقة التجار في انجلترا، فقد رأى أن قيمة المستعمرات في التنظيم الاستعماري يجب أن تقاس على أساس القوات العسكرية والأموال التي يمكن لهذه المستعمرات أن تقدمها للدفاع عن الإمبراطورية ولمعاونتها في نفقات الدفاع. وعلى ضوء هذه الآراء فإن المستعمرات الأمريكية لم تكن ذات نفع مادي لبريطانيا؛ فإنه لم يكن حسبها ألا تسهم بشيء في الدفاع عن الإمبراطورية، بل إنها كانت تحتاج قوات إنجليزية للدفاع عنها وقد جعل هذا «الوطن الأم» يشتبك في حرب غالية الثمن ضد فرنسا[١]، ولو وضع الأمر على أساس موازنة مالية تجارية لكان من الأصلح أن تكون بلا مستعمرات.

وهذه وجهة نظر لها قيمتها في أمر الإمبراطورية، ولعلها كانت يومًا ما موجهة لنيفل تشمبرلين[*]، ولكن سمث لم يقترح أن تتنزل بريطانيا عن

(١) كان من الواضح أن سمث قد أخطأ في قوله إن كل نفقات حرب السبع السنوات والحروب التي سبقتها يجب أن تحتسب على المستعمرات. فقد كانت هناك مشكلات في القارة تحتمل نصيباً من دوافع الحرب، ونجد النقاش حول المستعمرات في الفصلين السابع والثامن من الكتاب الرابع.

(*) آرثر نيفل تشمبرلين (١٨٦٩ – ١٩٤٠) ولد في برمنجهام، أصغر أنجال جوزيف تشمبرلين، تعلم في جامعة برمنجهام، عمل في زراعة الأرض في جزر البهاما ثم عاد إلى=

مستعمراتها وأن توافق على الاستقلال الذي كان الأمريكان يطلبونه لبلادهم يومذاك، فإنه كان يرى «أن اقتراح مثل هذا الإجراء لم تتخذه من قبل ولن تتخذه فيما بعد أية أمة في العالم، فإنه لم يحدث قط أن نزلت أمة بالتطوع عن سيادتها على أية أرض مهما كانت الصعوبات التي تواجهها لحكمها، ومهما قلت القيمة المالية التي يمكن أن تقدمها هذه الأرض بالنسبة للنفقات التي تنفق عليها، مثل هذه التضحيات قد تكون صالحة من ناحية التفكير في المصالح إلا أنها دائمًا قاتلة لكبرياء الأمة، هذا فضلًا عن أنها تضاد دائمًا المصلحة الخاصة للطبقة الحاكمة في هذه الأمة، هذه الطبقة التي ستحرم إذ ذاك من الكثير من النفع والفائدة، بل ومن الفرص الكثيرة للحصول على الثروة والمكانة الأمرين اللذين لا تفشل حتى أقل المناطق نفعًا في تحقيقهما»[١].

=بريطانيا فعمل في عدة أعمال عامة، عمل إبان الحرب العالمية الأولى في مجلس الرقابة، ثم تولى عمدية برمنجهام ١٩١٥ – ١٩١٦ وعمل على تأسيس البنك المركزي بها، انضم للمحافظين وكان وزيراً للصحة في وزارة بلدوين. كان رئيس الوزارة الإنجليزية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وقام برحلات إلى ميونخ للتفاهم مع هتلر، تولى إعلان الحرب على ألمانيا واستقال في العاشر من مايو سنة ١٩٤٠ عندما غزت ألمانيا الأراضي الواطئة. "المترجم"

(١) نفس المرجع ص ٥٨١ – ٥٨٢، وقد يكون جميلاً أن نقارن آراء سمث عن المستعمرات بآراء جيريمي بنثام أصدق مُريدي سمث، فإن بنثام قد وافق على أن المستعمرات تتكلف الكثير ولكنه سار إلى أبعد من هذا ووقف في جانب تصفية بريطانيا لمستعمراتها وأن تنفض يدها من كل محاولة للحصول على مستعمرات جديدة. (راجع أصول القانون الدولي في المؤلفات التي جمعها جون بورنج المجلد الثاني طبع أدنبرة عام ١٨٤٣، وعلى الأخص الصفحات ٥٤٨ – ٥٥٠).

(*) قد لا يكون من محل هنا لمناقشة آراء سمث الخاصة بالمستعمرات ولكن بالإضافة إلى تقديم آراء جيريمي بنثام فقد يكون من المفيد أن أذكر هنا مؤلفاً حديثاً لكاتب من ألمع=

وقد تنبأ سمث بأن الحرب لاستقلال أمريكا ستكون حربًا باهظة النفقات طويلة الأمد، بل إنه تنبأ بأن من الممكن أن يحصل المستعمرون على النصر، أولئك الذين سيتحولون من تجار وعمال حوانيت ومحامين إلى ساسة ومشرعين، والذين سيستخدمون لتكوين صورة جديدة لحكومة تخضع لها أرض واسعة، وستكون كما هو من الواضح واحدة من أعظم وأقوى الدول في العالم(١).

وكان سمث محقًّا لأنه من بين المحامين الذين تحولوا إلى ساسة كان ألكسندر هاملتون الذي يعتبر عملاقًا بين عظماء الرجال الذين جاءوا إلى الوجود بالولايات المتحدة الأمريكية.

***

=كتاب العصر الذي نعيش فيه هو جورج بادمور في كتابه "أفريقيا الإمبراطورية البريطانية الثالثة" طبع لندن عام ١٩٤٨. "المترجم"

(١) نفس المرجع ص ٥٨٧ – ٥٨٨.

[٤]

والواقع أن حياة آدم سمث ـ فيما عدا رحلته في قارة أوروبا التي استغرقت زهاء السنتين بين ١٧٦٤ و ١٧٦٦ ـ قد أوقفت كلها خالصة لطراد مستمر للدراسات الأكاديمية؛ كان طالبًا في جلاسجو وأكسفورد ومحاضرًا في أدنبرة، ثم عمل أستاذًا للمنطق فأستاذًا للفلسفة المعنوية في جلاسجو، فلما عاد من أوروبا اتجه بكلياته لإتمام مؤلفه الكبير «ثروة الأمم» الكتاب الذي طبع قبل موته بأربع عشرة سنة.

ولكن ألكسندر هاملتون كان من طراز آخر كان رجل عمل من فجر حياته، إذ بدأ من بكورة حياته غير مجدود.

كان هذا في (نيڤيس)(*) إحدى جزر الهند الغربية، ولم يكن والده في نعمة من الحياة بل كان مكدودًا، ولما ماتت أمه عام ١٧٦٨ كان هو (هاملتون الابن) في الحادية عشرة من سنه، ومع هذا فقد اضطر أن يشق طريقه في العالم، فعمل كاتبًا في متجر عمومي ثم رحل إلى نيويورك حيث التحق بجامعة الملك «جامعة كولومبيا فيما بعد» في عام ١٧٧٣ ، وفي أقل من عام انغمر في خضم حرب النشرات، الحرب التي سبقت الثورة الأمريكية، وقد نال شهرة ككاتب من أقوى وأعنف كتَّاب عصره؛ وفي عام ١٧٧٦ انضم إلى الجيش ونال رتبة عسكرية، وحارب مع واشنطون في لونج آيلاند

(*) نيفيس من المجموعة التي تقع بين خط الطول ٦٥ غرباً وخط العرض ٧ الشمالي، يُطلق عليها أيضاً اسم سان كريستوف ويُسميها الفرنسيون "تحت الريح" (سولوفان) تعداد سكانها ٣٦٠٠٠، وأهم بلادها (باس تير) أي الأرض الواطية. "المترجم"

وهوايت بلينز وترينتون وبرنسيتون، وفي مارس ١٧٧٧ وهو في العشرين من عمره عين سكرتيرًا عسكريًّا للقائد العام برتبة الليفتينانت كولونيل؛ ولم يكن هاملتون مستشارًا لواشنطون وموضع ثقته وحسب، بل كان أيضًا الكاتب لسلسلة من التقارير عن تنظيم الجيش وإدارته[١]، وتولى بعد فترة من الوقت قيادة آلاي مشاة في فيلق لافاييت، وقد أبدى جرأة وشجاعة في معركة (يورك تاون)، وقد استمرت حياته العسكرية بعض الوقت بعد انتهاء الثورة، وفي عام ١٧٩٨ رقي إلى رتبة ميجر چنرال وعين مفتشًا عامًّا للجيش وقائدًا ثانيًّا لواشنطون على أن يعد العدة للحرب ضد فرنسا.

وكان دور هاملتون في إيجاد عهد (آنا بوليس وفيلادلفيا) ـ والأكثر من هذا خدمته الممتازة في ضمان وتأكيد الدستور ـ معروفًا واضحًا ولا يحتاج إلى تعليق، وإلى جانب العديد من النشرات الحكومية فإن تحريره لأكثر من نصف ما نشرته جريدة «الفدرالي» يكفي وحده لأن يضعه في مرتبة عالية بين الكتاب السياسيين، وكان أقوى أعضاء وزارة واشنطون عارضة وحجة، وأسلسهم خطابة مما جعله يتجول دائمًا في ميادين بعيدة كل البعد عن واجباته كوزير للخزانة.

وفي السنوات بين عام ١٧٨٩ ـ ١٧٩٧ فعل أكثر مما فعله أي شخص آخر في صياغة وتوجيه بواكير مبادئ السياسة القومية للولايات المتحدة،

(١) توجد أوراق هاملتون العسكرية في المُجلدين السادس والسابع لمجموعة أعماله التي جمعها هنري كابوت لودج في اثني عشر مُجلداً طبع نيويورك ولندن عام ١٩٠٤.

Hamilton's Collected Works, edited by Henry Cabot Lodge, Federal Edition, ١٢ Vols. "New York and London, ١٩٠٤".

وقد انتهى بعض هذه المبادئ ليكون تقليدًا[١] مرعيًّا ثابتًا، وكانت وفاته المحزنة في عام ١٨٠٤ وهو في السابعة والأربعين من عمره خسارة قومية[*].

ويعتبر هاملتون بالنسبة لدارسي المسائل العسكرية حلقة الاتصال بين آدم سمث وفردريك ليست، وكان هاملتون على دراية تامة بكتاب «ثروة الأمم» بل وكان يضعه أمامه عندما كتب بمعاونة «تنش كوكس»[**] تقريره المهم «تقرير عن الصناعات»[٢].

(١) لما لم تكن هناك دراسة مرضية كافية عن حياة هاملتون فربما كان المقال الذي كتبه ألا نيڤيس في قاموس الشخصيات الأهلية أحسن مورد لحقائق حياته، وقد حرر هذا المقال بالمهارة التي عرف واشتهر بها واحد من أقدر المؤرخين الأمريكان.

(*) كانت حياة هاملتون الخاصة مأساة، والواقع أن حياته بعد سنة ١٨٠٠ كانت مليئة بالمآسي فقد قتل ابنه الأكبر فيليب في مبارزة وجُنت ابنته أنجليكا، وبالرغم من أنه كان يعتني بامرأته التي كانت إذ ذاك حاملاً بطفله الثامن إلا أنه لم يكن مخلصاً فقد كان على علاقة بماريا رينولدز الأمر الذي جعله يغض بصره عن نشاط زوجها الاستغلالي، وقد أكسبه اختيار چيفرسون لرياسة الولايات المتحدة خصومة هارون بور، ولعله شعر بأن حملته على بور، كانت قاسية عنيفة وأن من حق بور أن يحصل على ترضية كافية وفي فجر الحادي عشر من يوليو سنة ١٨٠٤ التقى الرجلان بشهودهما في مرتفعات جيرسي قرب ونهوكن، وتبادل الرجلان رصاصتين الواحدة إثر الأخرى ودار هاملتون لليسار ثم سقط على وجهه مُصاباً بجرح داخلي في الكبد، وقد اخترقت الرصاصة الكبد واستقرت في العمود الفقري، وقد نُقل إلى منزل مستر بايار في جرينويتش وهو يلفُظ أنفاسه الأخيرة وقد جاءت هذه الحقائق في كتاب:

Wiglliam Coleman, A Collection of the Facts and Documents relative to the Death of Maj. Gen. Alexander Hamilton (N. Y. ١٨٠٤) pp. ١٢ – ٩٠ Alexander Hamilton History Today. March ١٩٥٧ pp. ١٨٢ – ١٨٩: راجع "المترجم"

(**) تنش كوكس Tench Coxe معاون هاملتون في وزارة المالية وأحد كبار رجال مدرسة فيلادلفيا التي كانت تدعو لآراء هاملتون في الاقتصاد وبخاصة من الناحية التحفظية الوقائية.

(٢) تبدو هذه الحقيقة واضحة في الموضوع الذي كتبه و. س. كولبرتسون بعنوان (الكسندر=

وقد اتفق مع سمث في حكمة وضرورة وجود جيش محترف، كما اتفق أيضًا في بعض المسائل الخاصة بالسياسة الاقتصادية والتي تتصل بالدفاع القومي!!

وقد وضح تأثير هاملتون في فردريك ليست في الكثير مما كتبه الأخير، على أنه في ضوء اتفاق وجهة نظر ليست مع الجماعة صاحبة الآراء التحفظية في الولايات المتحدة والتي تشتمل أيضًا على ماتيو كاري، فمما لا شك فيه أن ليست قد اعتبر الـ «تقرير عن الصناعات» مرجعًا للاقتصاد السياسي، ***والواقع*** أنه كان يطلب معاونة هاملتون من حين إلى حين، ويوجد دليل واضح قوي في كتابات ليست تثبت أن آراء هاملتون كانت تحتل مكانًا ممتازًا في كتاب ليست «النظام القومي» أو «الطريقة الأهلية» [١].

وكان ويليام جراهام سومنر من أصحاب فكرة حرية التجارة ولهذا فإنه كناقد لا يتمشى مع آراء هاملتون فقد قال عن نظريات هاملتون في السياسة

=هاملتون). Alexander Hamilton. By W. S. Culbertson (New Haven ١٩١١) نيو هافن ١٩١١ ص ٩٠ و ١٠٧ – ١٠٨ و ١٢٧ – ١٢٩؛ راجع أيضاً مقال إدوارد بورن (الكسندر هاملتون وآدم سمث) مجلة الاقتصاد، المجلد الثامن أبريل ١٨٩٤ ص ٣٢٨ – ٣٤٤، أما عن دور تنش كوكس فراجع الهامش رقم ٦١.

(١) راجع مقال ويليام فوتز فردريك ليست في أمريكا مجلة الاقتصاد الأمريكي المجلد السادس عشر يونيو سنة ١٩٢٦ ص ٢٤٩ – ٢٦٥، وكان الدكتور نوتز أحد الذين جمعوا كتابات «ليست»، وتعتبر مقدمته التي تُثير الإعجاب والتي قدم بها المجلد الثاني من أعمال «ليست» طبع برلين عام ١٩٣١ – ص ٣ – ٦١، أحسن مرجع للسنوات التي قضاها ليست في أمريكا وأثرها في حياة ليست جميلة، أما عن تأثير هاملتون في ليست فيرجع فيه إلى مقال س. ميتزل .C. Meitzel عن هاملتون في Handworterbuch der Staatswissenschaften الطبعة الرابعة عام ١٩٢٣، ٢١. وكتاب م. هيرست "حياة فردريك ليست" طبع لندن ١٩٠٩ ص ١١٢ – ١٨١. M. E. Hirst, Life of Friedrich List

القومية إنها «هي التنظيم القديم لسياسة التجارة والتي جاءت بها المدرسة الإنجليزية ولكنها عدلت لتتفق مع موقف الولايات المتحدة»[١]؛ وقد يكون في هذا القول بعض القيمة ولكنه لا يدل على أن هاملتون نصير أو مقلد أعمى للعقائد التي جاءت بها السياسة التجارية كما وضحت فيما سبق[٢].

على أن أصحاب نظريات السياسة التجارية من الأوروبيين يعتبرون مسئولين عن أمرين منفصلين بعضهما عن بعض، ولكنهما وثيقا الصلة بعضهما ببعض:

١ـ الوحدة القومية كما تقف موقف القضاء من العناية الخاصة بمصالح الفرد وممتلكاته.

٢ـ تطور موارد الأمة مع عناية خاصة بإمكانياتها.

وكان هاملتون على التحقيق قومي الاتجاه، وكان بلا شك يؤمن باستخدام السياسة الاقتصادية كآلة للوحدة القومية وللقوة الأهلية، وفي الغالب يمكن أن ينسب كل ما قال وكل ما اعتقد إلى هذه النظرية المركزية في صورة ما، فإن دفاعه عن الاقتصاد القومي المعني به والذي يشتمل أيضًا على الصناعات. وتوصياته بشأن الدين العام وبخاصة ما جاء عن تصفية ديون الولايات وإيمانه بمشروع المصرف الأهلي، ونظرياته في السياسة الخارجية والأمن ثم عقائده في سلطات الحكومة الفدرالية، وتعهداته بتشجيع صناعة الذخائر بل وإذا لزم الأمر أن يسيطر عليها بواسطة الأمة،

---

(١) الكسندر هاملتون بقلم و. ج. سومتر نيويورك ١٨٩٠، ص ١٧٥. W. G. Summer, Alexander Hamilton

(٢) راجع القسم الأول من هذا الفصل.

وتقاريره عن السياسة العسكرية ومقترحاته الخاصة بالأسطول بل وحتى اتجاهاته نحو الحكومة الديمقراطية؛ كل هذه يمكن أن توضح جيدًا: أولًا: شغفه الكبير بالوحدة الأهلية، وثانيًا: تقديره وعنايته بالقوة الاقتصادية والسياسية للأمة.

على أن المشكوك فيه من ناحية أخرى أن آدم سمث كان بحيث يستطيع أن يكتب خلاصة أكثر عدالة لقضية التجارة الحرة مما كتبه هاملتون في بحثه «تقرير عن الصناعات»، البحث الذي قدم للكونجرس في الخامس من ديسمبر عام ١٧٩١[1]؛ وبالإضافة إلى هذا فقد قال هاملتون: «أنه إذا سيطر نظام ما خاص بحرية الصناعة والتجارة وكان لهذا النظام أثره في توجيه الأمم في صورة عامة أكثر مما كان لأي نظام سابق، فإنه قد يكون هناك مجال للظن بأنه ربما كان من الممكن السير بهذه الأمم إلى العظمة والرخاء بأسرع مما استطاعت أن تصل إليه لاتباعها من الحكم والآراء ما يكون معارضًا تمامًا لما اتبعه من قبل».

وهنا يمكن أن يتوافر تقسيم دولي حقيقي للعمل من أجل صالح الجميع ونفعهم، ولكن حرية التجارة والتبادل لم تتغلب على هذا بل من الواضح أن العكس هو الذي كان، وقد عملت دول أوروبا وعلى الأخص هذه التي استطاعت أن تتقدم صناعيًّا «على أن تضحي بمصالح التعاون المتبادل في سبيل أن تبيع كل شيء ولا تشتري شيئًا»، وكنتيجة لهذا «فإن الولايات

(١) "أعمال هاملتون" الكتاب الرابع ٧٠ – ١٩٨ وعلى الأخص الصفحات ٧١ – ٧٣ و ١٠٠ و ١٠١، وقد جاء التقرير أيضاً في مجلد جَمَعَهُ صمويل ماكي

Samuel Mackee, Jr., Papers on Public Credit, Commerce, and Finance by Alexander Hamilton (New York, ١٩٣٤).

المتحدة باتت إلى حد ما في موقف الدولة التي حرمت من التجارة الخارجية» وأن تقبل أن تقف موقفًا سلبيًّا من الاتجار مع أوروبا على أسس متعادلة؛ ويتابع هاملتون حديثه فيقول: «وهذه الحقائق لا تقال على أنها أسلوب للشكوى فإن على الأمم التي تقوم تشريعاتها على هذه السياسة أن تقرر ما إذا كانت تهدف إلى أبعد مما يجب، وأنها تفقد أكثر مما تجني، وعلى الولايات المتحدة أن تقرر الوسائل التي تستطيع بها أن تجعل نفسها أقل اعتمادًا على التمشي ـ إن صوابًا أو خطأً ـ مع السياسة الخارجية للدول الأخرى»[١].

ويقدم هذا البرنامج الذي جاء في «تقرير عن الصناعات»، يقدم هاملتون على أنه اقتصادي قومي، وقد قال هاملتون أن هدفه هو النهوض بمثل هذه الصناعات، «وأن يعمل لجعل الولايات المتحدة في اكتفاء ذاتي عن الدول الأخرى من ناحية احتياجاتها العسكرية ولمطالبها من الضروريات الأخرى»[٢]؛ وقد اقتنع هاملتون بأنه ليس الثراء وحده، بل إن الاستقلال والاكتفاء الذاتي للدولة هو الذي يرتبط ماديًّا برخاء وازدهار الصناعات، وأن كل أمة تكون هذه الأهداف العظيمة من وجهات نظرها يجب أن تعمل لتتملك في داخلية أرضها كل الاحتياجات الأهلية بها في هذا وسائل الإعاشة والإقامة والكساء والدفاع».

ويقول هاملتون: «إن تملك هذه المطالب ضروري لكمال الكيان

(١) نفس المرجع ٧٣ و ١٠٠ – ١٠٢.

(٢) نفس المرجع ص ٧٠؛ قارن هذا بما قاله واشنطون في أول رسالة سنوية إلى الكونجرس في عام ١٧٩٠ والتي جاء فيها: "إن سلامة ومصلحة أي شعب إنما يتطلبان أن ينهض هذا الشعب بالصناعات التي تجعله مستقلاً عن غيره في الضروريات وعلى الأخص الاحتياجات العسكرية".

السياسي، ضروري لسلامة ورفاهية المجتمع، ومن أجل العناصر الهامة في الحياة والدوافع السياسية، بل وكما هو ضروري أيضًا للتغلب على مختلف المشكلات التي تواجه الأمة، ولهذا فإنه من الواجب أن تشعر هذه الأمة بتأثير أي من صور هذا النقص، ولهذا فإن ما واجهته الولايات المتحدة من صعاب أثناء الحرب الأخيرة بسبب عدم كفاية الإمدادات بالمطالب لأمر واضح ولا يمكن أن يغيب عن الذاكرة، وسيكرر هذا الموقف نفسه من جديد في أي حرب مقبلة بسبب هذا النقص اللهم إلا إذا أمكن تغير الحال بجهد قوي يعد في الوقت المناسب؛ ولكي يمكن الوصول إلى هذا التغيير بأسرع ما يمكن يجب أن توجه كل مواهب وجهود أفراد المجالس العامة في اتجاه واحد لتحقيق هذا، إن هذا الأمر لهو العمل العظيم الذي يجب إتمامه».

«ويجب اعتبار احتياجنا إلى أسطول يحمي تجارتنا الخارجية ويمكن من استمرار سير هذه التجارة من الدعامات القوية التي تمكننا من الحصول على المواد الضرورية، كما أنه يمكن استخدام هذا الأسطول في نقاشنا من أجل الصناعات الوليدة في بلادنا»[١].

وقد آمن هاملتون بأن دولة حديثة العهد في الوجود كالولايات المتحدة لا تستطيع أن تنافس الدول الأخرى التي وطدت أقدامها في ميدان الصناعة كبريطانيا مثلًا، «وإمكان التنافس بيت التنظيمات الحديثة لدولة ما وبين التنظيمات القديمة ذات الماضي الطويل لدولة أخرى لمسألة غير عملية في أغلب الأحوال»؛ ولهذا فإن صناعات الدولة «الحديثة العهد بالصناعة» يجب أن تتمتع «بمعاونة الحكومة وحمايتها»[٢]؛ ويجب أن تمتد هذه المعاونة

(١) نفس المرجع، ص ١٣٥ – ١٣٦ ..
(٢) نفس المرجع، ص ١٠٥ – ١٠٦ ..

وهذه الحماية إلى فرض الرسوم على الواردات الخارجية، وأن تشتد هذه الرسوم في بعض الأحوال حتى تكون صورة من صور المنع أو التحريم، وفي نفس الوقت يحد من تصدير بعض المواد الخام الضرورية مع تعويض منتجيها، وألا تفرض أي رسوم على استيراد المواد الخام وغيرها من الضروريات؛ وإذا كانت هذه هي حجة الدفاع عن الصناعات الوليدة فإنها هي أيضًا طابع السياسة التجارية للوصول إلى اكتفاء ذاتي مستقل.

وأشار هاملتون إلى ضرورة تقدير الأسس التي تفرض على ضوئها هذه الرسوم، كما يجب أن يوضع دائمًا موضع الاعتبار والتقدير عامل «الدفاع الأهلي» عند تشجيع الصناعات المحلية. ولهذا:

«يجب أن توضع الأسلحة النارية وعتاد الحرب في جدول أنواع المتاجر التي يفرض عليها رسم بمقدار (١٥٪) من ثمنها، إن في البلاد من المصانع ما ينتج هذه الأسلحة ولكن كل ما تحتاجه هذه المصانع هو توافر الوسائل المشجعة حتى يمكن إنتاج ما يكفي لمواجهة كل مطالب الولايات المتحدة».

«وسيكون من الوسائل المعاونة لهذه الصناعات، كما سيكون أيضًا من وسائل الأمن أن تشترى الأسلحة العسكرية من الصناعات المحلية سنويًّا، وذلك ليضمن هذا بقاء مصانع الأسلحة ولإمكان استعواض ما يسحب منها للاستعمال، كما يمكن من توافر احتياطي في اليد للإمداد بالاحتياجات الضرورية».

«ولكن قد يتطلب الأمر دراسة الاعتبارات القانونية فيما إذا كانت مصانع الأسلحة الضرورية للحرب يجب ألا تنشأ على حساب الحكومة نفسها، فقد يبدو هناك إسراف في ترك هذه المواد الحيوية الضرورية للدفاع الأهلي للمخاطرات الفردية العارضة لاستثمار المال، وهو أمر قد لا يمكن



الكسندر هاملتون (١٧٥٧ – ١٨٠٤)

الاعتماد عليه إلى حد بعيد؛ فإن هذا الإنتاج ليس للاستعمال والاستهلاك الخاص كغيره من صور الإنتاج في الصناعات المدنية. إن القاعدة العامة هي تجنب الإنتاج المباشر على حساب الحكومة، ولكن إنتاج الأسلحة واحد من الاستثناءات القليلة لهذه القاعدة والتي يستند أمرها إلى أسباب خاصة قوية»(١).

ويؤكد «تقرير عن الصناعات» الفكرة التي تطورت إلى مدى بعيد بواسطة فردريك ليست والتي تقول إن أمة مختلفة الصور الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة تكون أكثر اتحادًا وتماسكًا في الداخل، وأقوى في علاقتها الخارجية بغيرها من الدول مما لو كانت صورها الاقتصادية غير هذا؛ ولكن هاملتون قد قدم أحسن آرائه في هذا البحث في مسودة خطاب واشنطون التي كتبها في صيف عام ١٧٩٦(٢).

وقد صور هاملتون كيف يمكن أن تتشابك الاقتصاديات المختلفة لتكون اقتصادًا قوميًّا موحدًا؛ فإن الجنوب الزراعي لا يمكن أن يسهم بنصيبه في الثروة القومية ولكنه يستطيع أن يسهم في الانتفاع بالقوة الصناعية التي للشمال، أما الغرب ـ وعلى الأخص بعد تطور وسائل النقل

(١) نفس المرجع، ص ١٦٧ – ١٦٨، وليست هذه هي أول مرة قدم فيها هاملتون مثل هذا الاقتراح فيما يختص بأسلحة الحرب والذخائر، فقد اقترح في عام ١٧٨٣ وهو يتولى رياسة اللجنة الخاصة التي كونها مجلس الكونجرس مثل هذا فقال: "ويجب العمل لتأكيد قدرتنا على إمداد أنفسنا بكل المواد اللازمة للحرب، وعلى أساس هذا الهدف يجب أن تنشأ المصانع الأهلية للأسلحة والذخائر" – نفس المرجع، ص ٤٦٧ – ٤٧٥.

(٢) لمطالعة النص الكامل وللإستزادة من التفاصيل يرجع إلى كتاب فيكتور بالتسيتس "خطبة الوداع لواشنطون"، طبع نيويورك لعام ١٩٣٥ وبخاصة ص ١٨٤ – ١٨٥، ويمكن إدراك المدى الذي انتفع به واشنطون لآراء هاملتون من مقارنة المسودة المشار إليها بالصورة النهائية التي جاء فيها هذا الخطاب، نفس المرجع، ص ١٤٣ – ١٤٤.

المختلفة ـ فيمكن أن توجد به أسواق طيبة للصناعات والتجارة الخارجية للشرق، كما أنه يمكن بالتبعية من تطور ثقل نفوذ ولايات الأطلانطيق ومواردها البحرية، وبالإضافة إلى هذا فإنه «حيثما يمكن أن يجد كل جزء مصلحة كبيرة في الاتحاد فإن كل أجزاء وطننا ستستطيع أن تجد استقلالًا كبيرًا بسبب الكثرة الهائلة من الإنتاج المتعددة الأنواع تبعًا للتباين في الجو والتربة»، وبذلك فإن جملة قوة الأمة التي تتحد معًا بمصالح اقتصادية واحدة ستتزايد في كل نواحيها، وهكذا فإن الولايات المتحدة تبعًا لتطور اقتصادها المتنوع ستستطيع أن تتمتع «بأمن من الخطر الخارجي، بل والأكثر من هذا أنها ستتخلص من هذه المشاكل والحروب بين الولايات المختلفة بسبب ما يثيره التدخل الأجنبي من خلافات بينها»، وعلى هذا كله فإن الأمة ستنتفع «من التحرر من الحاجة إلى المنشآت العسكرية والتي هي في كل دولة عامل مهدد للحرية»؛ وهكذا ربط هاملتون بين التنظيم الاقتصادي للأمة وبين أمنها.

وكان جدل هاملتون من أجل الأسطول البحري الأمريكي والبحرية التجارية الأريكية ـ في نفس الصورة ـ مزيجًا من السياسة والاقتصاد، وكان هاملتون يثق من أعماق نفسه بأن الولايات المتحدة ستكون قوة بحرية عظيمة وأن الرحلات المليئة بالمخاطر والتي يقوم بها أمريكيون يتجولون في كل نواحي الأرض، ثم هذه الروح التي لا مثيل لها والتي هي في حد ذاتها منجم لا ينضب من الثروة الأهلية. كل هذا قد أوجد «مشاعر القلق» بين الأوروبيين الذين «يبدو أنهم قد بدءوا يتفهمون تدخلنا الكبير في التجارة المنقولة التي هو معوان بحريتهم وأساس قوة أساطيلهم»؛ لقد استطاعت بعض الدول الأوروبية بواسطة تشريعات قانونية عنيفة أن تصل إلى عظمة

لها خطورتها، ولكن باتحاد قوى وأسطول بحري تجاري منتعش ومصايد كثيرة الإنتاج تكون وسيلة تفريخ لإعداد رجال بحريتنا، وسنستطيع بواسطة قوانين بحرية سليمة وبأسطول بحري أن نهدد محاولات صغار السياسيين المحترفين، وأن نسيطر على سير الطبيعة هذا السير الذي لا يقاوم ولا يمكن أن يتغير».

إن أسطول الولايات المتحدة قد لا يستطيع «منافسة أساطيل الدول البحرية العظمى» ولكنه يستطيع على الأقل أن يكون له «مكانة محترمة لو قورن بأي من الجانبين المتضادين» وعلى الأخص في منطقة جزر الهند الغربية، إن مكانتنا حتى مع عدد قليل من سفن القتال لأمر له قدره، وسيمكننا هذا من المساومة لنصل إلى نفع تجاري كبير، وبالإضافة إلى هذا «فسيكون هناك ثمن لحيادنا ولصداقتنا» في حال الحرب بين الدول الأجنبية، وهنا نظرًا «لاتباعنا المستمر لمبدأ الاتحاد قد نأمل في أن نستطيع الإبقاء على توازن القوى في هذا الجزء من العالم في الصورة التي تمليها مصالحنا»(١)؛ ولا شك أن هذا يوضح أن وضع الاستراتيچية لأمريكا في السياسة العالمية إنما تطور بواسطة آباء الجمهورية الأولين.

وقد تطلب هاملتون أن يكون للولايات المتحدة اقتصاد أهلي، ويمكن أن يسهم الأسطول البحري في سبيل هذا الغرض العظيم، كما يمكن أن يسهم اتحاد الاقتصاد والسياسة وتعاونهما معًا في نمو الأسطول من الناحية

---

(١) كل السطور والجمل التي جاءت في هذه الفقرة والفقرات التالية موضوعة بين أقواس «...» منقولة عن العدد الحادي عشر من مجلة "الفدرالي" بمعنى أنه يجب أن نلاحظ أن هاملتون لم يكن يهدف إلى تعقب سياسة توازن القوى في أوروبا ..، راجع "الأعمال" المُجلد التاسع ص ٣٢٧ والمجلد العاشر ص ٣٩٧.

الأخرى.

«وسيكون أسطول الولايات المتحدة بسبب قيامه على أساس موارد الولايات كلها أقوى من الأسطول الذي يمكن أن تنشئه أية ولاية وحدها أو الذي ينشئه جزء دون آخر من هذه الولايات، فموارد الولايات كلها أقوى في جملتها وأعظم من موارد أي ولاية وحدها أو أي جزء من هذه الولايات وحده دون غيره، ففي كل جزء من الاتحاد تتوافر بعض أوجه النفع اللازمة الضرورية لإنشاء هذا الأسطول القوي؛ ففي الولايات الجنوبية الكثير من المواد الخام الضرورية فضلًا عن أن أخشاب أشجار الجنوب أقوى وأصلح لبناء السفن، وللطاقة ومدى الاحتمال أثرهما في قوة سفن الأسطول، كما أن لهما أثرهما في الاقتصاد الأهلي، وفي الولايات الجنوبية والوسطى يوجد أيضًا الحديد الخام الأصلح لصناعة السفن مما في الولايات الشمالية، ولكن من ناحية أخرى فإن رجال البحر أولئك الذين سيعملون في هذا الأسطول الكبير يجب اختيارهم من سكان الولايات الشمالية، «إن الوقاية والسلامة اللازمة لتجارتنا الخارجية عبر البحار، مثلها مثل ازدهار هذه التجارة الخارجية لا تتطلب غير أمر واحد هو تقوية الأسطول»[١].

(١) قارن هذا بالحديث الذي ألقاه تيودور روزفلت في أوماها يوم ٢٠ سبتمبر عام ١٩١٠ أمام جمع من أهالي الولايات الغربية، وقد كان روزفلت من أكبر المُعجبين بهاملتون فقد قال: «أصدقائي ... إن الأسطول ليس مسألة تعني أولئك الذين يُساحلون البحر فقط، بل إنه لا يوجد فرد يعيش في الأرض التي تُنتج الأعشاب ولا في الأرض التي ترعى فيها الماشية ولا في أرض البحيرات الكبرى أو في أرض الميسوري لا يوجد فرد لا يعنيه الأسطول كما يعني هذا أي فرد يعيش على ساحل نيو إنجلاندا وعلى ساحل الخليج»=

وكانت سياسة هاملتون الضرائبية لها أيضًا اتجاهاتها السياسية، فقد أمل بتمويل الدين الأهلي واستيعاب ديون الولايات وإيجاد البنك القومي المركزي أن يربط «مصالح الولاية بمصالح الأفراد الأثرياء التابعين لها برباط وثيق» وأن يحول «ثراء ونفوذ هذه المجموعة للاتجاه التجاري وللنفع المتبادل للجميع»، ولما كان الدين الأهلي يمكن أن يكون نعمة أهلية تبعًا لأنه سيكون «عضدًا قويًّا لاتحادنا»(١). فقد أراد اكتساب معاونة وتعضيد طبقتي التجار والملاك إذ كان يعرف كيف استطاع هؤلاء التأثير على الحكومة الإنجليزية حتى أصدرت التشريعات التجارية، سيما وأنه يؤمن بأن «الدوافع الاقتصادية التي تؤثر في السياسة لا يخلو منها أي مجتمع»(٢).

وبالإضافة إلى هذا فإن تكوين الثروة الأهلية على أسس قوية من الأهمية بمكان «وما دامت الأمم عادة تستخدم الثروة الأهلية كمورد في الحرب فإنه من غير الممكن أن تكون أمة ما في أمن ووقاية من أعمال الدول الأخرى ما لم تقف على قدم المساواة معها بالنسبة لهذا المورد الهام، والدولة الصغيرة التي يتوافر لها رأس مال متوسط ولا تتوافر لها صناعات مختلفة كثيرة يكون هذا المورد أكثر أهمية لها منه بالنسبة للدولة التي يتوافر لها رأس المال وتتوافر لها الصناعات المختلفة الكثيرة» ولا يستطيع الفرد «إلا أن يقول بأن الحرب دون قدرة مالية لن تكون غير

=«القومية الجديدة» (The New Nationalism) طبع نيويورك ١٩١٠، ص ١٤٧.

(١) من خطاب إلى روبرت موريس ١٧٨٠ "الأعمال"، المُجلد الثالث، ص ٣٣٨ و ٣٨٧.

(٢) راجع العدد العاشر من "الفدرالي" بقلم ماديسون.

فاجعة عظمى.. وغير خراب محقق».

وبالرغم من أن هاملتون قد تقبل قانونية عزل الممتلكات الخاصة في وقت الحرب إلا أنه عارض هذا على أساس أنه لا يشجع استثمار الأموال الأجنبية في السندات الأمريكية[١]، وفي إيجاز فقد أوصى هاملتون بأنه يجب على أمريكا «أن ترعى الثروة الأهلية وتعنى بها كوسيلة للقوة والأمن»[٢].

***

(١) التقرير الثاني عشر عن "القرض الأهلي" ديسمبر ١٧٩٤ "الأعمال" المُجلد الثالث ص ١٩٩ – ٣٠٠، والفقرات المنقولة هنا من ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

(٢) مسودة "خطبة الوداع" التي كتبها هاملتون لواشنطون. نفس المرجع، ص ١٩٣.
Hamilton's draft for Washington's "Farwell Address" Paltsits op. cit., p. ١٩٣.

[٥]

وكان الأمن الأهلي من وجهة نظر هاملتون مشكلة لها أهميتها الكبرى ولهذا فإنها تتطلب المزيد من العناية والانتباه؛ وقد تفهم هاملتون العوامل التي تتصل به تفهمًا واقعيًّا، فقد أدرك أن المسافة التي تفصل الولايات المتحدة عن أوروبا ثم هذه البسطة والسعة في أرض الولايات المتحدة نفسها لأمرين لهما أهميتهما بالنسبة للشعب الأمريكي؛ ذلك لأنهما سيجعلان الغزو الذي يمكن أن تحاوله أي دولة أجنبية صعبًا إن لم يكن مستحيلًا؛ ولكن كان هاملتون يعرف أيضًا أن الولايات المتحدة دولة صغيرة لم تتطور من الناحية السياسية بعد، وتحتاج الوقت لدعم مركزها وتقويته، ولهذا فقد أكثر من تكرار الحديث عن الوحدة القومية وحمل على كل الصور الانقسامية الداخلية سواء أكانت ناتجة عن وقوف مجموعة ذات مصالح مشتركة تعارض أهداف ومبادئ الكتلة الأساسية كلها، أم عن عمل قسم من الأمة لمصالحه الخاصة دونما تقدير للمصالح العامة للمجموعة كلها(*)؛ كما اعترض هاملتون أيضًا على الوقوف من الأمم الأخرى تبعًا للروابط العاطفية أو تبعًا للشك أو الكراهية المتعمقة في النفوس، وكما نصح بعدم التوسط بالوعود والاتفاقات السياسية في خارج البلاد، وتبعًا لهذا فقد أوضح هنا ما يؤمن به من «أنه إذا بقي شعب الولايات المتحدة متماسكًا متحدًا تحت إدارة حكومة ذات كفاية للإدارة والعمل فإنه لا يمر طويل

(*) راجع مادة Sectionalism & Factianalism في WEBSTER'S NEW WORLD DICTIONARY طبع ماكملان لعام ١٩٥٦ "المترجم"

وقت حتى يستطيع هذا الشعب أن يقاوم ويعمل لمنع الخسائر المادية الناجمة عن المتاعب الخارجية»[١]، ولكن السلامة غير مستطاعة بغير القوة لأن «الأمة التي تحس بضعفها تفقد حتى الانتفاع بوقوفها على الحياد»[٢]، ويتابع هاملتون حديثه فيقول: «وبهذا فإننا حين نكون أقوياء نستطيع أن نتخير بين السلم أو الحرب تبعًا لما تمليه مصلحتنا موجهة بعدالة»[٣]، ولكن القوة تتوقف على الاتحاد وعلى «الحكومة والأسلحة وموارد الأمة»[٤].

وقد رأى هاملتون بوضوح أن الولايات المتحدة لن تكون في أمن ما دامت الدول الأوروبية لها مناطق كبيرة متعددة في داخل القارة الأمريكية؛ وكان يعارض في أن تنتقل الأراضي الأمريكية من يد دولة غير أمريكية إلى دولة غير أمريكية أخرى، كان هاملتون يحبذ شراء لويزيانا[*] ولو أن هذا قد حدث بواسطة خصمه جيفرسون ، بل قد ارتأى السياسة التي باتت تعرف فيما بعد باسم مبدأ مونرو[٥].

(١) ذات المرجع، ص ١٩٣ – ١٩٦.
(٢) "الفدرالي"، العدد الحادي عشر، ص ٦٥.
(٣) كانت هذه الجملة أصلاً لهاملتون لا لواشنطون، وعندما استعملها واشنطون استبدل كلمة (تُمليه) بكلمة (تشير به) – نفس المرجع، ص ١٩٦.
(٤) "الفدرالي"، العدد الرابع، ص ٦٥ (The Federalist No. ٤ p. ٦٥).
(*) اشترت الولايات المتحدة من فرنسا في عام ١٨٠٣ الأرض التي تمتد من خليج المكسيك إلى كندا ومن المسيسبي إلى الجبال الصخرية، وكان هذا بمبلغ خمسة عشر مليوناً من الدولارات، وولاية لويزيانا التي احتلها الفرنسيون عام ١٦٩٩ وسميت باسم لويس الرابع عشر هي أقصى الولايات للجنوب على خليج المكسيك ومساحتها ٤٨٥٢٣ ميلاً مربعاً وسكانها ٢.٦٨٤.٠٠٠ نسمة وعاصمتها "باتون روج".
(٥) راجع عن أصل مبدأ عدم انتقال ملكية الأراضي الأمريكية من دولة إلى دولة أخرى (الإجابة على المسائل المقترحة بواسطة رئيس الولايات المتحدة) ١٥ سبتمبر ١٧٩٠ "الأعمال" المُجلد الرابع، ص ٣٣٨ وراجع عن أصل تهديد الأراضي الأوروربية في=

ولكن هاملتون كان معجبًا بالإنجليز ليس فقط لأنه كره هذه المبادئ الراديكالية التي جاءت بها الثورة الفرنسية والتي كانت تهدف إلى تغيير النظام الاجتماعي للأمة، بل أيضًا لأنه كان يعتقد بأن الولايات المتحدة ضعيفة لتقف موقف الاختبار بالأسلحة ضد بريطانيا، ولأنه كان يؤمن بأن الولايات المتحدة تعتمد على تسامح بريطانيا في نمو قوتها التجارية.

وقد اتفق هاملتون مع ما جاء في ديباجة تصدير الدستور، من أن الاتحاد الكامل للولايات والدفاع العام عن البلاد وضمان حرية الأفراد مرتبطة

=أمريكا مجلة الفدرالي العدد الرابع والعشرين، ص ١٥٠ – ١٥١ فإن تصفية النفوذ الأوروبي في قارة أمريكا هو عامل قوي في (سياسة أمريكا الخارجية – الأمن الأهلي والسياسة الخارجية) لادوارد ميد ايرل مجلة ييل لعام ١٩٤٠، ص ٤٤٤ – ٤٦٠ (الفدرالي) العدد ١١، ص ٦٩ يُشير على أن هاملتون لو عاش لعاون مبدأ مونرو.

(*) جيمس مونرو (١٧٥٨ – ١٨٣١) ولد لرجل يعمل بالتجارة في "ويستمورلاند" تعلم في جامعة (ويليام آند ماري) ولكنه لم يكد ينتهي من دراسته حتى التحق بالجيش سنة ١٧٧٦، التحق بجيش واشنجتون كضابط برتبة ملازم، واشترك في عدة معارك، ثم ترك الجيش ليدرس القانون بتوجيه چيفرسون وعين سنة ١٧٨٠ مبعوثاً عسكرياً إلى ولاية ڤرچينيا، وانتخب في مجلس الولاية التشريعي سنة ١٧٨٢، ثم عضواً في الكونجرس سنة ١٧٨٩، فعضواً في "الشيوخ" سنة ١٧٩٢، وعُين حاكماً عاماً لڤرچينيا سنة ١٧٩٩.

أرسله چيفرسون سنة ١٨٠٣ لإتمام صفقة شراء لويزيانا من الفرنسيين، وقضى أربع سنوات في لندن وباريس، وفي سنة ١٨١١ كان وزيراً لخارجية أمريكا ثم وزيراً للحرب من ١٨١٤ – ١٨١٥ ثم تولى رياسة الجمهورية في مكان ماديسون سنة ١٨١٧، وفي سنة ١٨٢٠ عندما خاض معركة الانتخابات للرياسة فقد مركزه بصوتٍ واحد، ويرتبط باسمه المبدأ الذي هز أوروبا، مبدأ معارضة أي تدخل أوروبي في شئون أمريكا ويُعرف باسم مبدأ مونرو، ثم تقاعد في سنة ١٨٢٥ وظل في تقاعده حتى مات سنة ١٨٣١.

وقد نشر س. م. هاملتون كتابه "مجموعة خطابات وأوراق جيمس مونرو الخاصة" (١٨٩٨ – ١٩٠٣) ونشر ج. مورجان عنه دراسة في سنة ١٩٢١ وسمت بعنوان "حياة جيمس مونرو" E. Encycl. Vol. ٩ p. ٣٤٩. "المترجم"

ارتباطًا وثيقًا ببعضها البعض لا تنفصل إحداها عن الأخرى، وفي العدد الثامن من «الفدرالي» كتب هاملتون في إفاضة وفي تفهم كامل عن المشكلة الشديدة الحساسية مشكلة التنسيق بين القوة العسكرية وبين الحريات السياسية الأساسية، ويبدو في هذا البحث الذي كتبه هاملتون تماثلًا عجيبًا لبعض أفكار آدم سمث في نفس الموضوع، وقد أشار أيضًا إلى أنه لا يكفي أن تتوافر للحكومة سلطة إنشاء الجيوش في وقت الحرب بل يجب أن تحتفظ أيضًا بالقوات الكافية في وقت السلم وإلا «فإننا نعرض أرضنا وحريتنا لرحمة الغزاة الأجانب، وكل هذا بسبب أننا نخاف الحكام الذين نختارهم ويتوقف بقاؤهم على رغباتنا قد يعرضون هذه الحرية باستخدام سيئ للوسائل اللازمة للاحتفاظ بها والإبقاء عليها»(١)، وبالإضافة إلى هذا فإنه في وقت الحرب يجب أن تكون قوة التنفيذ كافية (لتوجيه القوة العامة للبلاد)(٢) بالرغم من الخوف التقليدي لدى الأمريكان من السلطة المركزية.

وقد آمن هاملتون كما آمن آدم سمث بأن الجيش المحترف يجب أن يكون أساس الدفاع الأهلي، وكما كتب في «الفدرالي» فإن «عمليات الحرب القوية المستمرة المتزنة الحركة ضد جيش منظم جيد الضبط والربط يمكن أن تنجح فقط إذا ما أديرت كاملة بواسطة قوم من نفس الطراز، وتؤكد الاعتبارات الاقتصادية من هذا بدرجة لا تقل عما تؤكده القوة والاتزان، لقد قامت الميليشيا الأمريكية في أثناء الحرب الماضية بالكثير مما تستحق لأجله التقدير

(١) "الفدرالي" رقم ٢٥ ص ١٥٦، ويمكن من أجل هذا الرجوع إلى نفس المجلة العدد الرابع والعشرين من قلم (جاي) والعدد الثالث والعشرين من قلم (هاملتون) والعدد الحادي والأربعين من قلم (ماديسون)، ومجلة الفدرالي في هذه الأعداد وغيرها تُعتبر مراجع قيمة لدارسي السياسة العسكرية والأمن القومي.

(٢) نفس المرجع، العدد الرابع والسبعون، ص ٤٨.

والذكر، ولكن أشجع هؤلاء الجنود يحسون بأن حرية بلادهم ما كانت لتقوم على جهودهم وحدهم مهما كانت الجهود قوية كبيرة القيمة، إن الحرب كالكثير غيرها من الأشياء تعتبر علمًا يمكن الوصول إلى تفهمه بالمثابرة والتجربة والوقت..»[١].

وفي الجزء الأخير للقرن الثامن عشر كان هناك اعتقاد واسع الانتشار بأن الحكومات البرلمانية ـ وعلى الأخص تلك التي تسيطر عليها الطبقات التجارية ـ أقل اتجاهًا للحرب من الحكومات الملكية، وقد فكر هاملتون بأن مثل هذا الرأي يتعارض مع الحقائق التاريخية المعروفة، وقد وجه إلى الاعتقاد بأن المجتمعات الشعبية مثلها مثل أي من الصور الحكومية «عرضة لمشاعر الغضب والرغبة في الأضرار والغيرة والجشع وما إلى هذا من المشاعر المضطربة العنيفة»، ولم يتفق أيضًا مع الفكرة القائلة بأن «النتيجة الطبيعية للتجارة هي إيجاد السلام»، بل على النقيض من هذا كان يرى أن التجارة أقرب لأن تسبب هذه الحروب التي تتكرر من وقت لآخر، «فهل فعلت التجارة شيئًا أكثر من أن تغير أغراض الحرب؟ أليس حب الثروة له دوره وتأثيره كحب القوة وحب العظمة؟! ألم تحدث حروب كثيرة قامت

(١) العدد ٢٥ ص ١٥٧، وقد قدم هاملتون قبل هذا في تاريخ مُبكر فكرة قيمة عن السياسة العسكرية للولايات المتحدة، راجع خطابه إلى جيمس دويان في عام ١٧٨٠، وتقديره بالنيابة عن اللجنة الخاصة للكونجرس في عام ١٨٣٤، مجموعة أعمال هاملتون المجلد الأول، ص ٢١٥ – ٢١٦، والمجلد السادس، ص ٤٦٣ – ٤٨٣.

وقد اعتقد أن الجيش يجب أن يكون قومياً في تنظيمه وولائه وأن التنظيم الدفاعي يجب أن يقوم دون ما إشارة للخطوط الفاصلة بين الولايات، وأن الميليشيا يجب أن تكون تحت الإشراف الأهلي من ناحية الخدمة والتدريب والإعداد. وأن تكون هناك أكاديمية عسكرية أهلية، وأن صناعة الذخائر يجب أن تشجع، وأن تمتلكها الحكومة الاتحادية وقد آمن هاملتون أيضاً بمبدأ الصلاحية العامة للخدمة العسكرية، نفس المرجع ٧ ص ٤٧.

تبعًا للدوافع التجارية منذ أن كان هذا هو النظام الذي تتبعه الأمم كما كانت تحدث من قبل بسبب الطمع في تملك الأرض؟ ألم توجد روح التجارة في الكثير من الأحوال دوافع جديدة لهذا الأمر أو لغيره؟».

وكانت الإجابة التي ظن هاملتون أنها الإجابة الوحيدة لهذه الأسئلة كلها هي كلمة واحدة تعني الإيجاب أي: «نعم»، فإن الحرب قد تعمقت في المجتمع البشري ومهما تغيرت صورها فإنها تضعف الإيمان بإمكان إيجاد السلم المستمر أو الأمن غير المهدد[١].

والغريب أن توماس چيفرسون قد اتفق مع هاملتون في أن السياسة التجارية سبب رئيسي للحرب، وكتب توماس چيفرسون[*] لجون جاي[**]

(١) تناقش مجلة الفدرالي في العدد السادس أسباب الحرب في إفاضة، والفقرات المُقدمة هنا منقولة من ص٣٠، أما عن وجهة النظر الخاصة بتأثير التجارة في تقوية السلم الدولي فيرجع إلى كتاب (ادموند سلبيرنر) "الحرب في الفكرة الاقتصادية من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر". (La Guerre dans la panesée économique du XVI au XVII Siécle) طبع باريس عام١٩٣٠، وفي الأعداد الثالث والرابع والخامس من مجلة الفدرالي يناقش جون جاي أسباب الحرب ويُقدم في العدد الرابع تقديره السابق لعصره من أن ازدياد التجارة مع الصين سيجعل الولايات المتحدة تنغمر في الصراع الدولي في الشرق الأقصى.

(*) توماس چيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة "١٧٤٣ – ١٨٢٦" وكان من الأفراد الذين أوجدوا الحزب الديمقراطي – مُعجم لا روس ص ١٤٦٤. "المترجم"

(**) جون جاي أحد المفاوضين الثلاثة مع فرانكلين في مفاوضات باريس للحصول على الاستقلال بعد الحرب ضد بريطانيا، ووقعت المعاهدة في ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣ وعينت الحدود من الغرب على المسيسيبي مع نصيب في مناطق صيد السمك في نيو فوندلاند، وجلت بريطانيا عن الأراضي الأمريكية مع السماح للرعايا البريطانيين بتجارة الفراء في أمريكا، راجع ج ١ من التاريخ الأمريكي السياسي والاجتماعي لهارولد أندروود فولكنر، ص ٨٩ و ١٠٩ و١٢٥ و ١٤٠ و ١٤١.



جيمس مونرو (١٧٥٨ ـ ١٨٣١)

من باريس في أغسطس عام ١٧٨٥ يقول: «لقد انتهى شعبنا إلى أنه من الضروري لنا أن نساهم في احتلال المحيط، كما توجههم عاداتهم الأصيلة فيهم إلى تطلب بقاء البحر مفتوحًا لهم؛ ولهذا فإنه يجب أن تتعقب السياسة التي تمكن من استخدامهم هذا العامل إلى غاية ما يمكن، إنني أظنه واجب أولئك الذين يتولون إدارة هذه الشئون أن يعملوا تبعًا لهذا القرار، وأننا يجب أن نعمل ـ في كل مناسبة حتى ولو أدى إلى خوض الحرب ـ للاحتفاظ بحق مساو للأمم الأخرى في نقل المتاجر، والعمل في مناطق صيد الأسماك وغير هذا من الأوجه التي يستخدم فيها البحر»[١].

وبلا شك أنه قد يمكن الوصول إلى تقدير آراء هاملتون بملاحظة المدى الذي اتفق معه چيفرسون خصمه اللدود وعلى الأخص فيما جاء عن الاقتصاديات والدفاع الأهلي، لقد كان چيفرسون من أصحاب مبدأ حرية التجارة وكان خصمًا لأصحاب رءوس الأموال المستخدمة في الصناعة، وقد عارض برنامج هاملتون التحفظي الوقائي، ولقد انتهى ـ بعد تجاربه الخاصة مع سفن تهريب المتاجر، وبعد تقديره لنتائج حرب ١٨١٢ ـ ١٨١٥ ضد إنجلترا ـ على غير رغبة منه إلى أن حقائق سياسة القوة قد تتطلب تغييرًا في وجهات النظر التي رآها من قبل على ما كتب في مارس عام ١٨١٥ إلى الاقتصادي الفرنسي چان باتيست الذي كان ينادي هو الآخر بحرية التجارة، فقال: «ولقد اقتنعت في تاريخ مبكر أن أمة تبعد عن أوروبا كثيرًا كحالنا يمكن أن تتجنب مهاجمة كل الدول الكبرى لها، وأن تقوم بواجبها في الحياد، وأن تحصل على كل النفع من تجاربها، مثل هذه الأمة يمكن أن

(١) كتابات چيفرسون، الطبعة التذكارية المُجلد الخامس، ص ٩٤. Writing of Thomas Jefferson (Memorial Edition).

تعيش في سلم وأن تعتبر نفسها فقط كعضو في أسرة البشرية الكبرى، وهي في هذه الحال تستطيع أن توقف كل جهودها لإنتاج أحسن ما تستطيع أن تنتج، وأن تحسن استبدال الفائض مما تنتج بأنفع ما يتوافر لدى الآخرين».

«ولكن التجارب قد أثبتت أن السلم المستمر لا يتوقف على عدالتنا وحسب بل وعلى عدالة الآخرين أيضًا، وأنه في حال الاضطرار إلى الحرب فإن الحد من هذا التبادل التجاري الذي يجب أن يتم عبر المحيط الفسيح يكون سلاحًا قويًّا في يد العدو الذي يسيطر على عامل النقل، وبذلك فإنه يضيف إلى متاعب الحرب احتياجنا إلى الضروريات التي نسمح لأنفسنا أن نعتمد فيها على الآخرين».

«إننا نتحول تدريجيًّا نحو الصناعة بدرجة غير واضحة لأولئك الذين لا يرون هذا والذين يفكرون فقط في الوقت القصير الذي اتجهنا فيه نحوها تبعًا للسياسة الانتحارية التي هي أصل سياسة إنجلترا، إن الرسوم الباهظة التي نفرضها على الصناعات الأجنبية تتطلب منا أن نوجد بين المواطنين شعورًا قويًّا برفض شراء الصناعات الأجنبية التي يمكن أن نصنع مثيلها في وطننا دونما تقدير لفرق الثمن، إن مثل هذا الشعور يمكن من حمايتنا ضد الوقوع في براثن السيطرة الأجنبية»(١).

وبالرغم من أن چيفرسون لم يقف ليعاون وجهات نظر هاملتون فيما يختص بالجيش العامل، إلا أنه في الواقع وصل إلى الاعتقاد بضرورة الاحتفاظ بقوة عسكرية تستند في اختيار أفرادها إلى عامل الصلاحية العامة للخدمة العسكرية؛ وفي تعليق چيفرسون على مذكرة لوزير الحرب كتب إلى

(١) ذات المرجع، المجلد الرابع عشر، ص ٢٥٨ — ٢٦٠. طبع واشنجتون عام ١٩٠٣.

چيمس مونرو في عام ١٨١٣: «إنه لمما يسرنا أنه ليس لدينا إلا القليل من الاتجاهات التي تهدف إلى تكوين جيوش نظامية حديثة، ولكنها تثبت بقوة ضرورة فرض خدمة الجندية على كل مواطن؛ كانت هذه هي الحال عند الإغريق والرومان، ويجب أن تكون كذلك في كل أمة حرة؛ يجب أن ندرب كل مواطنينا الذكور، وأن نجعل الدراسات العسكرية جزءًا من الدراسات الجامعية، ولن نكون في أمن حتى يتم هذا»[١].

والواقع أنه من الصعب أن يوضع هاملتون في مستوى عال كاقتصادي إلا من ناحية واحدة هي دفاعه عن الصناعات الوليدة لوقايتها، وفي تخطيطه لهذا الجزء من تقريره الشهير انتفع بمعاونة تنش كوكس معاونه في وزارة المالية وواحد من مدرسة فيلاديلفيا للتحفظيين الذين كان تأثيرهم واضحًا في هاملتون، ولكن المظهر التاريخي لدفاعه عن تطور الصناعات الأمريكية كان أكبر وأعمق من القيمة التي قدرت له؛ ذلك لأن ما كتبه قد أقام بناء سياسة الاقتصاد الأمريكي، ثم إنه كفرد جمع بين الاقتصاد والسياسة وصناعة الحكم في حلقة واحدة، وكان ككولبير أو ويليام بت أو بسمارك بالنسبة لأمريكا.

(١) ذات المرجع، المجلد الثالث عشر، ص ٢٦١.

إن قوة أفكاره وتأثيرها واضحة في أجيال متتابعة من الأمريكيين؛ ولهذا فإن تأثيره كان أوضح من تأثير أي من منافسيه وعلى الأخص چيفرسون[١].

***

(١) كان لمستر جوليان بويد أمين مكتبة جامعة برنسيتون حظ دراسة مراسلات وكتابات تنش كوكس التي تُشير إلى أنه كان للأخير دور إيجابي في تخطيط وكتابة "تقرير عن الصناعات" الذي قدمه هاملتون، على أن مدى إسهام كوكس في التخطيط النهائي للتقرير مسألة لا يمكن تقديرها تماماً حتى تنشر أسرة كوكس كل ما لديها من أوراقه؛ على أنه للرجوع إلى تحليل نقدي للتقرير يمكن دراسة ما كتبه فرانك فيتر في عام ١٩٤٠، بعنوان "الحكومة والحياة الاقتصادية" في مُجلدين طبع واشنجتون Frank Fetter, Government and Economic Life كما يمكن الرجوع إلى دراسة أطول للموضوع وإن لم تكن هذه في جانب هاملتون E. C. Lunt "Hamilton as a Political Economist" Journal of Political Economy III" أما عن تأثير مدرسة فيلاديلفيا فيرجع إلى الدراسة التي كتبها Proffessor Fetter "The Early History of Political Economy in the United States" Proceedings of the American Philosophical Society. LXXXVII (١٩٤٣) pp. ٥١ – ٦٠.

[٦]

وكان من حوادث التاريخ التي تستحق الذكر أن خصمي هاملتون السياسيين چيفرسون وماديسون(*) كانا هما اللذين أحدثا تأثيرًا كبيرًا فعالًا لوجهات نظر هاملتون التحفظية والقومية في السياسة الاقتصادية، فإن قانون الحدّ من دخول السفن إلى الموانئ الأمريكية والخروج منها، القانون الذي أصدره چيفرسون في ديسمبر عام ١٨٠٧ ، وقانون عدم التبادل

(*) جيمس ماديسون (١٧٥١ – ١٨٣٦) "أبو الدستور" حاكم ولاية فرجينيا، من بين التسعة والثلاثين الذين وقعوا المشروع الأخير للدستور، تولى قيادة الجبهة الدستورية في الكونجرس، عاون في تنظيم الحزب الجمهوري أحد الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة اختير رئيساً للجمهورية بأغلبية ساحقة عام ١٨٠٨، كان هو صاحب الرأي المشهور بأن "الواجب الأول للتشريع هو تنظيم المصالح الاقتصادية المتضاربة"، راجع التاريخ السياسي الاجتماعي الأمريكي لهارولد أندروود، ص ١٢٠ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٣ – ١٤٩ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٦١ – ١٦٤ و ٢١٤ و ٢٧٦.

وكان "ماديسون" هو الرئيس الرابع للولايات المتحدة، ولد في بورت كونواي من أعمال فرجينيا ابناً لرجل من أصحاب الأراضي، دخل جامعة نيو جيرسي (جامعة برنسيتون الآن) في عام ١٧٦٩ وتخرج منها عام ١٧٧١.

اشترك مع هاملتون وجاي في تحرير "الفدرالي" واختير عضواً في مجلس الكونجرس من ١٧٨٩ – ١٧٩٧. وتولى الوزارة مع الرئيس چيفرسون من ١٨٠١ – ١٨٠٩، وفي عام ١٨٠٨ اختير لرياسة الجمهورية وتولى العمل في عام ١٨٠٩ ثم أعيد انتخابه عام ١٨١٣ ثم تقاعد عام ١٨١٧ وخلفه وزيره الأول جيمس مونرو في رياسة الجمهورية.

وعاش ماديسون ما بقي من حياته حتى عام ١٨٣٦ في هدوء حيث توفي ودفن في مونتبلير من أعمال فرجينيا ويعلو قبره نصب كالمسلة.

وقد اشتهرت زوجته دورسي باين تود بأنها أكثر السيدات اللاتي عشن في البيت الأبيض شعبية وتقديراً من الجماهير.

راجع: The Standard Encycl. مجلد ٦ ملزمة ١٤ طبع شيكاغو عام ١٩٣٨.

التجاري. ثم الحرب التي تلت هذا ضدّ بريطانيا على غير رغبة ماديسون كانت لها كلها نتيجة عملية بأن سدت الطرق أمام التجارة الأجنبية، وجعلت الولايات المتحدة تعتمد فقط على مواردها الخاصة في صناعة ذخائر الحرب بل وفي كل ألوان الصناعات الأخرى، وكانت الصناعات التي قامت بضغط الحاجة الملحة في السنوات من ١٨٠٨ حتى عام ١٨١٥ هي التي منحتها الدولة كل وقاية في عام ١٨١٦ ثم قوَّت من هذا بواسطة قوانين الرسوم الجمركية المتتالية التي صدرت بعد هذا.

وبينا كان الأمريكيون ما يزالون يحسون بإيلام المعاملة الجائرة التي فرضت على الولايات المتحدة بواسطة فرنسا في حكم نابليون، ثم بواسطة فرنسا في ذات العصر، بينا كان الأمريكيون يحسون بهذا وضح أن الجميع يتفقون على رعاية الحكومة للصناعات، ووجد ماديسون وچيفرسون من ناحية وكلاي ـ «صقر حرب عام ١٨١٢» ـ وكالهون من ناحية أخرى أنفسهم معًا في معسكر واحد، وقد كتب چيفرسون في يناير عام ١٨١٦ حاملًا بعنف على أولئك الذين استخدموا وجهات نظره السابقة لحرية التجارة «كوسيلة لإخفاء عدم ولائهم ورغبتهم في إبقاء الولايات المتحدة غنيمة يستغلها إلى الأبد شعب أجنبي غير صديق هو الإنجليز»، وقد وقف چيفرسون يدعو الأمريكيين قائلًا: «اعملوا مثلي فلا تشتروا أي شيء أجنبي إذا ما أمكن الحصول على مثيله من الصناعات المحلية دونما تقدير لفرق الثمن»؛ ذلك «لأن التجارب قد علمتني أن الصناعات ضرورية الآن لاستقلالنا كما أنها ضرورية لراحتنا». ومن أجل ضمان استقلالنا عن الباقين «يجب أن نضع الصانع الآن جنبًا إلى جنب مع الزارع»[1]؛ وما كان من

(١) ذات المرجع ١٤ ص ٣٨٩ – ٣٩٣ من رسالة إلى بنيامين استين.

الممكن أن يقول هاملتون أكثر من هذا..

ولكن مع مرور الوقت لم تلبث أن وضحت من جديد تلك الاتجاهات القديمة، وبدأ صراع عنيف من أجل السياسة الوقائية حتى أقر الأمر في صورة موقوتة بإصدار الرسوم الجمركية لعام ١٨٤٦(*)؛ وكمشاركة في انتعاش ظهر فردريك ليست على المسرح الأمريكي وصاغ النظريات الاقتصادية التي كان لها تأثيرها لا في الولايات المتحدة وحسب، بل ـ ولربما بدرجة أكبر ـ في ألمانيا.

ولد ليست في وورتمبرج عام ١٧٨٩، وتعلم في جامعة «توبنچن»؛ حيث عمل فيها بعد أستاذًا للسياسة، ودخل الحياة العامة كخصم عنيد «للضرائب

(*) وضعت أول تعريفة جمركية عام ١٧٨٩ أصلاً للحماية وظلت الفكرة كذلك حتى عام ١٨١٦، وجاءت أول حركة وقائية هامة في الفترة من عام ١٨١٦ إلى عام ١٨٢٨ لحماية صناعة النسيج في نيو إنجلند، وصناعة الحديد في بنسلڤانيا كما كانت غير هذا من المتاجر تتطلب الوقاية ضد سيل المتاجر الأوروبية. وقد وصلت الرسوم إلى أعلى حد عام ١٨٢٨ ثم عادت في عام ١٨٣٢ إلى مستوى عام ١٨٢٤؛ على أنه إذا كانت الضرائب الجمركية هي أهم أسباب حرب الاستقلال فقد بدا أنها ستكون السبب في أن تتعرض الجمهورية الصغيرة للثورة الأهلية؛ وفي عام ١٨٣٣ خفضت الرسوم بنسبة ٢٠٪ لما كانت عليه في العام السابق ثم استمر التخفيض تدريجياً حتى عام ١٨٤٢ وكان هذا كله بتدابير سياسية وإن كانت فكرة الحماية والوقاية للصناعات الأمريكية لم تغب قط عن التقدير؛ ولم يكن "كالهون" مُخطئاً عند ما قال إن قانون عام ١٨٤٢ مر في دوائر الكونجرس لا لأن أرباب الصناعات يريدونه بل لأن السياسيين هم الذين أرادوه. وقد استمرت تعريفة عام ١٨٤٦ موضع التنفيذ حتى عام ١٨٥٧ ثم خفضت إلى الحد الذي قيل عنه وبسببه أن الولايات المتحدة تقترب من مبدأ حرية التجارة كما كانت حالها في عام ١٨١٦.
راجع الصفحات من ٢٥٢ – ٢٥٧، المجلد الأول من التاريخ السياسي والاجتماعي الأمريكي لهارولد أرندروود فولكز الطبعة الخاصة بالقوات المسلحة الأمريكية لعام ١٩٤٣. E. M. ٢٧٢.

الجمركية»؛ ولهذا أبقته آراؤه الحرة والقومية على خلاف دائم مع حكومة بلاده مما أدى به إلى النفي في عام ١٨٢٥ ، ووصل ليست إلى أمريكا منفيًّا من بلاده فأقام بين الألمان البنسلڤانيين في ريدنج، وتولى رياسة تحرير مجلة «ريدنج آدلر» وهي مجلة أمريكية / ألمانية تصدر أسبوعيًّا، وكان لها يوم ذاك صوت مسموع في شئون بنسلڤانيا؛ ولم تلبث اتجاهاته في السياسة التجارية أن ربطت بينه وبين جمعية بنسلڤانيا لتشجيع الصناعات والفنون الميكانيكية والتي كانت تحت الإشراف القوي لماتيو كاري(*) وتشارلس جارد أنجرسول وبيير دوبوتسو وآخرين(١).

وبالرغم من أن ماتيو كاري كان له النصيب الأوفر في تحرير النشرات فإن لِيسْت كان له القدح المعلي والقدرة على الكتابة بتجارب أوسع في الاقتصاد والسياسة، وكان هو الداعية الأول للسياسة الصناعية طوال إقامته في أمريكا، وكان موضع تقدير واحترام رجال الصناعة في بنسلڤانيا، كما قابل جل كبار السياسيين الأمريكيين في ذلك الوقت.

وقد تولى فردريك ليست رياسة كلية لافاييت وأخيرًا عندما عاد إلى ألمانيا كمواطن محايد وكعضو في السلك القنصلي للولايات المتحدة بالتعيين من

(*) كاري ... اقتصادي أمريكي ولد في فيلادلفيا وعاش من ١٧٩٣ إلى عام ١٨٧٩ .

(١) تكونت هذه الجمعية على ما يبدو بسبب وجود جمعية فيلاديلفيا للنهوض بالصناعات التي أوجدها هاملتون، وقد أصدرت جمعية بينسيلفانيا ووزعت عدة طبعات من "تقرير عن الصناعات" كما نشرت عدة نشرات من قلم ماتيو كاي الذي فعل أكثر من أي أمريكي آخر عدا هاملتون لإيجاد ما سُمي فيما بعد "الطريقة الأمريكية" وقد استرعى هذا انتباه الأمة كلها تبعاً للدعاية الواسعة التي وجهت في هذا السبيل مما جعل ولاية بنسيلفانيا تقف بصفة دائمة في معسكر المتحفظين في السياسة الأمريكية.

أندرو جاكسون(*) عمل في (بادن بادن)(**) حتى عام ١٨٣٤ ثم في ليبزج من ١٨٣٤ إلى ١٨٣٧ وأخيرًا في مدينة ستوتاجارت من عام ١٨٣٧ إلى عام ١٨٤٥، وفي العام التالي قتل ليست نفسه بعد أن سبب مرضه توقف قدرته على الاشتراك في الحياة العامة.

والواقع أن من السهل تتبع التاريخ الثقافي لليست؛ ففي شبابه قرر ـ عندما رأى المستوى المنخفض الذي هبطت إليه الحياة في ألمانيا ـ أن يدرس الاقتصاد السياسي، كما قرر أن يعلم إخوانه المواطنين أصول السياسة القومية التي يمكن بها «النهوض برفاهية وثقافة وقوة ألمانيا»، وقد انتهى إلى أن مفتاح كل مشاكل ألمانيا هو دعم مبدأ القومية، ويقول: «لقد رأيت بوضوح أن المنافسة الحرة بين أمتين في أعلى مستوى من المدنية يمكن أن تكون نافعة إذا ما كانتا على درجة متقاربة من التطور الصناعي، وأن أي أمة تكون لسوء الجد وراء غيرها في الصناعة والتجارة والملاحة يجب قبل كل شيء أن تقوِّي قواها الفردية؛ وذلك كي تعد نفسها لتدخل في منافسة حرة مع الأمم الأكثر تقدمًا، وقد قدرت في إيجاز الفرق بين السياسة العالمية التي لا عاطفة قومية لها(١)، وبين الاقتصاد السياسي، وشعرت أن ألمانيا يجب أن

(*) أندرو جاكسون ... أختير رئيساً للجمهورية عام ١٨٢٨ بأغلبية ١٢٨ ضد ٨٣ صوتاً نالها منافسه، وقد ربح جاكسون كل أصوات الجنوب والغرب وبنسيلفانيا كما نال اثنين وعشرين صوتاً من ولاية نيويورك، وقد صوت الناخبون لجاكسون على أساس أن اختياره نصراً للرجل الأمين ضد جماعة من الأرستقراطيين والسياسيين الفاسدين وكان اختياره هو أول نجاح للجموع الديمقراطية لتصل بممثلها إلى البيت الأبيض.

ص ١٩٠ المجلد الأول التاريخ السياسي والاجتماعي الأمريكي بقلم هارولد أندروود طبعة عام ١٩٤٣ للقوات المسلحة الأمريكية.

(**) بادن بادن مدينة ألمانية تشتهر بمياهها المعدنية سكانها ٣٠.٢٦٠ نسمة.

(١) كان الاصطلاح "السياسة التي لا قومية فيها" هو وصف «ليست» لكتابات آدم=

تلغي رسومها الداخلية وأن تتخذ سياسة تجارية متحدة نحو الأجانب يمكن أن تصل بالتطور التجاري والصناعي إلى ذات المستوى الذي وصلت إليه الأمم الأخرى نتيجة لسياستها التجارية».

والواقع أن تماثل وجهات النظر هذه مع الأصلين الأساسيين للسياسة التجارية ألا وهما: «الوحدة الأهلية» و «تطور قوة الأمة عن طريق السياسة الاقتصادية» يبدو واضحًا جليًّا لا يحتاج إلى دليل.

ثم يتابع ليست حديثه فيقول: «وعندما زرت الولايات المتحدة فيما بعد، تركت كل الكتب جانبًا فإنها كانت ولا شك ستخدعني، وأحسن ما يطالع الإنسان عن الاقتصاد في العالم الجديد هو أن يدرس صور الحياة نفسها، فهناك يمكن للإنسان أن يرى الأرض المجدبة تتحول إلى ولايات قوية منتجة؛ والنجاح الذي يتطلب القرون في أوروبا يسير في العالم الجديد واضحًا بسرعة لأعين المراقب، لقد درست كتاب الحياة هذا بإعجاب وتقدير، وقارنته بدراساتي السابقة وتجاربي ومشاعري، وكانت النتيجة إيجاد طريقة لا تقوم على أساس سياسة عالمية جوفاء، بل على أساس طبيعة

=سميث وجان باتيست وغيره من أفراد مدرسة سمث، ويجب أن يُدرك كل من يقرأ كتاب "ثروة الأمم" وكتاب "النظام القومي للاقتصاد السياسي" أن «ليست» قد أساء عرض وجهات نظر آدم سمث، وقد خلط «ليست» بين ما قاله «سمث» وما قاله أي فرد من أن سمث قد قاله وبين وجهات نظر سمث نفسه، ويمكن أن ندرك هذا من المقدمة الطريفة التي كتبها العلامة ج. س. نيكلسون لطبعة عام ١٩٠٤ لترجمة لويد لكتاب "النظام القومي ...".

وردت الكلمة في الأصل الإنجليزي "Cosmopolitical" والكلمة في معجم ويبستر ص ٣٣٤ تنقسم إلى "Kosmos" أي العالم و "Polites" أي المواطن، والكلمة على تنوع فروعها تعني الشيء الذي يتبع العالم كله ولا يرتبط بالعادات المحلية أو القومية. "المترجم"

الأشياء، على أساس دروس التاريخ، وعلى أساس احتياجات الأمم»[١].

على أنه ما من سبب يدفعنا لأن نعتقد بأن ليست لم يكن محقًّا عندما قال: إنه قد كوَّن وجهات نظره في السياسة والاقتصاد حين كان يعيش في ألمانيا في فجر العمر، وأنه كون هذه الآراء كلها بعد وصوله للولايات المتحدة، ما من سبب لهذا في الواقع.. وإن كان من الصحيح أن كتابه «مجمل الاقتصاد السياسي الأمريكي» ـ الذي يحتوي على سلسلة الرسائل التي كتبها إلى تشارلس چارد انجرسول في صيف عام ١٨٢٧.. الذي طبعته جمعية بنسلڤانيا في حجم الكتيبات ونشرته في نطاق واسع ـ يحتوي على كل الأفكار التي تبلورت وجاءت في كتابه «النظام القومي للاقتصاد السياسي» والذي ظهر بعد هذا بأربعة عشر عامًا؛ ذلك لأن «المجمل» يوضح تأثير هاملتون وماتيو كاري في ليست تأثيرًا لا يبقى بعده شك في أن صور الحياة والآراء الأمريكية كانت بارزة في أعمال ليست، وهي وإن لم تكن ذات تأثير حاسم فإنها على الأقل قد سببت تطور نظرياته الاقتصادية[٢].

(١) مقدمة المؤلف "للنظام القومي" ص ١١ و ١٣ من المقدمة، وكان «ليست» دائماً يُنكر أنه من دُعاة سياسة التجارة بالرغم من أنه كان يعترف بأنه قد نقل الأجزاء الهامة من هذه النظرية عن غيره – نفس المرجع ص ٤٣ من المقدمة.

(٢) انظر: Professor K. T. Eherberg’s historical and critical introduction to the seventh edition of the National System (Stuttgart ١٨٥٣) من أجل وجهة النظر الخاصة بأن هاملتون لا أثر له أو له الأثر القليل في "ليست"، وعلى نقيض هذا راجع: هيرست ذات المرجع ص ١١١ – ١١٨، وعلى الأخص كتاب: Ugo Rabbeno, American Commercial Policy (London ١٨٩٣). وهو ترجمة إنجليزية للكتاب الإيطالي: Protezionismo Americano: Saggi Storici di Politica Commerciale (Milan ١٨٩٣).

الدراسة الثالثة الفصل الأول عن «هاملتون» والفصل الثاني عن «ليست» وربما كان كتاب "رابينو" أعدل دراسة للموضوع.

على أن ليست قبل كل شيء وبعده كان ألمانيًّا، وكان يحس بأنه منفيّ غير سعيد في أمريكا، وقد طلب الجنسية الأمريكية ليتجنب الاضطهاد الذي كان نصيبه في وطنه، كان يعجب بهذه الموارد الكبيرة غير المتطورة الموجودة في الولايات المتحدة وفي ذات الوقت يحسدها، وكان ينظر ذات النظرات إلى الشباب الوثاب الذي يتوافر للبلاد في جملتها، ثم نجاحها في الوصول إلى الوحدة السياسية، ثم هذه الإمكانيات غير المحدودة لمستقبل الولايات المتحدة كقوة عالمية[1]؛ ولكن ليست كان ينظر إلى كل هذه الأشياء من وجهة آماله بالنسبة لوطنه ألمانيا، والذي كان إذ ذاك غير موحد، فقد كان في بروسيا ـ الولاية الألمانية التي في أقصى الشمال ـ سبع وستون «تعريفة» جمركية مختلفة في داخل أراضيها مع ثلاثة آلاف نوع من المتاجر التي تخضع للرسوم التي يحصلها جيش من موظفي الضرائب الجمركية.

وكانت لبروسيا حدود مشتركة مع باقي الولايات الألمانية تمتد لألف ميل وتمس ثمانيةً وعشرين ولاية مختلفة؛ وكان ليست ـ دون تقدير للصعاب التي لا يستطاع التغلب عليها ـ يحلم ويحلم برؤية ألمانيا جديدة أكبر وأعظم من ألمانيا التي يعرفها، على أن تتوافر في داخلها تجارة حرة مع وقاية خارجية، كما يتوافر لها أيضًا نظام أهلي للسكك الحديدية والبريد، وأخيرًا أن تنهض لتكون قوة أوروبية عظيمة.

وقد عاش ليست ليرقب جزءًا من برنامجه هذا يتحقق، وكانت جهوده هي التي دمرت الكثير من الموانع التي تحد من التجارة الداخلية أكثر مما فعلت المؤثرات السياسية للثورتين الأمريكية والفرنسية.

(١) آمن «ليست» بأن الولايات المتحدة ستتفوق في أقل من قرن من الزمان على بريطانيا في الصناعة والثروة والتجارة والقوة البحرية (النظام الأهلي ص ٤٠ و ٧٧ – ٨٠ و ٣٣٩).



بسمارك (١٨٧٧)



بسمارك (١٨٩٥)

ووفقت أيضًا دعايته التي لا تفتر من أجل السكك الحديدية، ووصلت إلى الكثير من النتائج المادية قبل أن تسبب تهدم صحته وتعجل بوفاته؛ على أن ليست لم يعش ليرقب ثورة عام ١٨٤٨. ولم يرقب نجاح بسمارك. ولا تكوين الإمبراطورية الألمانية، ولكن مع مرور الزمن ثبت أنه واحد من الذين صنعوا ألمانيا الحديثة، كما أنه كان واحدًا من أوائل الذين أوضحوا ضرورة تكوين ألمانيا الكبرى، هذه التي كانت موضع تهديد وإرهاب للعالم المتمدين فيما بعد[١].

***

(١) اعتبر «ليست» في نظر الكثيرين من دعاة الاتساع الألماني، وحتى في نظر النازيين أنفسهم اعتبر – كالقديس الذي يحمي الدولة، ولإدراك هذا يمكن الرجوع إلى الكتيب الذي كتبه كارل كومبمان طبع توبنجن عام ١٩٤٦ وعنوانه "فردريك ليست كمُبشر لألمانيا الحديثة". (Friedrich List als Prophet des neuen Deutschland) كما يمكن الرجوع إلى الرواية التي كتبها وولتر فون مولو طبع برلين وفينا وليبزج عام ١٩٣١ مع طبعات أخرى متتالية ووسمت بعنوان "ألماني ليس ألماني الموطن" رواية لفردريك ليست. Ein Deutscher ohne Deutschland: ein Friedrick List Roman ولهذه الرواية قيمتها لا كرواية تاريخية بل كنموذج العقلية الألمانية والنازية ومدى العداء العنيف الذي يحس به الألمان نحو فرنسا وبريطانيا، وعلى طوال السرد عمد فون مولو لإيضاح تأثير ليست في أندرو جاكسون وفون وملنكه وآخرين. "أندرو جاكسون هو الرئيس الذي جاء من الغرب ليفوز على آدامز كرئيس باختيار الشعب وتولى منصب الرياسة في ٤ مارس ١٨٢٩ وقد تولى الرياسة من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٦ وكان من الممكن اختياره للمرة الثانية لولا تنحيه". "المترجم"

[٧]

على أن أهم ما عنيت به اتجاهات «لِيسْت» السياسية والتجارية كان هو «عامل القوة»؛ حتى أنه ربط بين «القوة» وبين «الرفاهية» أو «الرخاء»؛ وفي هذا المجال كان في الواقع يعود من جديد إلى فكرة السياسة التجارية بالرغم مما يبديه من اعتراضات وانصراف إلى الاتجاه المضاد.

ولقد كتب ليست: «إن الأمة ـ أيَّ أمة ـ هي مجتمع منفصل يتكون من أفراد لهم حكومة واحدة وقوانين عامة واحدة، وحقوق ومصالح متماثلة، ولهم تاريخهم ومجدهم، ولهم دفاعهم الموحد، ووسيلة تأمين حقوقهم وحياتهم وثرواتهم؛ وهم بهذا يوجدون جسمًا واحدًا حرًّا، ويتبعون فقط السبيل الذي تمليه عليهم مصالحهم بالنسبة لغيرهم من المجتمعات المستقلة، كما تتوافر لهم القوة لتنظيم مصالح الأفراد ليمكن إيجاد أكبر ما يمكن من الرفاهية والرخاء في الداخل، وأقصى ما يمكن من الأمن والسلامة من جانب الأمم الأخرى».

ثم يتابع ليست حديثه فيقول: «والغرض من اقتصاديات هذا الجسم الموحد الحر، ليس فقط الثروة كما هي الحال بالنسبة للفرد، ولا في الاقتصاد العالمي في جملته، بل القوة والثروة؛ لأن الثروة الأهلية تزداد وتؤمن بواسطة القوة الأهلية، كما أن القوة الأهلية تزداد وتُؤمَّن بواسطة الثروة الأهلية، ولهذا فإن مبادئها الرئيسية ليست فقط اقتصادية بل وسياسية أيضًا، وقد تتوافر للأفراد ثروة كبيرة ولكن إذا لم تتملك الأمة القوة لوقايتهم فإنهم قد يفقدون في يوم واحد ما جمعوه في عصور طويلة، كما يفقدون أيضًا حقوقهم

وحريتهم واستقلالهم».

وبالإضافة إلى هذا: «فكما أن القوة تؤمَّن بالثروة فإن الثروة تزيد من القوة، وهكذا فإن القوة والثروة تنتفعان على قدم المساواة من التنسيق بين الزراعة والتجارة والصناعة في داخل حدود الدولة، ولا يمكن أن تتوافر للدولة القوة والثروة إذا لم يتوافر هذا التنسيق».

ولما كانت القوة الإنتاجية هي مفتاح سبيل الأمن القومي والسلامة الأهلية «فإنه ليس من حق الحكومة بل ولا من واجبها وحدها أن تنهض بكل شيء يمكن أن يزيد من ثروة وقوة الأمة، ولكن إذا لم يمكن إدراك هذا الغرض بواسطة الأفراد فإنه يكون من واجب الحكومة أن تحرس التجارة بأسطول، لأن التجار لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومن واجب الحكومة أن تحمي نقل المتاجر بالقوانين البحرية؛ لأن التجارة المنقولة تعاون قوة الأسطول كما يحمي الأسطول التجارة المنقولة؛ ولهذا يجب أن تدعم مصالح التجارة وصناعة السفن بكل الصناعات الأخرى وأن تنشأ من أجلها الجسور والقنوات والخطوط الحديدية، وأن تحمي المخترعات الجديدة باستصدار القوانين التي تسجلها وتحميها، وهكذا حتى تصل إلى وجوب حماية الصناعات بواسطة فرض الضرائب الجمركية وذلك متى كان رأس المال الأجنبي والكفايات الأجنبية تمنع وتعطل المواطنين من تولي هذه الأعمال والنهوض بها»[1].

---

(١) Outlines, in Schriften, Reden Briefe المجلد الثاني من ١٠٥ – ١٠٦، ويبدو هنا بوضوح التماثل التام بين آراء ليست وآراء هاملتون فيما يختص بوجوب التنسيق. راجع أيضاً ص ٣٦٤ ذات المرجع، الملاحظة التي قدمها الدكتور نوتز وينسب فيها (عقيدة) «ليست» ليس فقط إلى هاملتون بل وإلى دانييل رايموند وماتيو كاري وجون كالهون.

والثروة لا نفع لها ولا فائدة تجنى منها ما لم تتوافر معها «وحدة الأمة وقوتها»؛ ولهذا فإن إخفاق ألمانيا في تحقيق الوحدة السياسية أو في إيجاد سياسة تجارية موحدة قد جعلها قادرة لأجيال متتالية على الاحتفاظ بمكانتها بين الأمم في الوضع الذي يفرضه لها نصيبها من المدنية. «ولقد وصلت ألمانيا عدة مرات إلى حافة الانهيار الاقتصادي نتيجة للمنافسة الحرة مع الدول الأخرى، وتبعًا لهذا فقد أدركت الحقيقة التي تقول بأنه في ضوء الظروف الحالية للعالم يجب أن تعمل كل أمة كبيرة للحصول على الضمانات التي تؤكد استمرار رخائها واستقلالها، وهي لا تصل إلى هذا إلا عن طريق استقلال واطِّراد تحسين مواردها وازدياد قوتها».

«وليست الرسوم الجمركية والقوانين التحفظية المقيدة التي توضع لتطور مثل هذه القوى والموارد وليدة عقول مخاطرة، ولا هي التدرج الطبيعي لاختلاف المصالح وتباينها، ولا هي ظلال صور كفاح الأمم المرير بعد أن تستقل وبعد فكاكها من مؤثرات عنيفة أو من نفوذ قوي» ليست هي وليدة شيء من هذا. بل إذا نظرنا إلى الأمر محاولين أن نعبِّر عنه بكلمات قليلة أخرى فمن الممكن أن نقول: «بأن الحرب، أو حتى حال احتمال الحرب، هي التي تجعل المنشآت الصناعية من ألزم الضروريات لكل أمة تقف في المرتبة الأولى بالنسبة لغيرها من الأمم»، كما أنه من الحماقة، بل ومن الغباء، أن تجيء أمة في هذا العصر الحديث «فتسرح جيوشها وتدمر أسطولها وتهدم حصونها»؛ ذلك لأنه يكون من الخراب المدمر أن تضع أمة سياستها الاقتصادية على أساس تقديرات غير مؤكدة لقيام حالة سلم واستقرار وتفاهم عالمي، الأمر الذي لا وجود له إلا في عقول أصحاب مدرسة

«التجارة الحرة»[(١)].

إن قدرة الأمة على الاشتباك في حرب إنما تقاس بمعيار قدرتها على الوصول إلى الثروة، ولهذا فإن الإمكانيات لتطور القوة الإنتاجية هي هدف الوحدة القومية والسياسة التحفظية.

وقد تنتج السياسة التحفظية لبعض الوقت ـ ولبعض الوقت فقط ـ مستوى منخفضًا للمعيشة؛ ذلك لأن الرسوم والحواجز الجمركية تؤدي إلى ارتفاع الأسعار؛ ولكن هؤلاء الذين يناقشون مسألة رخص أثمان البضائع الاستهلاكية على أساس أنها وسيلة عامة لتقدير نفع التجارة الأجنبية «لا يجهدون أنفسهم ولا يعنون إلا قليلًا بالتفكير في قوة وشرف ومجد الأمة»، ويجب أن يدرك هؤلاء أن الصناعات التي تحميها الدولة هي جزء أساسي من الشعب الألماني؛ «ومن هو الذي يمكن أن يتعزى عن فقد ذراعه إذا عرف أنه في سبيل هذا قد حصل على قميصه بسعر يقل أربعين في المائة عما كان يشتريه به من قبل؟»[(٢)].

---

(١) Le Système naturel d'économie politique (١٨٣٧) الفصل الثاني من "الأعمال" المجلد الرابع ص ١٨٦، "النظام الأهلي" ص ٨٧ و ٩١ – ٩٢ و ١٠٢ و ١٠٧، ولا حاجة لتذكير القارئ بأن آدم سمث لم يضع طريقته ونظامه على أساس سلم عالمي ولا على أساس اتحاد بين أمم العالم، وقد قال «ليست» نفسه في بعض المناسبات، بأن الهدف الأخير للمجتمع كله هو الوصول إلى حكومة عالمية، وبالرغم من أنه كان بالنسبة لهذه الفكرة (قومياً) أكثر من أن يكون مبشراً وداعية لها في صورتها العامة.

(٢) نفس المرجع ص ١١٩ و ١٤٠، قارن بين رأي ليست عن القوة الإنتاجية ورأي سمث في أن القدرة على الاشتباك في الحرب إنما تُقاس بمقدار الإنتاج الصناعي السنوي للأمة وبمقدار الحصيلة السنوية من الأرض والعمل والبضائع الاستهلاكية؛ وراجع أيضاً رأي چيفرسون عن (الأسعار) في القسم الخامس ورأي هاملتون عن (الكفاية الذاتية في وقت الحرب) في القسم الرابع من هذا الفصل ...

ويجب أن ندرك أنه كلما عظمت القوة الإنتاجية للأمة كلما ازدادت قوتها في الميدان الدولي، أي: من ناحية علاقاتها بغيرها من الدول. وكلما ازداد في ذات الوقت استقلالها في وقت الحرب، ولهذا فإن المبادئ والأصول الاقتصادية لا يمكن أن تنفصل عن النتائج والمعقبات السياسية التي لها أو تتسبب عنها.

«وفي الوقت الذي يكون فيه للعلم الفني والآلي مثل هذا التأثير الكبير على أساليب الحرب، وعندما تتوقف كل العمليات ذات الطابع الحربي على الأحوال الاقتصادية للدولة، وعندما يتوقف الدفاع الناجح بدرجة كبيرة على ما إذا كان أفراد الأمة في جملتهم موسرين أو فقراء، موفوري الذكاء أو بالغي الغباء، نشطين أو متكاسلين، وعندما يكون ولاء الأفراد متجهًا كله إلى الوطن الأم أو متجهًا بعضه إلى الدول الأجنبية، وعندما تتباين القدرة على إعداد الأفراد للدفاع عن البلاد بين الكثرة والقلة، في مثل هذا الوقت الذي هذه صفاته يجب أن تقدر قيمة الصناعات من وجهة النظر السياسية»(١).

وكان يتوافر لليست تفهم كبير للعوامل التي تدخل في نطاق الإمكانيات العسكرية، وقد كتب: «إن حال الأمم اليوم لهي نتيجة تجمع كل الاختراعات والمكتشفات والتطورات التي جاءت بها الأجيال السابقة والتي عاش أهلوها قبلنا؛ إن كل أمة عندما ننظر إليها وحدها تعتبر منتجة

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٨ – ١٦٩ وأيضاً ص ١١٨ – ١١٩. ويجب ملاحظة أن "ليست" يقصد في هذه الفقرة وصف الزمن في الوقت الذي يكتبها فيه وحال المجتمع العالمي في ذلك الوقت، ومن هنا كان تقديره لقيمة الصناعات في ذلك الوقت أكثر من أي وقتٍ سابق من وجهة النظر السياسية. "المترجم"

فقط في الناحية التي عرفت كيف تنتفع بما جاءت به الأجيال السابقة فيها، ثم زادت من هذا بإمكانياتها الخاصة؛ هذه الإمكانيات التي يمكِّن من تطورها ما في أرضها من موارد وما لموقعها الجغرافي من أهمية، ثم أن تزيد بعد هذا مما يتوافر لها داخل حدودها من سكان وقوة سياسية وثروة، وأن تمد من نفوذها الثقافي والتجاري والسياسي على غيرها من الأمم التي تقل تقدمًا وحضارة عنها وعلى الأخص في الشئون ذات الصبغة العالمية»[١].

ولا شك في أن مثل هذه المعتقدات والآراء توجد خطوة سهلة ميسورة لاتباع سياسة اتساع إقليمي في قارة أوروبا واتساع استعماري فيما وراء البحار؛ ولم يتردد ليست في اتخاذ هذه الخطوة، فقد رغب في وجود ألمانيا متحدة تمتد من الرين إلى الفستيولا، ومن البلقان إلى البلطيق، وقد اعتقد «بأن أسس البناء المعنوي للأمة بما يصحب هذا من تطور ثقافي ونهضة علمية فنية، بل وأساس التطور المادي والقوة السياسية لها! إنما هو أن يتوافر لهذه الأمة العدد الكبير من السكان، والمنطقة الفسيحة من الأرض مع دخل ثابت من الموارد الطبيعية المختلفة، ولهذا فإن الأمة المحدودة عدد السكان والمحدودة الحيز في المساحة لا يمكن أن تتوافر لها آداب أو ثقافة أو مؤسسات للنهوض بالفنون والعلوم، كما لا يمكن للأمة الصغيرة أن تزيد من تطور وتقدم مواردها الإنتاجية المختلفة إلى أقصى مدى لهذا التطور»، ومن هنا كانت الأمم الصغيرة لا تستطيع أن تحتفظ باستقلالها إلا بصعوبة كبرى، ولكنها لا تستطيع أن تعيش إلا بالتحالف مع الدول الكبرى الأمر الذي يتطلب منها التضحية بسيادتها القومية[٢].

(١) ذات المرجع ص ١١٣ – ١١٤.

(٢) ذات المرجع ص ١٤٢، ويبدو هنا أن ترجمة لويد غير مرضية وقد أعدت ترجمة هذه=

على أن هذا الذي سلف ذكره لا يختلف كثيرًا عن التعريفات الألمانية الحديثة «للمجال الحيوي» كما يتضح من برنامج ليست، ذلك البرنامج الذي وضعه لألمانيا الكبرى، فقد وقف في جانب انضمام الدانمرك وهولندا وسويسرا وبلجيكا لألمانيا المتحدة، وقد بني هذا بالنسبة للدول الثلاث الأولى على أساس الجنس واللغة وعلى أساس الاقتصاد والاستراتيجية؛ كما أن الحاجة ملحة إلى الدانمرك وبلجيكا وهولندا كي تستطيع ألمانيا أن تسيطر على مصابِّ الأنهار الألمانية مع الساحل البحري من مصب الرين إلى بروسيا الشرقية، ويضمن هذا للأمة الألمانية ما تحتاجه الآن «من مصايد الأسماك ومن الأسطول والتجارة البحرية والمستعمرات»، كما أن انضمام هذه الدول الثلاث مضافًا إليها سويسرا يضمن لألمانيا حدودًا طبيعية من البحار والجبال، «وهذا أمر ضروري من الناحيتين الاقتصادية والسياسية»(١)، كما أن على ألمانيا أن تقوم بتسرب سلمي في أرض الدانوب وفي تركية أوروبا، وهذه المناطق هي الحدود الطبيعية لألمانيا. ثم إنه من مصلحتها أن يتوافر الأمن والنظام في تلك المناطق(٢).

ويجب أن يتوافر في الأمة القوة للتأثير في حضارة الأمم الأقل منها تقدمًا،

=الفقرة ثانية لتتمشى مع الأصل الألماني الذي يمكن الرجوع إليه في "الأعمال" المجلد السادس ص ٢١٠ – ٢١١.

(١) ذات المرجع ص ١٤٢ – ١٤٣، ٢١٦، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٤٦ – ٣٤٧ ولسبب غير واضح كان ليست متأثراً بفكرة أهمية الأنهار كحدود طبيعية.

(٢) ذات المرجع ص ٣٤٧ وقد قال "ليست": إنه من الأفيد للألمان أن يُهاجروا إلى الدانوب لا إلى سواحل بحيرة إيريه راجع "الأعمال" المجلد الخامس ص ٤٩٩، ٥٠٠ (بحيرة إيريه بحيرة في بنسلفانيا وهي إحدى البحيرات الأمريكية الخمس الكبرى وعلى ساحلها ميناء تجارية كبيرة تحمل ذات الاسم ومساحة البحيرة ٢٥٠٠٠ كيلو متر مربع وسكان الميناء ١١٧٠٠٠ نسمة) – لا روس ص ١٣٥٢. (المترجم).

ويجب أن تستطيع بالزيادة في تعداد سكانها وبالفائض في رأس المال المادي والمعنوي والذي ينصرف من هذه الأمم إلى أمم أخرى تتوافر فيها إمكانيات العمل فإن كل هذه الزيادة تكون قد ضاعت على الأمة الأصلية وتحولت إلى فائدة القوميات الأخرى»، وهذه حقيقة واضحة لا شك فيها بالنسبة للهجرة الألمانية إلى الولايات المتحدة، «وأي نفع إذا ما توافر الرخاء بدرجة كبيرة للمهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية؟!! إنهم من ناحية العلاقات الشخصية يعتبرون قد فقدوا القومية الألمانية تمامًا، ولا تحصل ألمانيا من إنتاجهم المادي إلا الثمار التي لا أهمية لها، إن من الخطل أن يظن الناس بأن اللغة الألمانية تظل لغة الألمان الذين يعيشون في داخلية الولايات المتحدة، وأنه من الممكن بعد وقت ما إنشاء ولايات ألمانية هناك»، وكانت خاتمة هذا البحث هو أنه لا مندوحة من أن يكون لألمانيا مستعمرات خاصة بها في جنوب شرق أوروبا وفي الأمريكيتين الوسطى والجنوبية، وأن تدعم هذه المستعمرات بكل موارد الأمة بما في هذا من شركات استعمار قوية «مع نظام قنصلي ودبلوماسي قوي»[١].

وكان «ليست» على دراية تامة بأن برنامجه للاتساع في القارة الأوروبية والمستعمرات وراء البحار لا يمكن إدراكه بدون الحرب، وكان أولئك الذين يدعون لإيجاد تنظيم أهلي لألمانيا يعرفون ـ على ما قال ليست في رد عنيف على جريدة التيمس اللندنية ـ بأن المستقبل قد يجيء بحروب قومية ولكنها ستكون هي التي تعبئ الموارد المعنوية للأمة الألمانية لدعم الاقتصاد الأهلي[٢].

(١) ذات المرجع ص ١٤٢، ٢١٦ – ٢١٧، ٣٤٥ – ٣٤٧.

(٢) "جريدة التيمس ونظام الحماية الضرائبية الألمانية" مجلة الضرائب المجلد الرابع لعام ١٨٤٦ ص ٦٩٣ – ٦٩٤. =

وكانت انجلترا بالطبع هي التي وقفت في طريق الأطماع الألمانية، كانت هي الخصم الأول لسياسة توازن القوى التي عبأت «الدول الأقل قوة لتقوم بوقف تدخل الدول القوية في أراضيها»، وقد وقفت بريطانيا بمنجاة من أي تهديد كقوة استعمارية لها قيمتها وأهميتها، هذا المركز الذي وصلت إليه نتيجة تطور صناعاتها، ولهذا «فإنه إذا أرادت الدول الأوروبية الأخرى أن تساهم في العمل النافع بزرع الأراضي المهملة وتمدين الشعوب المتبربرة، أو الشعوب التي كانت متمدينة يومًا ما ثم اتجهت منغمرة في البربرية، فإنها يجب أن تبدأ بتطور قواها الصناعية الداخلية وبتطور تجارتها البحرية ثم بتطور أسطولها البحري، فإذا ما عطلت عن إدراك هذا بواسطة السيادة الصناعية والتجارية والبحرية لانجلترا فإن في اتحادهما معًا الوسيلة الوحيدة لإضعاف هذا العمل غير المنطقي»(١).

وكانت انجلترا أيضًا هي التي وقفت كالتمثال الحجري الضخم تسد الطرق البحرية للعالم جاعلة من الصعوبة على أي أمة أخرى أن تحصل على القوة البحرية الضرورية لتحقيق أهدافها، وقد كتب «ليست» عن السيطرة الإنجليزية على البحار: «لقد تملكت بريطانيا مفتاح كل بحر ووضعت حارسًا على كل أمة، فعلى الألمان هيلو جولاند(*) وعلى الفرنسيين چيرنسي

= ("Die Times und das deutsche Schutzsystem" Zollvereinsablatt. IV) (١٨٤٦) ٦٩٣ – ٦٩٤.

(١) The National System pp. ٢١٦ – ٢١٧, ٣٣٠.

(*) هيلو جولاند ... جزيرة ألمانية في بحر الشمال عبارة عن هضبة صخرية طولها ميل واحد وأكبر سعة لها لا تزيد على ثلث ميل – تبعد أربعين ميلاً لغرب مصب نهر الألب وثمانية وعشرين ميلاً عن أقرب نقطة على الساحل الألماني، كانت ملك بريطانيا من ١٨٠٧ إلى ١٨٩٠، وأعطيت لألمانيا في عام ١٨٩٠ بدلاً من منطقة في شرق أفريقيا (المترجم)

E. Encycl. Vol. ٧ pp. ٥٢ – ٥٣.

وچيرسي(*) وعلى سكان أمريكا الشمالية نوڤا سكوتيا وجزر برمودا(**)، وعلى أمريكا الوسطى جزيرة چمايكا(***)، وعلى كل الدول التي تحف بالبحر

(*) چيرسي ... ثاني جزر القنال الإنجليزي التي تبعد ثلاثين ميلاً عن ساحل نورماندي والجزيرة مُثلثة الشكل ومساحتها ٢٥ ميلاً ويسكنها ٤٩٣٠٠ من السكان، تزرع الخضروات والفاكهة وتشتهر بماشيتها الغزيرة الألبان. E. Encycl. Vol. ٦ pp. ٦٣٤

چيرسي.. أكبر جزر القنال الإنجليزي وأبعدها للجنوب، سطحها صخري وعر وبخاصة في الشمال، والمناطق الخصبة منها تزرع الخضروات وعلى الأخص البطاطس الذي صدرت منه في العام الماضي ستين ألف طن، ومساحة الجزيرة ٤٩ ميلاً مربعاً ويسكنها خمسة وخمسون ألفا من السكان كإحصاء عام ١٩٤٨ ولا تزال اللغة الرسمية في الجزيرة هي اللغة الفرنسية ولكن كل الأعمال الحكومية تتبع النظام الإنجليزي (المترجم). E. Encycl. Vol. ٧ pp. ٧٥١ – ٧٥٢.

(**) برمودا ... مجموعة من الجزر في المحيط الأطلنطي تبعد خمسمائة وثمانين ميلاً عن رأس هاتيراس أقرب نقطة لها على الساحل الأمريكي، وليس من الواضح تاريخ كشفها، ولكن أول من زارها في التاريخ المسطور هو جوان برموديز الأسباني عام ١٥١٥، تولت أمرها شركة فرجينيا في عهد جيمس الأول عام ١٦١٠ ثم ضُمت لمتلكات التاج عام ١٦٢٠.

وتتكون الجزر من مجموعة كبيرة أغلبها صخري غير مسكون وتدور في شكل حلقة بيضاوية من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وجملة مساحتها ١٩ ميلاً منها جزيرة برمودا وحدها تصل مساحتها إلى أربعة عشر ميلاً، وجملة السكان كإحصاء عام ١٩٤٠ (٣٢٠٠٠) منهم (١٢٣٠٠) من البيض.

أعطيت للولايات المتحدة ضمن قواعد الأطلنطيق في أيام الحرب العالمية الثانية وأنشئت بها قاعدة لتدريب الأسطول الكندي عام ١٩٤٤.

عقد بها عام ١٩٤٦ مؤتمر إنجليزي – أمريكي نشرت محاضر جلساته في الكراسة البيضاء رقم ٦٤٤٧ وعقد بها مؤتمر أيزنهاور – ماكميلان في مارس ١٩٥٧ E. Encycl. Vol. ٢ pp. ٢٥٩ – ٢٦٠. (المترجم).

(***) چمايكا أكبر الجزر الإنجليزية في جزر الهند الغربية في البحر الكاريبي تبعد تسعين ميلاً عن الساحل الشرقي لكوبا. مساحتها (٤٤٥٠) ميلاً مربعاً ويسكنها مليون وربع من السكان منهم خمسة عشر ألفاً من البيض، تشتهر بزراعة الفاكهة وجوز الهند والتبغ وأهم صناعتها الزيوت والكبريت والمياه المعدنية. E. Encycl. Vol. ٧ pp. ٦٩٤ – ٦٩٨ (المترجم).

الأبيض المتوسط وضعت جبل طارق ومالطة وجزر الأيونيان، إنها تمتلك كل المواقع الاستراتيجية على كلا الطريقين إلى الهند فيما عدا برزخ السويس الذي تعمل جاهدة لتملكه، إنها تسيطر على البحر الأبيض المتوسط بجبل طارق، وتسيطر على البحر الأحمر بعدن، وتسيطر على الخليج الفارسي ببوشير وكراتشي، إن كل ما تحتاجه بريطانيا هو أن تمتلك الدردنيل وبرزخ السويس وقناة بنما حتى يكون في استطاعتها أن تغلق أو تفتح كل بحر وكل طريق بحري تبعًا لرغباتها الخاصة»(١).

ولم يكن في استطاعة أي أمة أن تنجح في تهديد بريطانيا وذلك لقوتها البحرية والتجارية العظيمة، ولقوتها الاستعمارية اللهم إلا إذا حصلت على مساعدة كبيرة من الأمم الأخرى؛ «والدول التي هي أقل قوة من إنجلترا في البحر تستطيع أن تقف فيها موقف المساواة عندما تتجمع قواتها البحرية معًا في مجموعة واحدة»، ولما كانت كل أمة من هذه الأمم لها «مصلحة في صيانة ورخاء القوى البحرية للأمم الأخرى» فإنها كلها معًا يجب أن تعمل ـ لتكون معًا قوة بحرية متحدة ـ هادفة فيما تهدف إلى منع هذه السيطرة الإنجليزية على الطرق البحرية في العالم «وبخاصة السيطرة على البحر المتوسط»(٢).

(١) ذات المرجع ص ٣٨؛ أما بالنسبة لقناة بنما والتي كانت بريطانيا تعمل جاهدة منافسةً للولايات المتحدة في تملكها فقد اقترح «ليست» إنشاء طريق دولي تحت إشراف مُنظمين ألمان. "راجع الدور السياسي في إنشاء قناة بنما" الفصل الثالث والعشرين من "التاريخ السياسي الاجتماعي لأمريكا" بقلم هارولد أندر وود فولكينر النسخة الخاصة بالقوات المسلحة الأمريكية (E. M. ٢٧٠) الجزء الثاني ص ٥٣٢ – ٥٤٨ طبعة عام ١٩٤٤. (المترجم).

(٢) ذات المرجع ص ٣٣٢ و ٣٣٤.

ومن الحكمة أن الأمم التي في القارة تكوِّن معًا كتلة أوروبية هدفها وقف قوة بريطانيا عند حدها؛ «وإذا استطعنا أن نقدر المصالح المشتركة للأمم التي تعيش في القارة ـ هذه المصالح التي تتعارض مع السيادة البحرية التي لبريطانيا ـ استطعنا أن ندرك أنه ليس هناك ما هو أكثر ضرورة لهذه الأمم من اتحادها معًا، وأنه ليس هناك ما هو ضار بها أكثر من هذه الحروب التي تدور في قلب القارة، ويؤكد لنا تاريخ القرن الماضي أن كل حرب قد أثارتها دول القارة بعضها ضد بعض كانت نتيجة لشيء واحد هو زيادة صناعة وثروة وملاحة ومستعمرات الدولة البحرية التي لها السيادة؛ أي بريطانيا»[١].

ولكن التفكير الاستراتيجي لليست لم يكن قصير المدى ولا محدود الأفق، ولا تقف أهدافه حتى عند حدود قارة أوروبا، كان «ليست» في تحديقه نحو المستقبل يرى اليوم الذي سيخفق فيه العلم «ذو الأشرطة والنجوم» الأمريكي، لا العلم البريطاني، على البحار. ويكون إذ ذاك من الضروري على الأمم الأخرى التي تغطي سطح الكرة الأرضية أن تقوم بتدابير لها أثرها لتحد من قوة الولايات المتحدة: «وستمكن ذات الأسباب التي رفعت بريطانيا العظمى إلى مركزها الحالي» «وربما كان هذا في مدى القرن التالي» ستمكن من رفع الولايات المتحدة إلى درجة في الصناعة والثروة والقوة تزيد عما لبريطانيا الآن، وسيكون الفرق بين الولايات المتحدة وبريطانيا يوم ذاك أكثر من الفرق بين بريطانيا وهولندا الصغيرة اليوم؛ وسيزداد مع الأيام تعداد سكان الولايات المتحدة إلى مئات الملايين من الأنفس، وستنشر الولايات المتحدة معاهدها وتعاليمها وحضارتها في

(١) ذات المرجع ص ٣٣٨.

الأمريكيتين الوسطى والجنوبية كما انتشر هذا كله الآن في المكسيك الأرض التي تجاورها تمامًا، وسيمكن لمئات الملايين الذين يسكنونها من تحسين موارد القارة الأمريكية، هذه الموارد التي تزيد بدرجة كبيرة عما في قارة أوروبا من موارد الثروة الطبيعية، وستتفوق القوة البحرية للعالم الغربي كذلك على بحرية بريطانيا بذات الدرجة التي تزيد بها سواحل وأنهار العالم الجديد على سواحل بريطانيا وأنهارها في الطول والإمكانيات».

«وهكذا فإن الحاجة التي تفرض الآن على الفرنسيين والألمان ضرورة تكوين تحالف قاري ضد السيادة البريطانية.

ستفرض ـ هذه الحاجة نفسها ـ على الإنجليز في المستقبل غير البعيد ضرورة إنشاء إتحاد أوروبي ضد السيادة الأمريكية؛ وهكذا تضطر بريطانيا أن تتلمس وأن تجد في قيادة القوى المتحدة في أوروبا ما تحتاجه من الأمن والوقاية ضد سيطرة أمريكا، وستجد في هذا ما يعوضها عن سيادتها التي تكون قد فقدتها»!!!

«ولهذا فإن من صالح انجلترا أن تعمل لاكتساب صداقة الدول الأوروبية وأن تعوِّل على أن تكون الأولى وسط مجموعة من الدول تقف كلها بعضها من بعض موقف المساواة»[١].

وقد تكون وجهات نظر «ليست» عن بريطانيا دراسة طريفة من الناحية

---

(١) ذات المرجع ص ٢٣٩ – ٢٤٠؛ وقد جاءت ذات الفكرة بإفاضة في سجل كتب عام ١٨٤٦ قبل وفاة «ليست» بقليل "قيمة ومعنى تحالف بريطانيا وألمانيا" – المجموعة. المجلد السابع ص ٢٦٧ – ٢٩٨؛ راجع أيضاً "ماضي وحاضر أمريكا الشمالية" – مُعجم الدولة لعام ١٨٤١ ص ٢١٩.
راجع الحديث في التعريفات بالمؤلفات في آخر هذا الفصل من الكتاب.

السيكولوچية، وربما تكون أكبر قيمة عندما ننظر إليها على التحديد من وجهة نظر السيكولوچية الألمانية، فقد أعجب «ليست» ببريطانيا.

والواقع أن القليل من الرجال من الأمم الأخرى هم الذين نظروا إلى بريطانيا ذات نظرة الإعجاب هذه؛ ولكنه من ناحية أخرى كان يخاف بريطانيا ويكرهها وإذا قدرنا أنه هو نفسه كان يقاسي الكثير من مركب النقص الذي أوجده فيه ما لقيه من اضطهاد على أيدي الموظفين الألمان فليس من المدهش أن نجده يؤمن بأن بريطانيا تشترك إيجابيًّا في العمل لفشل كل الخطوات التي تستهدف إتحاد ألمانيا، ولهذا فقد اشتبك في نقاش عنيف مع الكثيرين من الإنجليز وبخاصة أولئك الذين كانوا ما زالوا يتبعون تعاليم آدم سمث، الذي كان قد مات منذ زمن بعيد.

وقد نزل ليست أرض بريطانيا آملًا في أن يمهد الطريق لحلف ألماني / بريطاني، ولم يذهب خالي الوفاض بل أعد مذكرة طويلة عن هذا الحلف قدمها إلى البرنس آلبرت، وإلى السير روبرت بيل رئيس الوزراء إذ ذاك، وللورد كلارندون وزير خارجية بريطانيا يوم ذاك، كما قدم نسخة من مذكرته لملك بروسيا؛ وقد لقي «ليست» تشجيعًا من دي بنسين سفير بروسيا في لندن بل ومن بعض الدوائر البريطانية أيضًا، ولكن بيل لم يقبل الفكرة، وهكذا رجع ليست إلى ألمانيا في الخريف مهدم الصحة.. محطم الروح المعنوية، وعلى حافة المرحلة التي أدت إلى انتحاره الذي حدث في الثلاثين من نوفمبر عام ١٨٤٦[١].

---

(١) راجع من أجل هذه الرحلة كتاب هيرست ص ٩٧ – ١٠٦، أما عن المذكرة الخاصة بالحلف المقترح والتي ستناقش في الفقرات التالية فيرجع إلى المؤلفات التي ورد ذكرها في الهامش رقم (٨٣).

والواقع أنه توجد في مذكرة «ليست» بعض الأخيلة والتصورات في تقدير قيمة وظروف الحلف الإنجليزي / الألماني، ولكن ما من شك في أن هذه المذكرة توضح تفهمًا دقيقًا للحقائق الاستراتيجية التي كانت تواجه كلتا الدولتين في منتصف القرن التاسع عشر؛ وكبداية لإيضاح هذا فإن ليست قد تنبأ بما وصل إليه السير هاليفورد ماكيندر(*) بعد أكثر من نصف قرن من الزمان من أنه ليس للسيادة البحرية التي لبريطانيا كيان أبدي؛ كما فكر في أن تطور استخدام البخار في الخطوط الحديدية وفي السفن البحرية قد يعطي دول القارة الكثير من النفع بالنسبة للجزر البريطانية التي لم تكن تملك إذ ذاك شيئًا من هذا، كما قدر أن القوى المشرقة للأمم الأخرى وعلى الأخص الولايات المتحدة أنها يكمن في أعطافها ما يدل على أن السيطرة على البحار قد تكون موضع تهديد، وأنه بدون السيطرة على البحار لن يكون هذا النفع الذي تتمتع به بريطانيا بسبب موقعها البحري مستطاعًا في يسر. وقد تنبأ «ليست» أيضًا بأن الاتحاد بين الشعوب اللاتينية والسلاڤية عن طريق حلف فرنسي / روسي، وآمن بأن بريطانيا وألمانيا يجب أن تعملا للموازنة ضد مثل

(*) ما كيندر ... سير هيلفورد جون ما كيندر (١٨٦١ – ١٩٤٧) جغرافي تعلم في إكسفورد، اقترح في عام ١٨٩٥ إنشاء جامعة لدراسة الجغرافيا الطبيعية والبشرية وقد ووفق على اقتراحه وأنشئت الجامعة في إكسفورد بعد عدة أعوام وفي عام ١٨٩٩ قاد رحلة كشفية إلى جبال كينيا ووصل إلى قمة "باتيان" على ارتفاع ١٧٠٠٠ قدم من سطح البحر، تولى تدريس علم الجغرافيا في جامعة لندن ثم تولى رياسة مدرسة العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن أشهر مؤلفاته "وادي الراين وتاريخه" نشرت سنة ١٩٠٨، ثم ثماني محاضرات عن الهند سنة ١٩٠٠.

وأهم أعمال ماكيندر هي نظرياته في علم "الجيوبوليتيكس" سياسة الكرة الأرضية، ولعله هو الذي أوجد هذا العلم وإن كان خير من انتفع به وزاد من نطاق دراسته هو الجنرال كارل هوزهوفر الألماني. E. Encycl. Vol. ٨ pp. ٦٤٧ (المترجم).

هذا الارتباط بأن تتوليا قيادة الشعوب الألمانية.

وكان ليست يؤمن بأن القوة المتحدة والتي تكونها روسيا وفرنسا معًا ليس فقط ستهدد مصالح بريطانيا في أوروبا والشرق، بل وأنها على التأكيد ستدمر ألمانيا، ولكن باتحاد ألمانيا وبريطانيا معًا ستستطيع بريطانيا أن تنتفع بقوة برية في القارة، كما أن ألمانيا سترحب بالإمدادات التي تجيئها من قوة ساحلية بحرية؛ وكل ما تطلبه ألمانيا من بريطانيا هو أن تتفهم مصالحها وأن تعاونها في فرض ضريبة معتدلة وقائية لحماية ألمانيا المتحدة الأمر الذي بدا لليست أنه ثمن صغير تدفعه بريطانيا من أجل الصداقة الألمانية وإذا كان هذا سيقاوم من أصحاب رءوس الأموال التي تستغل في الصناعة الإنجليزية؛ فمن الضروري أن تدرك بريطانيا حقيقة أهم وأكبر، وهي أن مركزها كقوة عالمية سيدعم ويقوى بل ويمتد.

ولكن «ليست» أخفق فيما أخفق فيه كثيرون، ولم يستطع أن يجد الصيغة التي تمكن من الوصول إلى تسطير ارتباط إنجليزي / ألماني؛ ***والواقع*** أنه سواء أكان للخير أم للشر، وللنفع أم للضرر؛ فإنه لم يكن هناك من سبيل للاتفاق والتفاهم بين الدولتين على مصالح مشتركة بينهما، فضلًا عن وجود الكثير من العوامل المعنوية والنفسية التي كانت تسد طريق أي تفاهم تعاوني بينهما.

ويرجع إخفاق ليست أيضًا إلى أنه لم يكن ليستطيع في أشهر قليلة أن يزيل الضرر الذي سببه هو في أعوام بالدعاية المستمرة ضد بريطانيا.

***

[٨]

على أن الشيء الوحيد الذي أسهم به «ليست» في الاستراتيجية الحديثة كان مناقشته لتأثير السكك الحديدية على تنقلات القوات العسكرية، وقد اتجه عن رغبة إلى دراسة موضوعات السكك الحديدية أثناء إقامته في أمريكا عندما كان واحدًا من الذين نظموا شركة (شولكيل) للملاحة والخطوط الحديدية والفحم(*) والتي كانت محاولة سابقة للتنظيم الحالي في ريدن(**)، ثم كانت الخطوط الحديدية بعد هذا واحدة من هواياته التي شغف بها في حياته.

وتملأ كتاباته عن السكك الحديدية مجلدين كاملين وما يقرب من صفحتين كاملتين من ملحق المجلد الكبير الذي جمع أعماله، وفي السنتين ١٨٣٥ و ١٨٣٦ أصدر جريدة «السكك الحديدية» والتي وقَّفها للحديث عن إنشاء الخطوط الحديدية في ألمانيا، ولم يقم بجهد في أي أمر آخر كما قام في موضوع الخطوط الحديدية الألمانية ذلك لأنه رأى ـ وكان مصيبًا في رأيه ـ أن شبكة الخطوط الحديدية التي تتجمع في تنظيم أهلي ستكون واحدة من القوى التي تدعم الوحدة الألمانية.

وكان من الضروري توقع عناية «ليست» بالتأثير الاقتصادي للسكك

(*) شولكيل ... نهر في جنوب شرق بنسلفانيا طوله ١٣٠ ميلاً ويصب في نهر دلوار عند فيلاديلفيا وقد أطلق اسم النهر على الشركة حال إنشائها.

(**) ريدن وتُكتب Reading مدينة في جنوب شرق بنسلفانيا يبلغ سكانها ١٠٩٠٠٠ نسمة – وتشتهر بخطوطها الحديدية والملاحية التي تتولاها شركة خاصة. «معجم ويبستر طبع ماكميلان ١٩٥٦ ص ١٣٠٥ و ١٤٠٩ على التوالي» (المترجم).

الحديدية، ومع أنه كان أصدق تقديرًا من كل معاصريه في هذا، إلا أن الذي يثير الدهشة هو تفهمه العميق للتأثير الاستراتيچي الذي سيكون لها، فقبل استخدام السكك الحديدية كان موقف ألمانيا الاستراتيچي أضعف المواقف في قارة أوروبا، وتبعًا لهذا كانت هي ميدان القتال التقليدي لأوروبا، وقد رأى «ليست» قبل أي فرد آخر أن الخطوط الحديدية هي التي ستعدل من هذا، وستجعل من موقع ألمانيا الجغرافي مصدر قوة بدلًا من كونه العامل الأساسي لضعفها العسكري، فسيمكن جعل ألمانيا موقعًا دفاعيًّا قويًّا في قلب القارة، وستكون سرعة التعبئة وسرعة نقل الجنود من منتصف ألمانيا إلى أي منطقة على حدودها المختلفة ذات فائدة نسبية كبيرة لألمانيا أكثر مما لأي دولة أوروبية أخرى، هذا فضلًا عما للخطوط الداخلية من نفع كبير.

وقد كتب «ليست» أن شبكة جديدة من الخطوط الحديدية ستحول كل أرض ألمانيا إلى حصن قوي كبير يمكن الدفاع عنه بواسطة الكتلة البشرية التي تعيش فيها بأقل نفقات وبأقل اضطراب للحياة الاقتصادية في البلاد، وسيمكن عندما تنتهي المعركة إعادة الجنود إلى بلادهم بذات السهولة؛ ولكل هذه الأسباب وغيرها رأى «ليست» أن شبكة الخطوط الحديدية التي قدرها لألمانيا في عام ١٨٣٣ ـ والتي هي سكك الحديد الحكومية في ألمانيا اليوم ـ ستمكن جيش ألمانيا المتحدة في حالة الغزو من الانتقال من أي نقطة في داخل البلاد إلى أي نقطة أخرى على الحدود بسرعة تيسر من مضاعفة الإمكانيات الدفاعية للدولة، وبذلك يمكن وقف عمليات الغزو المستمرة منذ مائتي سنة.

وإذا كان هذا سيجعل ألمانيا أقوى عشر مرات في الدفاع فسيجعلها أيضًا أقوى عشر مرات في الهجوم لو قامت بحرب هجومية، وإن كان «ليست»

قد ظن بأن هذه الحرب الهجومية غير متوقعة من جانب ألمانيا[١].

وكانت في كتابات «ليست» إشارة لأهمية إنشاء الخطوط الحديدية في ألمانيا فيقول: «إن كل ميل من الخطوط الحديدية تمده قبلنا أي دولة مجاورة يعطيها أفضلية علينا» ذلك لأنه «من الضروري أن تقرر بسرعة ما إذا كنا سنستخدم الأسلحة الدفاعية التي جاءتنا عن طريق التقدم الفني المتواصل أم نظل كما نحن، وذلك كما ترك لآبائنا الأولين ليقرروا ما إذا كانوا سيستخدمون البنادق أم يبقون على تسليحهم بالقوس والسهم»[٢].

فإذا قدرنا أن هذا كله قد كتب قبل أن تقدم لنا الحرب الأهلية الأمريكية الدليل القوي على أهمية الخطوط الحديدية، وضح لنا مدى دراية «ليست» بالكثير من المسائل الهامة قبل أن تبدو واضحة لكل فرد.

ولكن «ليست» كان مخطئًا عندما ظن أن الخطوط الحديدية ستمكن الدول الأوروبية من أن تخفض أحجام جيوشها، فعلى النقيض من هذا، كما أوضحت الحرب الفرنسية ـ الألمانية فيما بعد، يسرت الخطوط الحديدية كل المشكلات العسكرية للإمدادات والتموين، ومكنت من تحرك جيوش كبيرة

(١) لإيضاح التخطيط لعام ١٨٣٣ راجع «نظام السكك الحديد السكونية كأساس للسكك الحديد الألمانية بوجه عام "مجموعة الأعمال المُجلد الثالث جزء ١ ص ١٥٥ - ١٥٩" أما الحديث عن النظرية الاستراتيجية العامة للخطوط الحديدية فيرجع إليها في "السكك الحديدية الألمانية وعلاقتها بالشئون الحربية" ذات المرجع ص ٢٦٠ – ٢٧٠، وقد كتب «ليست» هذا البحث الأخير بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٣٦».

انظر: "Uber ein sachsisches Eisenbahnsystem als Grundlage eines allegmeinen deutschen Eisenbahnsystem". أما عن النظرية الاستراتيجية العامة للسكك الحديدية فيرجع إلى: "Deutschlands Eisenbahnsystem in militarischer Beziehung". ص ٢٦٠ – ٢٧٠ وقد كتب البحث الأخير في عام ١٨٣٤ – ١٨٣٦.

(٢) السكك الحديد الألمانية ... ذات المرجع ص ٢٦٦ – ٢٦٨.

العدد بما تحمل من كميات كبيرة من الذخائر مما لم يمكن لأي فرد فيما قبل أن يصدقه أو حتى يظنه مستطاعًا.

وكان ليست أيضًا مخطئًا في تفكيره بأن إنشاء الخطوط الحديدية سيجعل «العمليات الهجومية» غالية الثمن، وأن خطر الحرب سيقل بسبب هذا.

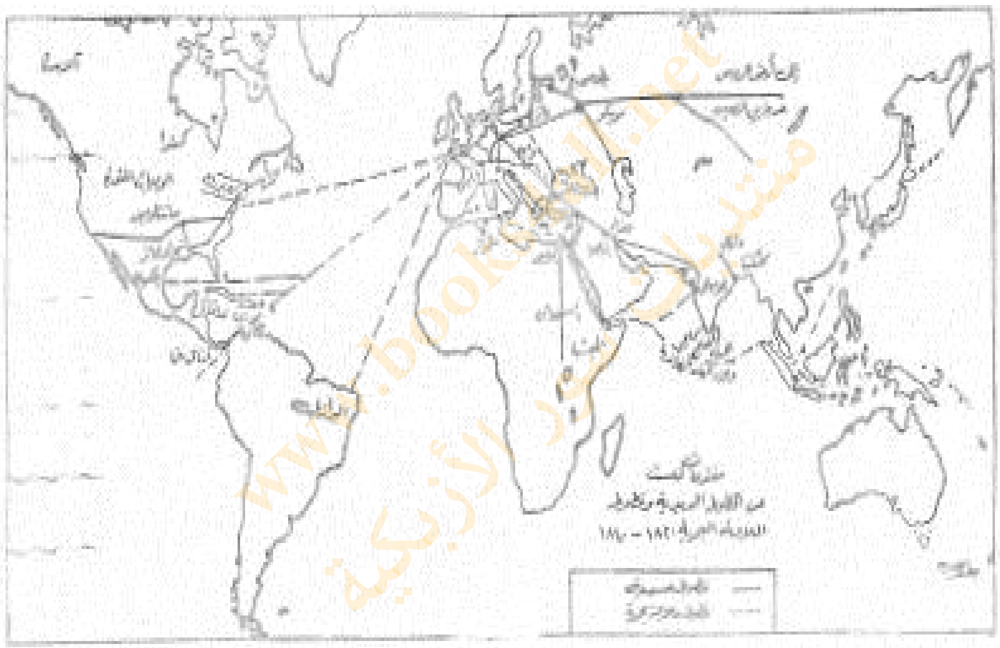
ولكنه كان على حق في تأكيده أن الخطوط الحديدية أقل تعرضًا للتدمير الحربي بالنسبة لما يلحق المنشآت العسكرية الدائمة، وهذه حقيقة قد أكدت منها عمليات التدمير الجوي التي قام بها الألمان في انجلترا، والعمليات الجوية التي قام بها الإنجليز والأمريكان في قارة أوروبا طوال الحرب العالمية الثانية(١).

على أنه حتى قبل أن يكون لألمانيا نفسها شبكة من الخطوط الحديدية كانت أحلام «ليست» قد سارت به شوطًا بعيدًا إلى ما وراء حدود ألمانيا متعمقًا في قلب باقي قارة أوروبا بل وفي آسيا.

والواقع أن «ليست» على ما يبدو كان هو صاحب فكرة الخط الحديدي إلى بغداد، وفي مشروعه للحلف البريطاني / الألماني اقترح أن تدعم مواصلات بريطانيا إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة خطوط حديدية تمتد من القنال الإنجليزي إلى بحر العرب؛ وقد كتب أن النيل والبحر الأحمر يمكن أن يكونا قريبين جدًّا من الجزر البريطانية كما كان الرين والألب في عصر نابليون، وأن يكون الطريق إلى بومباي وكلكتا سهلًا ميسورًا كالطريق إلى لشبونة وقادس، ويمكن أن يتم هذا بمد شبكة الخطوط الحديدية

(١) بالإضافة إلى ما سبق ذكره راجع أيضاً «سكك حديد حكومة فرنسا بوجهٍ عام» - ذات المرجع المجلد الثالث الجزء الثاني ص ٥٦٤، ٥٦٧.

Uber ein allgemeines Eisenbahnsystem in Frankreich.



مقترحات ليست عن الخطوط الحديدية
وخطوط الملاحة البحرية ١٨٢٠ - ١٨٤٠

البلچيكية الألمانية إلى البندقية ثم عن طريق البلقان والأناضول إلى وادي الفرات والخليج الفارسي وتنتهي إلى بومباي، وأن يتجه خط فرعي سوري ليربط الخط الرئيسي مع القاهرة والسودان، وعلى أن يسير خط للمواصلات البرقية ملاصقًا للخط الحديدي وبذلك يكون «دوانج ستريت» «مركز رئيس الوزارة البريطانية» على اتصال مباشر بجزر الهند الشرقية كما يتصل بجزر چيرسي وچورنسي في القنال الإنجليزي.

وقد صور «ليست» أيضًا مشروع إنشاء الخط الحديدي عبر قارة آسيا إلى الصين[١].

والواقع أنه لم يظهر في هذه المشروعات ما يمكن أن يعتبره «ليست» مخاطرة، أو أنه واسع الأطماع، وكانت كل هذه المشروعات في تقديره مثلها مثل المشروعات التي كانت تناقش في ذات الوقت في أمريكا لمدِّ الخطوط الحديدية من ساحل المحيط الأطلنطي إلى ساحل المحيط الهادي.

وكان من رأي ليست أنه لضمان الأمن السياسي للأراضي التي ستمر عبرها هذه الخطوط الحديدية المقترحة يجب أن تشترك ألمانيا وبريطانيا في تحالف إيجابي موضحتين مناطق مصالحهما، كما أن امتداد حكم ألمانيا إلى كل تركية أوروبا سيمنع تدخل أي دولة معادية للإمبراطورية البريطانية «لتعطيل مواصلات بريطانيا مع الهند والشرق الأقصى»؛ وفي ذات الأسلوب الفضفاض الذي كان «ليست» يتحدث به دائمًا أردف قائلًا: «وإن الملايين السبعين أو الثمانين من الألمان سيمكنون من ضمان هذا الموقف، وعلى بريطانيا من جانب آخر أن تسيطر على كل آسيا الصغرى ومصر

(١) راجع مصورة مُقترحات ليست.

ووسط آسيا والهند، وهذه كلها منطقة فسيحة أكثر من أن توازن التهديد الذي ستجيء به قوة العالم الأمريكي»(١).

وكان اقتراح «ليست» لسيطرة ألمانيا على تركية أوروبا يرتبط بالطبع برغبته في رؤية هجرة واسعة المدى إلى مناطق الدانوب والبلقان، وبلا شك أن كل خططه من أجل إنشاء الخطوط الحديدية كانت إلى حد ما مرتبطة بآماله في ألمانيا الكبرى الموحدة وقد كتب عن هذا: «أن شبكة الخطوط الحديدية والضرائب الجمركية هما التوأمان السياحيان يولدان معًا ويرتبطان وثيقًا بروح واحدة، ويدعم كل منهما الآخر، ويتجهان إلى ذات الهدف العظيم ألا وهو توحيد القبائل الألمانية في أمة ألمانية قوية موفورة الثروة، ولا يمكن بدون الضرائب الجمركية حتى مناقشة الخطوط الحديدية الألمانية فضلًا عن إنشائها، وسيمكن بمعاونة الخطوط الحديدية الألمانية وحدها أن يتقدم الاقتصاد الاجتماعي للألمان إلى الذروة، وعن طريق هذه العظمة الأهلية وحدها يمكن لشبكة الخطوط الحديدية أن تحقق إمكانياتها كاملة»(٢).

***

(١) لمناقشة مشروع الخط الحديدي إلى الهند راجع «عن الحلف بين بريطانيا العظمى وألمانيا» - "الأعمال" المُجلد السابع ص ٢٨٧ – ٢٩٨.
أما عن تفاصيل طريق الأستانة – بغداد – البصرة – بومباي، فيرجع إلى (الأعمال) المُجلد الثالث الجزء الثاني ص ٦٧٩، فقط يُلاحظ أن سكان الإمبراطورية الألمانية لم يقترب تعدادهم من سبعين مليوناً إلا في فجر الحرب العالمية الأولى.

(٢) راجع «الخطوط الحديدية الألمانية» - «الأعمال» المُجلد الثالث الجزء الأول ص ٣٤٧، أما فيما يختص بامتداد الخطوط الحديدية إلى الدانوب فيرجع إلى «تحسين وسائل النقل في بلاد المجر» نفس المرجع ص ٤٣٤ – ٤٦٠.

[٩]

وعندما مات «ليست» في عام ١٨٤٦ كان القليل من الاتجاهات التي قضى حياته يعمل لها قد أوشك أن يدرك نصيبًا من النجاح.

كانت بريطانيا قد ألغت (قوانين القمح)، وكانت الولايات المتحدة قد بدأت تنفيذ تعريفة ووكر الجمركية ـ راجع هامش صفحة ... عن الرسوم الجمركية لعام ١٨٤٦ـ، وكان هذا يعدل من مبادئ السياسة الوقائية، كما أنه بلا شك خطوة نحو حرية التجارة، وكانت الصناعة قد تقدمت ببطء في ألمانيا، وكانت شبكة الخطوط الحديدية موجودة فقط على الورق، وكانت السياسة التحفظية الانفصالية لا تزال تحكم منطقة شرق الرين، وكنتيجة لهذا كله فإن وحدة ألمانيا لم تكن قريبة المنال، وقد حمل «ليست» معه إلى العالم الآخر نظرياته في الضرائب الجمركية تاركًا للمؤرخين أن يقدروا أهميتها في إيجاد ما سمي بعد هذا بالإمبراطورية الألمانية.

ولكن لاشك أيضًا في أن روح «ليست» لبثت تشق طريقها، الطريق الذي سار فيه الرجل نفسه في حياته، فبعد موته بعامين اثنين كانت الحركات الثورية تجتاح ألمانيا، وكان هذا ميلاد الأمل بأن الشعب الألماني سيكون دولة أهلية تحت إدارة متحررة، وهو أمر كان «ليست» يرحب به من كل قلبه؛ ذلك لأنه كان مؤمنًا بحكومة دستورية حرة من الطبقة الوسطى مع ضمانات كافية لحرية الأفراد.

ولكن ثورة عام ١٨٤٨ أخفقت وأفسحت الطريق لسياسة الدم والحديد، «فإن الكثيرين من المواطنين الألمان الذين لهم طابعهم التحفظي

والتقليدي قد تقبلوا تعاليم «ليست» الاقتصادية وإن كانوا في ذات الوقت قد رفضوا نصائحه السياسية «عن التحرر وحقوق الفرد»، كما أن عددًا كبيرًا من رجال الصناعة الألمانية ـ بغض النظر عن الآراء القومية أو السياسية ـ قدروا ما لمسوه في برنامج «ليست» من توافر وسيلة مخففة لمتاعب المنافسة البريطانية، أما أولئك الذين تقدمت بهم السن من الجيل التالي وعاشوا في وقت ازداد فيه تمجيد القومية فإنهم اتجهوا تدريجيًّا لتقبل كل الآراء التي جادل «ليست» من أجلها طويلًا، وفي عام ١٨٨٠ كانت الحكومة الألمانية تحت القيادة الاسمية لبسمارك تسير بقدم ثابتة في الطريق الاقتصادي الذي أضاءه فردريك ليست[١].

والحقيقة: أن بسمارك وخلفاءه قد ساروا إلى أبعد مما كان «ليست» يمكن أن يسير في اتجاه القومية الاقتصادية والكفاية الاقتصادية الذاتية كسياسة أهلية لألمانيا، لقد كان «ليست» يعارض دائمًا فرض رسوم على الواردات من المواد الغذائية؛ ولكن النظام الجمركي الألماني في تطوره طوال حكم الإمبراطورية استهدف في صورة عامة حماية «اليونكرز» ملاك الأراضي ورجال الصناعة، الذين كانوا يقفون جنبًا إلى جنب متعاونين في الاقتصاد القومي وفي سياسة الجندية والبحرية والاستعمار، ولربما كان «ليست» قد فكر في فرض رسوم جمركية على الحبوب، ولكن من الصعب أنه كان يعترض على روح وأغراض خطاب المستشار كابريفي في مجلس الريشستاغ في العاشر من ديسمبر عام ١٨٩١ عندما قال:

إن كيان الدولة ووجودها سيكونان في خطر عندما لا تكون في موقف

(١) C. J. Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York ١٩٣١) pp. ٢٧٢ – ٢٧٣.

يمكّنها من الاعتماد على مواد تموينها الخاصة، واعتقادي القوي هو أننا لا نستطيع الحياة دون أن ننتج من القمح ما يكون كافيًا عند الطوارئ، أي في حال الحرب، لإطعام سكاننا الذين يتزايدون، وأؤمن بأن السياسة الحكيمة لألمانيا هي أن تعتمد على زراعتها الخاصة أكثر من اعتمادها على تقديرات غير موثوق بها لمعاونات من طرف ثالث في حالة الحرب. إن اعتقادي الذي لا أتردد في التمسك به هو أنه في حال أي حرب مقبلة ستلعب تغذية الجيش والأهلين دورًا حاسمًا مهمًّا»(١).

وقد وضع الكثير من اتجاهات السياسة الاقتصادية للرايخ الثاني(*) على أساس الحقيقة التي لا شك فيها وهي: أنه إن قريبًا أو بعيدًا ستشتبك ألمانيا في حرب لتدافع عن كيانها ولتكسب لها مكانًا بارزًا تحت الشمس. ولتتأهب لمثل هذا الحادث آمن الساسة الألمان بأنهم يجب أن يعتمدوا على قوة ألمانيا الموروثة أكثر من اعتمادهم على النوايا الطيبة لجيرانهم، وأكبر من اعتمادهم على مواصلاتهم غير المؤكدة مع ما وراء البحار.. وقد يكون سياسيو عصر القيصر قد أجرموا بتغيير طابع وصورة بعض آراء «ليست»، ولكن لو كان «ليست» قد عاش لكان قد تفهم تمامًا اللغة التي يتحدثون بها، ولكان قد

---

(١) W. H. Dawson The Evolution of Modern Germany. و. هـ. داوسون (تطور ألمانيا الحديثة) طبع نيويورك ١٩٠٨ ص ٢٤٨.

(*) يقسم التاريخ لألمانيا (الرايخ) كما يلي:
(الرايخ الأول) الإمبراطورية الرومانية المُقدسة منذ إنشائها في القرن التاسع الميلادي إلى انتهائها في عام ١٨٠٦، (الرايخ الثاني) عصر الإمبراطورية الألمانية من عام ١٨٧١ إلى ١٩١٩ ثم (جمهورية ويمار) وهي الجمهورية الألمانية من ١٩١٩ إلى ١٩٣٣، (الرايخ الثالث) الدولة الألمانية من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥، مُعجم ويبستر طبع ماكميلان لعام ١٩٥٦، ص ١٢٢٥ – ١٢٢٦.

تفهم أيضًا دوافع الكفاية الذاتية التي كانت هدف سياسة الاقتصاديات العسكرية التي اتبعها النازيون، وإن كان بلا شك قد عارض إغفال هتلر لحقوق الإنسان.

ومن سوء الجد أيضًا أن «ليست» قد وضع الأساس لبعض الأفكار الرئيسة في العقيدة الألمانية وفي الاشتراكية القومية مثل: «المجال الحيوي» ، «الاتساع الاستعماري»، «عدم أبدية الحدود»، «ارتباط الألمان المغتربين بوطنهم الأصلي في ألمانيا»، «الرغبة في تكوين كتلة في قارة أوروبا ضد القوة الأمريكية/ الإنجليزية».

لقد كان ليست كهاملتون صورة بارزة في ميدان العمل لإحياء سياسة التجارة في العصر الحديث، ومهما كانت فضائل هذه السياسة «سياسة التجارة» ـ في القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ فإن الصورة الحديثة لها تعتبر قوة ملتهبة في عالم قابل بدرجة كبيرة للاشتعال والانفجار.

إن السياسة التجارية الحديثة أكثر خطورة من سابقتها؛ ذلك لأنها تعمل في مجتمعنا الأكثر تنظيمًا والأوفق ارتباطًا وتشابكًا، إنها الخيوط المتشابكة التي تكون الحرب وتعمل لها إلى حد كان من الضروري أن يخجل أصحاب هذه السياسة من القدامى، لقد جندت (قوة الدولة) لزيادة قيمة وإيضاح بهاء ورونق (دولة القوة)، ولقد قويت كل الآراء والنظريات القديمة ودعمت بآراء ونظريات جديدة مستحدثة؛ وهكذا عرف العالم «المقاطعة»، «تحديد الأنصبة في التعامل»، «الكوتة»، «رقابة النقد»، «تحديد التموين بالبطاقات»، «تخزين المواد الخام ومنع تصديرها»، ثم «المنح المالية التي تعطى لدولة ما لتشتبك في الحرب ضد دولة أو مجموعة أخرى من الدول».

وتبعًا للاتجاه الاقتصادي القومي في الخمسين سنة التي بدأت عام ١٨٧٠ جاءت صور جديدة إلى العالم «الاقتصاد الجماعي المطلق»، «الحكومة المطلقة»، «الحرب الشاملة»، وقد جاءت كل هذه الصور متشابكة بعضها ببعض إلى حد أنه من المحال معرفة ماذا هو السبب؟ وماذا هو التأثير؟ فباسم الأمن الأهلي امتدت السلطة السياسية إلى كل نواحي النشاط البشري[١].

وكنتيجة لا يمكن تجنبها جاء انفجار عام ١٩١٤ وانفجار عام ١٩٣٩ ، ويستطيع الفرد أن يتفهم هذا فقط عندما يرجع إلى فكرة القوة في أوروبا في القرن التاسع عشر.

إن تفكير آدم سمث وألكسندر هاملتون وفردريك ليست كان يقوم على أساس حقيقة أنهم كانوا على التوالي (إنجليزي) ، (أمريكي) ، (ألماني) ، ولكن من المدهش أن آراءهم تتفق وتتماثل في بعض النقاط الأساسية من صناعة الحكم، لقد فهموا جميعًا أن القوة العسكرية تبنى على أسس اقتصادية، وقد وقف كل منهم في جانب تنظيم اقتصادي يواجه احتياجات وطنه أكثر من أي نظام آخر؛ ولكن إذا كان العالم قد وصل إلى ما وصل إليه نتيجة للسياسة التجارية الحديثة فإن هذا ليس من الضروري أن يكون خطأهم لأنه ما دامت الأمم ستظل تضع كل إيمانها في قومية غير محدودة

(١) انظر: E. M. Earle “The New Mercantilism” Political Science Quarterly’ XL (١٩٢٥) ٥٩٤ – ٦٠٠.

كما يرجع إلى: A. T. Lauterbach, Economics in Uniform: Military Economy and Social Structure

طبع برنسيتون عام ١٩٤٣ وعلى الأخص الفصول من الأول إلى الرابع.

وسيادة غير مقيدة فإنها ستظل تعتمد على تدابير تكون في رأيها هي أفضل ضمان لاستقلالها وأمنها.

***

في التعريف بالمراجع:

الفصل السادس

آدم سمث ـ ألكسندر هاملتون ـ فردريك ليست

الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية

إدورد ميد إيرل

نقلت المصورة التي في هذا الفصل عن كتاب «فردريك ليست» بقلم فردريك لينز طبع ميونخ وبرلين ١٩٣٦ .

أما عن «سياسة التجارة» فتتعدد المراجع، فيرجع بعضها إلى عام ١٨٩٦، كما أن أحدثها صدر في عام ١٩٤٢ ، وتقدم المراجع كلها مادة طيبة في هذا الموضوع.. وأهمها:

❊ N. Hechscher, Eli F. “Merkantilism”.

طبع ستوكهولم عام ١٩٣١ ، وقد ترجمه شابيرو إلى الإنجليزية وصدر في مجلدين طبع لندن عام ١٩٣٥ووسم بعنوان:

❊ “Mercantilism” Horrocks, J. W.

❊ “A Short History of Mercantilism”.

❊ Schmoller, Gustav “The Mercantile system and its Historical

Significance”

ترجمة و. ج. آشلي طبع لندن ونيويورك عام ١٨٩٦.

❋Viner, Jacob “English Theories of Foreign Trade Before Adam Smith”

في مجلة «الاقتصاد السياسي» المجلد الثامن والثلاثين لعام ١٩٣٩ . الصفحات ٢٤٩ ـ ٣٠١ و ٤٠٤ ـ ٤٥٧ ، ثم كتاب:

❋Cole C. W .“Colbert and Century of French Mercantilism”.

طبع نيويورك عام ١٩٣٩ .

❋❋❋

وتوجد كذلك مجموعة طيبة من كتابات آدم سمث أو في التأريخ لحياة الرجل ونظرياته أهمها:

Smith Adam:

(١) An Inquiry into The Nature and Causes of the Wealth of Nation (١٧٧٦).

(٢) Lectures on Justice, Police, Revenue and Arms (١٨٩٦).

(٣) The Theory of Moral Sentiments.

على أنه مع تعدد الطبعات للكتابين الأول والثاني فإن أفضل هذه الطبعات هو ما قدمه إدوين كانان، وتوجد للكتاب الأول طبعة ضمن سلسلة مجموعات المكتبة الحديثة.

أما في التأريخ لحياة آدم سمث فيمكن الرجوع إلى:

❋ Rae, John “Life of Adam Smith”.

طبع لندن ١٨٩٥ وتعتبر هذه أفضل دراسة للرجل، وإن كانت أفضل دراسة تعليقية هي التي كتبها ج. م. كلارك وآخرون، ووسمت بعنوان:

❊ "Adam Smith" ١٧٧٦ ـ ١٩٢٦.

طبع شيكاغو عام ١٩٢٨؛ كما توجد بعض محاضرات عن كتاب آدم سمث توضح وجهات النظر الألمانية بقلم أ. أونكن، وسمت بعنوان:

❊ "Adam Smith in der Kulturgeschichte"

طبع ڤيينا لعام ١٨٧٤ .

وتعتبر الطبعة التي صدرت لمجموعة أعمال ألكسندر هاملتون في نيويورك عام ١٩٠٤ في اثني عشر مجلدًا بتقديم هنري كابوت لودج أحسن مورد للمعلومات عن ألكسندر هاملتون، كما توجد دراسات عدة جيدة في التأريخ للرجل أهمها:

❊ Makee, Samuel "Papers on Public Credit, Commerce and Finance by Alexander Hamilton"

طبع نيويورك عام ١٩٣٤.

❊ Culbertson W. s ."Alexander Hamilton"

طبع نيو هاڤن ١٩١١ .

❊ Sumner W. G ."Alexander Hamilton".

طبع نيويورك ١٨٩٠ .

والأول يقف إلى جانب هاملتون مدافعًا عنه، على حين يقف الثاني في

الجانب المعارض، كما توجد دراسة قيمة بالإيطالية من قلم أوجو رابينو طبع ميلان عام ١٨٩٣ وسمت بعنوان:

❊ Protezionismo Americano: Saggi Storici di Politica Commerciale.

ونشرت ترجمة للكتاب بالإنجليزية طبع لندن عام ١٨٩٥ وسمت بعنوان:

❊ American Commercial Policy.

ويعتبر الفصل الأول من القسم الثالث أصدق نقد عام كتب عن هاملتون.

وقد تعاونت الأكاديمية الألمانية مع Fredrick Liet Gesellsoctaft في طبع كل ما كتب فردريك ليست في مجموعة واحدة من تسعة مجلدات مع مجلد عاشر يجمع كل ملاحق الكتاب، وصدرت هذه المجموعة طبع برلين ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ وقد عنونت Schriften, Reden, Briefe، وتتضمن هذه المجموعة كل ما كتبه «ليست» بما في هذا بعض الدراسات التي لم يكن قد أمكن الحصول عليها فيما قبل.

وتعتبر ترجمة س. س. لويد لكتاب «النظام القومي في الاقتصاد السياسي» والتي كتب مقدمتها ج. س. نيكولسون طبع لندن عام ١٩٠٤ أحسن طبعة بالإنجليزية لهذا الكتاب؛ ويمكن أن نجد التأريخ لحياة «ليست» في الدراسات الافتتاحية لكل من مجلدات مجموعة كتاباته، كما نجد هذا أيضًا في مؤلفات عدة بالألمانية، وأهمها:

❊ Hausser, L .“Fredrick Lists Gesammke Schriften”

طبع ستوتاجارت ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ في ثلاثة مجلدات.

❊ Jentsch, Karl "Friedrich List"

طبع برلين ١٩١٠ .

❊ Lenz, Friedrich "Friedrich List, der Mann und des Work"

طبع ميونيخ وبرلين ١٩٣٦ .

أما عن حياة ودراسات فردريك ليست في أمريكا فتوجد طائفة من المراجع المتباينة الصور ومن أفضلها:

Notz, William "Friedrich List in Amerika"

Wiltwirtrschaftliches Archiv

أبريل ـ يوليو ١٩٢٥ ، الصفحات من ١٩٩ ـ ٢٩٣ ، كما ظهر للمؤلف نفسه دراسة أخرى إضافية في مجلة الاقتصاد الأمريكية بالعنوان نفسه في المجلد السادس عشر لعام ١٩٢٦ الصفحات ٢٤٩ ـ ٢٦٥ .

ويوجد كتاب قيم في هذا الحديث من قلم مرجريت هيرست طبع نيويورك ولندن عام ١٩٠٩ وسم بعنوان:

Life of Friedrich List and Sections from Some of his Writings

أما عن السياسة التجارية في تطورها الحديث وصورتها المستحدثة فيرجع إلى:

❊ Hayes, C.J.H "A Generation of Materialism ١٨٧١–١٩٠٠".

طبع نيويورك ١٩٤١ . الفصل الخامس.

❊ Marchand J. "La renaissance du mercantilism a l'époque contemporaine".

طبع باريس ١٩٣٧ .

هذا وقد آثرت في هذا التعريف تقديم عنوان كل من المؤلفات التي عرضت لها بالدرس باللغة التي صدر بها؛ وذلك ليسهل الحصول عليه لمن يريد الاستزادة من البحث.

***

الفصل السابع

آنجلز وماركس

النظريات والآراء العسكرية للثورات الاجتماعية

سيجموند نيومان

كتب كارل ماركس في صدر مقدمته لرسالته «دراسة عن فيرباخ»(*) يقول: «لقد قام الفلاسفة بمحاولة توضيح مجريات الأحوال في العالم بسبل شتى متباينة، ولكن الفكرة الأهم هي محاولة تغيير مجريات الأحوال هذه».

كتب كارل ماركس هذا في عام ١٨٤٥ أي في مطلع حياته الأدبية، وقد

(*) لودڤيج أندريس فيرباخ الابن الرابع لبول انسليم فيرباخ، كان الأب من كبار رجال القانون الجنائي وتولى تدريس القانون في جامعة ڤينا ثم في جامعة كييل وتولى بعد هذا رياسة محكمة النقض، وكان الابن لودڤيج من أعلام الفلاسفة، الألمان، ولد في لاندشوت من أعمال باڤاريا عام ١٨٠٤ وتعلم في جامعة هيدلبرج كان أول مؤلفاته في عام ١٨٣٣ كتاب: "Gedanken uber Tod und Unsterblichkeit" وفي عام ١٨٣٤ نشر كتابه: "Abalard und Heloise" وفي عام ١٨٣٧ تزوج من سيدة ذات ثروة، ومكَّنَه هذا من الانصراف إلى الدراسة فكانت هذه نتيجة أن أصدر كتابه: "Das Wesen des Cghristenums" وترجم الكتاب إلى الإنجدليزية بقلم جورج أليوت ووسم بعنوان «خلاصة الدين»؛ وفي كتابه هذا يتحدث عن الله والإنسان. مما أدى بالبعض إلى مهاجمة فلسفته واتهامه بخلوه من الإيمان أو التقوى، وأحدث المؤلفات عنه الكتاب الذي كتبه ك. بارث عام ١٩٤٣ ووسم بعنوان: "Geschichte der Protestatischen Theologie, seit Shleiermacher" وقد كان فيرباخ أول فيلسوف مادي ينقد فلسفة هيجل E. Stepanova, ،Everyman Encycl. Vol. ٥ pp. ٦٣٥ Karl Marx, ١٩٥٦ pp. ١٣. (المترجم).

لا تعنينا هذه الكلمات من ناحية الحديث عن «فيرباخ» بقدر ما يعنينا أنها في الواقع مفتاح تفهم القوى المختلفة المعنوية والطبيعية التي في النظرية الماركسية، هذه النظرية الموجهة أصلًا نحو العمل الإيجابي التنفيذي، فإن التحليلات النظرية ليست إلا العمل الأولي العنيف الموصل إلى الإعداد للاقتحام الثوري النهائي؛ ذلك لأنه لجعل الثورة العالمية حقيقة واقعة ملموسة تكون الاعتبارات الاستراتيجية مسألة تمهيدية أساسية، ومن أجل هذا عني ماركس وآنجلز بالمشكلات التكتيكية والاعتبارات العسكرية ومنحاها في كتاباتهما عناية مستمرة متواصلة.

والمدهش أن هذا الجانب الهام الحاسم من تعاليمهما قد أغفل عن إهمال في كل الكتابات التي جاءت عن الماركسية، وقد جاء هذا الإغفال جزئيًّا بسبب أن هذا القدر الكبير الذي كتباه عن المشكلات الاستراتيجية قد جاء مبعثرًا في كتاباتهما، بل وحتى لم يجئ الحديث العسكري في أيٍّ من هذه الكتب جملة واحدة تسهل دراسته كما هي الحال في كتاب «رأس المال» ــ الدراسة الأساسية لنظرية ماركس الاقتصادية.

والواقع أننا إذا تركنا ما في هذه الدراسات من صور تاريخية فإن مراسلات ماركس وآنجلز ـ تلك المراسلات التي تبادلاها على عدد من السنين والمليئة بالآراء والنظريات ـ شأنها شأن كتاباتهما الصحفية، تعتبر موردًا له أهميته عندما نحاول القيام بتحليل كامل لماركس وآنجلز كرجلين من رجال الاستراتيجية.

على أن كل هذه الموارد لم يكشف الغطاء عنها تمامًا ولا تزال حتى الآن تنتظر الجمع والترتيب، ومن الضروري استكمال هذا؛ ذلك لأنها على التحقيق تستحق الدراسة العميقة.



كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)

ولكن مع هذا فإن الإغفال التام للاستراتيچية الماركسية لهو نتيجة لا للصعوبات الفنية فحسب بل ولسوء الفهم، أو بسبب الفكرة الخاطئة عن تعاليمها؛ ذلك لأن الآراء الخاصة بالاستراتيچية العسكرية وبالتكتيك تبدو لعقل المراقب السطحي غريبة عن روح هذين المفكرين المتحفظين واللذين كانت سياستهما الواضحة سياسة معادية للآلة العسكرية، وللجماعات العسكرية، وللحكومة العسكرية، واللذين انغمس نظامهما الاجتماعي الواضح المعالم والذي جاء مبكرًا قبل أوانه في هذا الأمد الطويل الذي انقضى في سلم، واللذين كان وضعهما ـ كرجلين خارجين على الدولة ـ لا يشجع على التقدير الواقعي للقوة العسكرية ولا على التخطيط لحملة حربية؛ ومع هذا فمن الخطأ أن ننظر إلى هذين اللذين كانا يلعبان الدور الرئيسي في الصراع الدولي للطبقات على أنهما يميلان للسلم، وأنهما مثاليان غير واقعيي التفكير، بل إن تجديد الانتباه إلى هذه الآراء والنظريات العسكرية التي جاءت في النظرية الماركسية الأولية قد يجيء بتصحيح ضروري لوجهات النظر الحالية والمقبولة من وجهة عامة.

لقد حلت «الماركسية» مكان النظرية «الآتوبية»(*) القديمة والتي كانت تستهدف الوصول بالأحوال الاجتماعية والسياسية إلى الكمال، وقد قصدت التعاليم الجديدة أن تكون عملية بدرجة ممتازة وأن تكون «علمًا تطبيقيًّا» في الوقت الذي كانت الأجيال التي جاءت بعدهما متأثرة بالنسيج النظري

(*) جاءت كلمة «آتوبيا» من الأصل الإغريقي Tomos où، وتعني كلمة Utopianism المشروعات التي تستهدف الوصول إلى الكمال في الأحوال السياسية والاجتماعية، راجع كتاب توماس مور «آتوبيا» في مجموعة مكتبة إيڤريمانز، معجم ويبستر ص ١٦٠٥، ودائرة معارف إيڤريبودي المُجلد الثاني عشر ص ٥١٩.

الذي خلفه كارل ماركس وفردريك آنچلز وراءهما أكثر من تأثرها بأي شيء آخر، وقد بدا أن التحليل الصلب الجامد للمشكلات التاريخية كان يلقى تقديرًا متماثلًا من الرجلين اللذين أوجدا «الماركسية».

ويبدو أن هذا الجانب «العملي» من التعاليم الثورية قد اكتسب مظهرًا جديدًا في الوقت الذي استطاعت فيه «القوة السادسة» ـ على ما أسمى آنچلز بافتخار «الاشتراكية الدولية» ـ أن تتبلور تبلورًا محددًا؛ وكانت الاعتبارات الاستراتيچية هي لبُّ النظرية السياسية للتطورات الثورية في منتصف القرن التاسع عشر.

وقد لا يكون من المبالغة أن نقرر أن كتابات ماركس وآنچلز ذات طابع مميز له مكانته في الوقت الذي يبدو فيه طابع القرن العشرين وما يصحبه من مشكلات صناعة الحرب واضحًا كامل التطور.

إن ماركس وآنچلز يمكن أن يسميا بحق والدَي الحرب الشاملة الحديثة، فإن ما قدر طويلًا في تاريخ التنظيم السياسي والسياسة الداخلية ألا وهو «الحزب الاجتماعي» ـ سياسة الحزب الواحد ـ والذي نجد أصوله واضحة في الحركة الاشتراكية قد يمكن أن يطبق أيضًا في ميدان الشئون العسكرية.

وقد كان الكشف الذي يفخر بالوصول إليه الدكتور بلاو الاستراتيچي الاشتراكي، من أن الحرب الحديثة ذات أربعة جوانب تجمع في جملتها طبيعة هذه الحرب، وهذه الجوانب الأربعة هي: الجانب السياسي، الجانب الاقتصادي، الجانب السيكولوچي، وأخيرًا يجيء الجانب العسكري، كان هذا الكشف معروفًا تمامًا لآنچلز وماركس، فقد كانا يدركان أن الحملات العسكرية يمكن أن تفقد وأن تفشل قبل إطلاق الرصاصات الأولى بوقت

طويل، وأن نتائج هذه الحملات يمكن أن تقرر حتى قبل أن تشتبك القوات المسلحة، ويكون هذا التقرير المبكر للنتائج في الجبهات الأولية للقتال، الجبهات التي تقوم على أساس الحرب النفسية والحرب الاقتصادية.

ولاشك أن آنجلز وماركس قد أدركا وتحققا من أن هذه الحرب المتعددة الجبهات إنما هي كتلة واحدة لا تنقسم، وأنها يمكن أن تكسب أو أن تفقد في ميدان المعركة الدولية، كما يمكن أن تكسب أو أن تفقد بنفس الصورة نتيجة للصراع الأهلي في داخل الأمة الواحدة أو حتى في داخلية روح كل فرد متردد من أفراد الأمة، ومما لا شك فيه أيضًا أن «الحرب» و«الثورة» ـ الحركتين اللتين ثبت أنهما توأمان في عصرنا الذي نعيش فيه ـ قد نُظِر إليهما في تاريخ مبكر في ضوء العلاقة الأساسية المستمرة التي تربط بينهما بواسطة هذين الاستراتيجيين المدققين اللذين وضعا التخطيط للثورة العالمية.

وقد أعطتهما مثل هذه النظرات العميقة لدراسة الحوادث مقدرة جديدة لتفهم المسائل العسكرية، وللتفهم العميق أيضًا لطبيعة الثورات الحديثة مما لم يدركه تمامًا أحد من أولئك الذين سبقوهما على الدرب؛ وأن ما أسماه ماركس وآنجلز «النقاش المنطقي»(*) لدراسة نظرية التاريخ إنما كان في الواقع دراسة عميقة للقوى الاجتماعية والسياسية، والدور الكبير الذي لها في العالم الحديث؛ ولكن مثل هذه النظرات المتعمقة في البحث لا تمكن بل وتفصل استحالة اقتطاع الدراسات الخالصة للاستراتيجية العسكرية عن

(*) «فن الاختبار العملي للآراء والأفكار بأسلوب منطقي»، والعادة أن يتم هذا بطريقة الأسئلة والإجابات، وكان أول من استخدم هذا الأسلوب المنطقي هو جورج ويلهلم فردريك هيجل الفيلسوف الألماني (١٧٧٠ – ١٨٣١)، ثم طبقه ماركس في فلسفته المادية. مُعجم ويبستر ص ٤٠٤ و ٦٧٢ (المترجم).

غيرها من كتابات ماركس وآنچلز، فقد كانا يريان أن الحرب يخاض غمارها بوسائل متعددة في ميادين مختلفة، وفي نفس الأسلوب جاء النقابي المقاتل جورج سوريل(*) في عصر متأخر برأيه من أن «الإضراب العام يمكن أن يكون معركة على مثال معارك الحروب النابليونية، وأن «حرب القرم»(**) يمكن أن تعتبر صراعًا مدنيًّا دوليًّا عظيمًا».

فإذا ما أدركنا هذه الطبيعة للاشتراكية الحديثة، الطبيعة النشطة المتأهبة للقتال استطعنا أن ندرك دور كل من قادتها برغم ما قد يكون بينهم من خلاف قليل في الصورة أو تباين في الاتجاه، ولا شك أن فردريك آنچلز يزداد مكانة بحق عندما يقارن بالزعيم الأول كارل ماركس، فإن آنچلز ـ كما أثبتت الدراسات المحققة فيما بعد ـ لم يكتب فقط جزءًا كبيرًا من الدراسات التاريخية التي نسبت إلى ماركس، بل إن الرجل الذي هو «القوة الدافعة للثورة المقبلة»(***) كان له تقديره المبكر الكبير للقوى العاملة في

(*) سوريل «١٨٤٧ - ١٩٢٢» فيلسوف اجتماعي فرنسي ولد في شاربورج تعلم في كلية الهندسة، وعمل مهندساً للجسور ثم ترك عمله عام ١٨٩٢، وبدأ الدراسة وحده لدراسة «الحياة» دون مُعلم، وبدأت اتجاهاته النقابية تتضح بسرعة وكانت له جولات في قضية دريفوس ثم انضم للجناح الفرنسي الأيمن في السياسة الفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى وقد شجع الشيوعية الروسية والفاشية الإيطالية، وله دراسات عدة عن الروح النقابية نشرت سنة ١٨٨٩ ودراسة عن الماركسية نشرت سنة ١٩٠٧. E. Encyc. Vol. II p. ٧٤٧ (المترجم).

(**) حرب القرم(١٨٥٤ – ١٨٥٦)، الحرب التي قامت للسيطرة على جنوب شرق أوروبا ووقفت انجلترا وفرنسا وتركيا وسردينيا "بيمونت" ضد الروسيا، وقد وصف بعض مراحلها تولستوي في الكثير من كتاباته وعلى الأخص في روايته (الحرب والسلام). (المترجم).

(***) في الأصل "Carnot of the future Revolution" وكلمة Carnot تعني: «معدن مُشع يحتوي على البوتاسيوم والأورانيوم»، وكارنو الرجل هو ماري فرنسوا كارنو سادي=

العالم، وبذلك فقد استطاع أن يقدر مبكرًا الاتجاهات المقبلة، وأن يسهم بطريق غير مباشر في الأسس الفنية للاستراتيجية العسكرية لحقب من السنين جاءت بعده.

وبالرغم من التباين في الصفات والطباع بين الرجلين، ماركس وآنجلز، فقد توطدت بينهما صداقة وطيدة تنفي ما يقال عن برود ماركس وعزوفه وتباعده عن الناس، وقد استمرت هذه الصداقة لأربعين سنة، وكان العمل الأدبي لأحدهما مكملًا لعمل الآخر؛ بل يبدو أنهما قسما العمل فيما بينهما تقسيمًا طبيعيًّا؛ وقد وضحت في بحوث ماركس ودراساته التقاليد الثقافية الصلبة لأسلافه. ومما لاشك فيه أنه كان الأكثر ترتيبًا في تفكيره وبدونه كانت كتابات آنجلز لابد وأن تنقصها قوة تكامل أجزائها وارتباطها معًا، كما كانت تنقصها الأدلة الاستنتاجية الاستنباطية؛ وربما كان ماركس أحسن سياسي استراتيجي توافرت له موهبة صدق تقدير الموقف وعلى الأخص في اللحظات الثورية، وهي صفة قد أبقت زميل حياته بمنجاة دائمًا من التقديرات السريعة المتعجلة، ولكن على حين رضي العبقري المتواضع آنجلز أن يلعب الدور الثاني فإن إسهامه في أعمالهما المشتركة له قيمته الكبيرة في جملة أعمالهما؛ فمنذ دراسته المبكرة في إنجلترا ـ وبخاصة الدراسة الأساسية التي وسمت بعنوان «حال الطبقة العاملة في إنجلترا» ـ فقد عاون في بعض أسس النظرية الاشتراكية العظيمة، وقد استطاع في مدى حياته أن يجمع مادة طيبة من المعرفة العملية بمجريات الأمور.

والواقع أنه كان يتوافر لآنجلز الشعور بما في الجو، وماذا يمكن أن تكون

=(١٨٣٧ – ١٨٩٤) سياسي فرنسي تولى رياسة جمهورية فرنسا (١٨٨٧ – ١٨٩٤) مُعجم ويبستر ص ٢٢٢ (المترجم).

النتائج المتوقعة لهذا؛ كان عقله عمليًّا، وقد جعل مولده لرجل من رجال الصناعة وقضائه جزءًا كبيرًا من حياته في مدينة منشستر بوسط إنجلترا، جعله هذا يعرف منذ طفولته الطبيعة الحقيقية لنهضة النظام الصناعي، فضلًا عن أنه جعل منه قبل كل شيء رجل عمل.

وكرجل يجيد ركوب الخيل والصيد فقد اندفع في عمله بشغف حتى وإن كان هذا يعني «الوثوب فوق الأسوار العالية للفكر المتحرر المطلق»؛ أما ماركس «الذي كافح ضد روح العصر الذي عاش فيه كما صارع يعقوب الملاك والذي وصل به عمله ببطء إلى كل ما كان يأمل الوصول إليه، فقد أعجب بقوة آنچلز؛ «إنه يستطيع أن يعمل في أي ساعة من ساعات اليوم سواءً أكان جائعًا أو مليئًا، إنه يكتب وينظم بطلاقة لا تبارى»، وقد قال آنچلز نفسه عن أسلوبه: إنه كالمدفعية؛ «فكل مقال يصطدم وينفجر كالقنبلة».

ولم يكن هذا الحديث ذو الطابع العسكري مجرد تلاعب بالألفاظ، وحتى في أكثر كتاباته إيجازًا واتجاهًا إلى الدراسة النظرية لا العملية مثل كتابه (Anti Duhring) استخدم آنچلز بطلاقة المصطلحات والتجارب العسكرية؛ ذلك لأنه كان بالطبيعة جنديًّا ومقاتلًا، وفي غمرة فخره بتجاربه العسكرية المبكرة، وفوق كل شيء لإسهامه النشط في فورة بادن أثناء الثورة الألمانية لعام ١٨٤٨ فقد وجه انتباهه أساسيًّا لدراسة الفن العسكري طوال السنوات التي عاشها بمنفاه في إنجلترا لكي يعد نفسه للثورة المقبلة.

ومن المؤسف حقًّا أن «الجنرال» ـ كما كان أصدقاؤه يقولون عنه مازحين ـ لم يوفق إلى فرصة تثبت حقيقة معدنه، ومع هذا فإن تأثيره على تكتيكات واستراتيچية الثورة الروسية واضح وملموس، حتى أن خصومه المعاصرين

من الأخصائيين العسكريين كانوا يحترمون تقديراته وآراءه، وقد نسبت مقالاته عن حرب القرم التي نشرتها صحيفة النيويورك تريبون إلى الجنرال سكوت(*) الأمريكي الذي كان في ذلك الوقت يعمل جاهدًا لتولي رياسة جمهورية الولايات المتحدة، كما اعتبر كتيبه «البو والرين» وكأنه من قلم الجنرال البروسي ڤون فوييل.

إن كتابات آنچلز في ميدان العلم العسكري أكثر كثيرًا من كتاباته الأدبية، ولو جمعت هذه الدراسات العسكرية معًا في مجلد واحد أو أكثر لكانت قد درست بعناية بواسطة الأخصائيين العسكريين، كما كان نصيب كتاب «الرأسمالية» لماركس والذي عني بدراسته كل العلماء وعلى الأخص خصوم الماركسية.

لقد كتب آنچلز الكثير من البحوث القيمة عن الحملات الحربية، كما كتب دراسات ضافية عن أصول الفن العسكري، وكما قدم صورًا تاريخية قصيرة موجزة للقادة العسكريين، وعرضًا حادًّا لاذعًا عن الكتب التي صدرت في الحديث عن العلم العسكري، وقد أظهر آنچلز في كل كتاباته هذه دراية مدهشة بكل أعمال وكتابات كبار الاستراتيچيين العسكريين في

(*) «وينفلد سكوت» اشتهر في عمليات سنة ١٨١٤ ضد الإنجليز في كندا وقد هزم القول الأمامي للإنجليز في شيبوا (٥ يوليو) ثم في لوندي لين، وحارب ضد المكسيك في عمليات سنة ١٨٤٧ ففي مارس احتل ڤيرا كروز وسار بجنوده لمسافة ٢٥٠ ميلاً إلى مكسيكوسيتي، وقد كان سكوت يقود بعض الضباط الذين اشتهروا فيما بعد أمثال لي وجرانت وماكليلان، وقد تقاعد سكوت في فجر الحرب الأهلية الأمريكية مخليًا مكانه لماكليلان، وفي حملة انتخابات الرياسة لسنة ١٨٥٢ كان سكوت يخوض المعركة ضد فرانكلين بيرس بأغلبية ٢٥٤ ضد ٤٢ (المترجم). التاريخ السياسي لأمريكا ص ١٧٠ و ٣٠٦، ٣١٣ و ٣٣٨.

التاريخ.

والواقع أن دقة حكمه وأصالة رأيه واستقلال تقديره لمما يثير الدهشة، ثم إنه كان في تحليله لعدد من الحوادث العسكرية أبعد نظرًا من كثير من الأخصائيين العسكريين المعروفين في عصره، ولا تزال معالجته الصحفية للكثير من الشئون العسكرية لها قيمتها وتستحق الدراسة والبحث.

وقد نستطيع أن نقول عن كتابات آنچلز العسكرية ما قاله أحد النقاد عن كلاوزيڤيتز: «أنه عبقري في النقد «ناقد عبقري» لآرائه وضوحها وزنتها، وهو يدلل على أن عظمة التفكير الاستراتيچي إنما تتكون من البساطة في الإيضاح والتعبير»؛ لقد أثر كلاوزيڤيتز في تفكير الكثيرين من أعلام الاستراتيچية العسكرية الألمان، وقد أثر هؤلاء بدورهم كثيرًا في آنچلز!

وقد كتب آنچلز إلى ماركس في الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٥٧: «ومن بين ما أقرأ اليوم كتاب «في الحرب» لكلاوزيڤيتز، إنه يقدم أسلوبًا عجيبًا من الناحية الفلسفية؛ ولكنه من الناحية الموضوعية كتاب جيد جدًّا، أما ما جاء فيه عن مناقشة الحرب وهل هي فن أو علم فإن الإجابة التي قدمها بأن الحرب مثلها في الغالب مثل التجارة، والقتال بالنسبة للحرب مثله مثل الدفع نقدًا في التجارة، ومهما كان من النادر أن تقضي الضرورة بحدوث القتال فإن كل شيء إنما يتجه نحوه؛ ولهذا فإنه يجب أن يحدث وأن يكون حاسمًا».

وقد أضحى هذا التأكيد للعمل الحاسم وللهجوم التكتيكي حتى في الدفاع هو «البضاعة المعدة للبيع» في الاستراتيچية الثورية، ومن الواضح أن هذا قد طبق تطبيقًا تامًّا لا في الحملات الناجحة للجيش الأحمر طوال

الحرب الأهلية الطويلة فحسب، بل وطبق أيضًا في القتال العنيف ضد هجوم الاشتراكية الأهلية في الحرب العالمية الثانية.

لقد بقي التأهب للعمل الهجومي هو المبدأ الرئيسي لجندي الثورة آنجلز، كما كان أيضًا بتأثيره هو بالنسبة لماركس، وظل كذلك بالنسبة لهما معًا طوال حياتهما؛ على أنه بالإضافة إلى هذه النظريات الأساسية تقدم التفكير العسكري لهذين الثائرين الاجتماعيين تقدمًا جعلهما أكثر واقعية وأكثر عناية بدراسة العوامل والحوادث الوثيقة الصلة بالتاريخ السياسي والعسكري للعصر الذي عاشا فيه، وبهذا ففي استطاعتنا أن نكتشف في سهولة ويسر أن تفكير الرجلين قد سار في ثلاث من مراحل التطور(*).

وقد بدأ الرجلان بتحليلهما لتكتيكات الحرب الأهلية لسنة ١٨٤٨، ثم انتقلا إلى الدروس التي خرجا بها من البحث المتعمق في الاستراتيجية العسكرية للدول الكبرى في العقدين الخامس والسادس عشر، وأخيرًا ينتهيان في مرحلة التطور إلى البحث الأصيل لدراسة طبيعة وعمل الدولة الثورية، وهذه كلها دراسات عندما نربط بينها وبين تجارب التكتيكات الثورية في الحرب الأهلية ثم بينها وبين الاستراتيجية العسكرية للفورات الدولية المدمرة، فإننا نقترب بها من طوابع الصورة الحديثة للحرب، صورة

(*) في الواقع أن التعرف على هذا التطور يتطلب الرجوع إلى بعض المؤلفات التي كتبت عن حياة الرجلين وأقرب هذه الموارد هي:

K. Marx and F. Engels, Selected Correspondence, Moscow ١٩٥٦. V.I. Lenin, Marx-Engels Marxism, Moscow, ١٩٥٣, pp. ٨٤ – ٩١ كما توجد دراسة قيمة كتبها "E. STEPANOVA" في دائرة المعارف السوفيتية المُجلد ٢٦ لسنة ١٩٥٤ وقد نشرت مُترجمة إلى الإنجليزية بقلم "J. Gibbons" ونشرتها دار النشر للغات الأجنبية بموسكو في مجموعة سنة ١٩٥٦ (المترجم).

الحرب الأممية الشاملة.

***

[٢]

ولم تنل ثورة عام ١٨٤٨ كل ما تستحقه من تقدير. سواء لطابعها أو روحها، كما جانب الحكم عليها الصواب، وكان مثلها في هذا مثل العديد غيرها من حوادث التاريخ التي لم تنل حقها من التقييم السياسي دونما سبب واضح، ***والواقع*** أن هذا الطابع الراديكالي لسنة ١٨٤٨ كان طابعًا مقاتلًا وهو بهذا يناقض الطابع المسالم الذي سيطر على الطبقة الوسطى في العصر التالي لعصر نابليون، هذه الطبقة التي ولدت وصحبت القتال في ميادين الحرب ثم عاشت في جزع تخشى الثورة، لقد كان هذا الطابع صدى التقاليد العظيمة لسنة ١٧٩٣.

ولم يخطئ ماركس في تقدير روح الاقتتال التي وضحت في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر بالرغم من أنها تدثرت في رداء سلمي، وقد كتب في الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٥٣ في جريدة نيويورك تريبون يقول: «من الخطأ الكبير أن نظن بأن المبدأ السلمي كما تقدمه مدرسة مانشستر له أي معنى مهم، إن كل ما يوضحه هذا المبدأ هو استبدال السياسة التجارية الاستعمارية بأسلوب إقطاعي في فنِّ صناعة الحرب».

وانتهت حركات عام ١٨٤٨ الثورية في القارة بهزيمة ساحقة، فبعد البداية الناجحة لم تلبث القوى الثورية أن تفتتت، وأفسحت الطبقة السياسية الوسطى غير الناضجة الطريق إلى طبقة حاكمة غير مدربة يقوم سلطانها على أساس الثروة والمولد؛ أي الأصول التي انحدر منها أفرادها، وبذلك ضاعت القوى الدافعة الثورية دون نتائج ظاهرة مرئية، ومع هذا

فإن هذه الحرب الأهلية في أوروبا كانت حادثًا عسكريًّا كبير الأهمية، لقد حدث القتال في ألمانيا من وراء المتاريس في الطرقات كما حدق في ميدان القتال، وكان الثوار في العادة يقودهم ضباط مدربون انضموا للثوار؛ ذلك لأن الجيشين الألماني والنمساوي لم يكونا خالصين مما يقال له في القرن العشرين: التأثير «الشيوعي».

وقد كان بين جنود الثورة بعض المقاتلين النابهين أمثال المغامر أوتوڤون كورڤين، ممن أثبت بعضهم فيما بعد مواهبه الحربية، لقد كان چورچ ويديمير أحد الطليعة من أتباع ماركس وآنچلز ضابطًا من ضباط المدفعية البروسية، وبعد أن هاجر إلى الولايات المتحدة نال شهرة كضابط برتبة الكولونيل في جيش الشماليين طوال الحرب الأهلية الأمريكية، وكان من بينهم أيضًا ويلهلم روستوف أحد ضباط أركان الحرب البروسيين الذي انضم إلى الثورة وكسب شهرة عسكرية كبيرة بين الفنيين واشتهر كذلك كمؤلف ومدرس في الأكاديمية العسكرية للجيش السويسري، ثم عمل بعد ذلك كرئيس أركان الحرب لغاريبالدي في غزو صقلية وفي السير إلى نابولي.

والواقع أن الدوائر العسكرية الرسمية ـ مثلها مثل المؤلفات العسكرية المعاصرة ـ قد نظرت إلى أولئك المقاتلين من وراء المتاريس مع قلة عددهم وكأنهم قوة ممتازة لا تقهر، وكان هؤلاء موضع حيرة الطبقة العسكرية المحترفة كما كان البربر بالنسبة للجيوش الاستعمارية لأوروبا في القرن العشرين.

وقد اعتبر كاڤينياك(*) ـ أول من نجح في باريس في يونيو سنة ١٨٤٨ في القضاء على أسطورة المتاريس ـ أكبر عبقرية عسكرية لذلك القرن، لقد تطلب الأمر كل قوة الجيش البروسي للانتصار على ثوار بادن(**) في ميدان القتال بالمدينة.

لقد أوضحت حركة سنة ١٨٤٨ ـ بالرغم من فشلها أو بسبب هذا الفشل ـ نقطة الابتداء للاشتراكية الفنية والميراث العظيم لأرباب نظرياتها، ويحتل البحث عن معناها ـ عن استراتيچيتها العسكرية ومرجعها التاريخي ـ مركز الصدارة في كتابات ماركس وآنچلز طوال السنوات الأولى من حياتهما في المنفى، ولقد كشفت دروس الهزيمة عن قوانين الاستراتيچية المقبلة للثورات السياسية، هذه القوانين التي وضحت في إفاضة عند تحليل ثورات ١٨٤٨ / ١٨٤٩ في وسط أوروبا، هذه الدراسات التحليلية التي كتبها آنچلز ووقعها ماركس، وصدرت هذه السلسلة من المقالات في جريدة النيويورك تريبون طوال السنتين ١٨٥١ ، ١٨٥٢ تحمل اسم ماركس.

(*) لويس أوجين كاڤينياك (١٨٠٢ – ١٨٥٧) ابن جان باتيست كاڤينياك، قائد فرنسي ولد في باريس وكان حاكماً للجزائر، وتولى رياسة القوة التنفيذية سنة ١٨٤٨ واشتهر بالقضاء على ثورة يوليو ١٨٤٨، ولكنه حاول بلا جدوى أن يتولى رياسة الجمهورية في أول انتخابات لهذه الرياسة والتي فاز فيها لويس نابليون (نابليون الثالث فيما بعد)، وكان أخوه جوفري رئيساً للحزب الديمقراطي في حكم شارل العاشر ولويس فيليب حتى مات في سنة ١٨٤٥ . (المترجم).

(**) بادن ولاية ألمانية أرضها جبلية وتعطي الغابة السوداء جزءاً من أرضها تشتهر بالمياه المعدنية والصناعات وقد أعلن فيها الحكم الجمهوري سنة ١٩١٩ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وسكان الولاية مليون ونصف من السكان، وبادن المدينة على الضفة اليُمنى لنهر الرين ويسكنها ثلاثون ألفاً، وقد كانت بادن المدينة مسرحاً لكفاح الطبقات التي انتشرت في أكثر بقاع أوروبا بين ١٨٤٨ و ١٨٥٠ .



فردريك آنجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥)

وقد برزت إلى الضوء، هذه الدراسة الواقعية عن ألمانيا والتي وسمت بعنوان «الثورة والقوى المضادة لها» بسبب الخطاب الذي بعث به لينين من فنلندة إلى بولشفيك بتروغراد بمناسبة ثورتهم في سنة ١٩١٧ والذي جاء فيه:

«إن الثورة فنٌّ، مثلها مثل الحرب تخضع لقواعد وأصول معينة»(١):

فأولًا: لا تحاول اللعب بالثورات ما لم تكن متأهبًا لنتائج هذا اللعب.

وثانيًا: أن الثورة على ما جاء في كلمات دانتون ـ أعظم شخصية ثورية ـ تتطلب منك، العمل بإصرار وبروح هجومية مستمرة؛ ذلك لأن الدفاع معناه الموت لأي ثورة مسلحة، كما تتطلب مفاجأة الخصم، والإبقاء دائمًا على الاتجاه المعنوي الذي عرفته سياسة أول ثورة ناجحة ألا وهو: «الجرأة، والجسارة، ثم الإقدام».

على أن اشتجار الآراء العامة لماركس وآنجلز عن التكتيكات الثورية يمكن تفهمه في ضوء تفهم طريقتيهما الفلسفية الكاملة التي تقوم على أساس «التفسير المادي للتاريخ» وما يؤكده هذا من أن الأحوال الاقتصادية التي لها السيادة هي تفهم العوامل السياسية الاجتماعية؛ وقد طبقت هذه

(١) جاء النص الكامل لهذا الخطاب في الصفحات ٤٧١ – ٤٧٣ من كتاب Marx, Engels-Marxism بقلم V.I. LENIN الطبعة الخامسة الإنجليزية طبع موسكو ١٩٥٣، وقد كتب ماركس الخطاب في الثامن من أكتوبر سنة ١٩١٧ وجاء في بدايته أنه يأمل أن يصل إلى الزملاء في "بتروغراد" في اليوم التالي وإن كان من المحتمل أن يتأخر عن هذا إلا أنه يخشى هذا التأخير؛ بسبب أن المجلس السوفيتي كان قد قرر بداية الثورة المسلحة في العاشر من أكتوبر، وقد جاء في آخر الخطاب "إن نجاح الثورة الروسية والثورة العالمية يتوقف على قتال ليومين أو ثلاثة"، ويبدو أن الخطاب وصل بتروغراد في الحادي والعشرين من أكتوبر (المترجم).

النظرية في المجمل العام للتاريخ الحديث في صورته الكاملة في الجزء الخاص بهذا من «عهد أو تصريح الشيوعية»(*)، كما طبق هذا أيضًا في الدراسات الكثيرة التي عرضت بالبحث للمسائل المعاصرة، وفي ضوء مثل هذا التفسير والشرح فإن قيام «و» فشل الحركات الشعبية سنة ١٨٤٨ إنما كانت تحدد منه الأسباب الاقتصادية كما كانت تهيئ له الظروف على ما أثبتت الدراسات التحليلية الأخيرة؛ وقد قال آنچلز في مقدمته لطبعة عام ١٨٩٥ اللندنية لكتاب ماركس «صراع الطبقات في فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠»:

«إن الأزمة التجارية لسنة ١٨٤٧، كانت السبب الحقيقي لثورات فبراير ومارس لسنة ١٨٤٨، وكان الرخاء الصناعي الذي جاء تدريجيًّا هو الحقيقة الحاسمة التي تقف وراء الاتجاه الأوروبي المضاد».

وفي ذات الأسلوب أضاف آنچلز:

«ومن الممكن أن تقوم ثورة جديدة نتيجة فقط لأزمة جديدة، ومن الممكن أن تقوم هذه الثورة كما تأكد قيام تلك التي سبقتها».

وكان اقتراب أزمة اقتصادية جديدة يعني بالنسبة لماركس وآنچلز «صوت النفير» الذي يدعو إلى الثورة، وهكذا كان الهبوط الذي حدث عام ١٨٥٧ في رأيهما إشارة إلى الموقف الثوري المحتمل، وكان آنچلز مسرورًا لما خطر له من أنه يستطيع لتوه أن يترك عمله ليذهب إلى ميدان المعركة، وأن يستبدل مقعده في غرفة مكتبه بجواد يمتطيه في مسرح القتال، ويقول: «إن فرصتنا قادمة، وستجيء هذه المرة كاملة، إنه صراع حياة أو موت،

(*) Communist Manifesto وتعني كلمة Manifesto التصريح العام عن الدوافع والاتجاهات، والذي يصدر عن حكومة أو شخص أو مجموعة من الناس لها أو له أهمية في المجتمع. (معجم ويبستر ص ٨٠٢).

وستكون دراساتي العسكرية أكثر اتجاهًا للناحية العملية، إنني ألقي بنفسي في خضم دراسة تكتيكات وتنظيم الجيوش البروسية والنمساوية والباڤارية والفرنسية، وفيما عدا هذا لن أفعل شيئًا غير ركوب جوادي والقيام بالصيد، ورياضة الصيد هي المدرسة الحقيقية للفروسية»؛ ولكن هذه «الأزمة المزمنة» التي انتظراها لم تذهب بهما إلى الثورة ومن ثم إلى الحرب.

على أنه بينما أخفق الاستراتيچيان الثوريان «ماركس وآنچلز» في تقدير قيمة القوى الحقيقية للعمل فإنهما قد أدخلا عاملًا مهمًّا جديدًا إلى كل تخطيط ثوري مقبل، ذلك هو عامل «التوقيت»، العامل الذي أضحى محور الاستراتيچية الناجحة، ولقد طبق تلاميذ ماركس وآنچلز في الثورة السوڤييتية هذا الدرس تطبيقًا كاملًا في الروسيا، ولكن من الواضح أن أولئك الذين قاموا بإيجاد «الدولية الثالثة» لم يفعلوا هذا.

فلما مضى وانتهى الموقف الثوري أشار ماركس وآنچلز بأن أيَّة محاولة للَّعب بالثورة لا قيمة لها، بل ولها ضررها، وفي طوال هذه السنوات كان الرجلان يعملان في حذر ضد أية محاولة لفورة صغيرة تتعرض للفشل؛ ذلك لأن الموقف سيكون إذ ذاك في جانب القوات الرجعية؛ وهكذا قاتل الزعيمان الاستراتيچيان ضد «شابر» و «ڤيليش» اللذين كانا يعملان في فجر الحلقة الخامسة من القرن التاسع عشر لإثارة مثل هذه المحاولات غير الكاملة التوجيه، والتي تجيء قبل الوقت المناسب لها.

والواقع أن ماركس وآنچلز قد أصرَّا على أنه بدلًا من هذه الفورات التي لا أمل فيها يجب اتباع استراتيچية تأهب طويل الأجل تشغل أو تغطى هذه السنوات التي يعيشها العالم في سلم.

ومع أن آنچلز قد انتظر ـ في صبر ـ الوقت الذي يستطيع فيه أن يمتطي جواده ثانية ليسهم في «الصراع الكبير حتى الموت؛ الصراع الذي سيكون بين البرجوازيين والطبقة الفقيرة» فإنه كان يعرف تمامًا أن الخطر الأكبر الذي يمكن أن يتعرض له هذا العمل إنما يكمن في أعطاف اشتداد الرغبة لتعجل القيام به، وهكذا أضحى «التوقيت» و«الصبر» هما المطلب الأساسي للاستراتيچية السليمة.

وعلى حين حمى ماركس وآنچلز نفسيهما ضد الهويّ في هذا الكمين فقد جعلا من حياة المنفى لتكون فترة تجارب لها ثمارها، وقد كانت الحقبة الأولى لحياتهما في لندن فترة إرساء لقواعد السياسة الماركسية، وفي هذا الأمد من السنين أسهم ماركس وآنچلز في الصورة العالمية لمدينة الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر.

والواقع أن المفكرَين السياسيَّين قد استطاعا ـ تبعًا لانفصالهما عن المظاهر المحددة المحلية للولايات الألمانية الصغيرة وعن السياسة الفرنسية التي تتجه إلى التافه من الأمور ـ أن ينظرا إلى كل هام في نطاق واسع؛ «فإنه لاشيء يمكن أن يكون قاعدة للتكتيكات الصحيحة لطبقة متقدمة من الناس عدا التقدير المادي لجملة العلاقات التعاونية بين كل طبقات المجتمع الذي توجد فيه هذه الطبقة المتقدمة».

وقد قدم ماركس هذا التقدير للقوى الاجتماعية في دراسته القيمة The Eighteenth Brumaire(*).

(*) تعني كلمة Brumaire في الأصل الشهر الثاني للتقويم الثوري الذي جاءت به الجمهورية الأولى في عام ١٧٩٣، ويبدأ هذا الشهر من ٢٣ أكتوبر إلى ٢١ نوفمبر.

وقد رأى ماركس أن الدرس التكتيكي الذي يمكن استخلاصه من هذا الفشل الكبير للثورة الفرنسية على يدي نابليون «الصغير» إنما يوضح الحاجة إلى «تطور النشاط الديمقراطي للفلاحين»؛ وقد وصل آنچلز إلى ذات الخاتمة والنتيجة في دراسته المعاصرة «حرب الفلاحين الألمان»، وقال: «سيتوقف كل شيء في ألمانيا على إمكان مساندة ثورة الطبقة الفقيرة بمحاولة ثانية من حرب الفلاحين»؛ وأشار ماركس في مراسلاته لآنچلز إلى أن الفلاحين سيكون لهم من تلك اللحظة دور مهم في تقديراتهما الثورية؛ نظرًا لأنهم سيكونون الحلف الممكن الاعتماد عليه، أو سيكونون القوة الدافعة في الثورة الاجتماعية القادمة، بل وعلى الأخص ستقاس الآمال في الموقف الاجتماعي على أساس ما سيناله الفلاحون؛ لقد اعتبر تحرر الفلاحين من رقِّ ملَّاك الأراضي نقطة التحول في التاريخ السياسي وخط الابتداء للقوى الثورية.

وكتب ماركس، كقائد عام للثورة العالمية، مصدِرًا أوامره في الأسلوب النابليوني من منزله في لندن يقول:

«وستنضم روسيا إلى الثوار»، ومن ذلك الوقت أضحت الثورة الروسية العامل الدائم في تفكيرهما السياسي[1]؛ ومن هذا التقدير لدور الروسيا كان الخط المباشر الذي أدى إلى ثورة عام ١٩١٧ في الروسيا، إن الجيوش التي

---

(١) راجع وجهة نظر آنچلز في دور الفلاحين في إيجاد الإمبراطورية الثالثة في فرنسا تبعاً للأسطورة التي تملأ أذهانهم عن "نابليون إمبراطور الفلاحين" وهذه الأسطورة التي كلفت أهل فرنسا الكثير مما قاسوه بعد ذلك، صفحة ٥ وما بعدها من رسالة "The Peasant Question in France and Germany" والتي كتبها لماركس في نوفمبر ١٨٩٤، وأصدرتها دار النشر باللغات الأجنبية في موسكو مترجمة عن الألمانية سنة ١٩٥٥. (المترجم).

جندت أساسًا من الفلاحين هي التي هزت ثورة سنة ١٨٤٨ في كل مكان، ولكن التحالف مع الفلاحين الثائرين هو الذي أنقذ روسيا السوفييتية إبان الحرب الأهلية، وكان هذا هو الدرس الذي يمكن استخلاصه من الثورة الناجحة ومن هذين المفكرين اللذين رسما الطريق لها.

وكان هذا التحول من والدي الاشتراكية إلى دراسة المسائل الدولية في صورة عامة هو الأمر الأكثر وضوحًا في تطور الفكر الثوري.

والواقع أنه منذ الأيام الأولى لجريدة «الراين الجديدة» ـ والتي عمل ماركس كمحرر لها لإيجاد أقوى محاولة صحفية مليئة بالروح الألمانية الأولى ـ تحقق الصديقان من مدى الارتباط الوثيق بين السياسة الخارجية والشئون المحلية، كما تحققا أيضًا من أن الثورة الأوروبية المقبلة لن تقرر بجهود دولة واحدة وحدها، وقد أدى هذا التحقيق إلى ضرورة العناية القصوى بدراسة الشئون العسكرية لاستراتيجية ثورية واقعية.

لقد كان الإسهام الأساسي لماركس وآنجلز في رأي أولئك الذين تولوا إيضاح وتفسير تعاليمهما أنهما وثبا بالانطلاق الاجتماعي في عصرهما من مرحلة القتال الثوري المحلي ليكون له دوره في تخطيط السياسة العالمية كلها.

***

[٣]

ووصلت الاستراتيچية الماركسية إلى مرحلتها الثانية في فجر الحقبة الخامسة من القرن التاسع عشر، والغريب ـ على ما يبدو ـ إنه في هذه السنوات من حياة ماركس وآنچلز في المنفى اكتشف هذان الرجلان ـ اللذان أبعدا عن وطنهما ـ الروابط القومية بينهما. ولا شك أن آنچلز كان أعمق في ولائه وأكثر إخلاصًا لعقيدته على نقيض ماركس الذي كان يكشف عن اتجاهات قومية خاصة في هجماته على خصومه السياسيين؛ والأكثر أهمية هو أن الزعيمين الاشتراكيين قد بدآ إذ ذاك في تقدير «الفردية القومية» وإدراك ازدياد أهميتها في المسائل الدولية، وقد لاحظا بعناية تيقظ القومية في وسط وشرق أوروبا، وقد توقعا من هذه الحركات الاستقلالية تجديدًا للدوافع الثورية التي ستدمر النقص العاطفي السياسي للرجعية التي سيطرت على أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر.

ويمكن أن نجد مثلًا جيدًا لهذه الآمال فيما توقعه آنچلز للثورة المجرية تحت زعامة «كوسوث»(*) والذي كان يظنه في ذلك الوقت ـ بغض النظر عن رأيه فيه فيما بعد ـ كمزيج من «دانتون» و «كارنو»(**)، وقد اعتبرت

(*) لويس كوسوث وتنطق بالمجرية "كوشوث" KSSUTH (١٨٠٢ – ١٨٩٤) مواطن مجري ومن كبار رجال السياسة في عصره (المترجم) "مُعجم ويبستر ص ٨٨١".

(**) چورچ چاك دانتون (١٧٣٩ – ١٧٩٤) سياسي فرنسي من زعماء الثورة الفرنسية (المترجم) "ويبستر ص ٣٧٢".

هيبوليت كارنو (١٨٠١ – ١٨٨٥) سياسي فرنسي ابن لازار كارنو، كان عضواً في الحكومة المؤقتة لعام ١٨٤٨. (المترجم).

التقارير اليومية عن الحملة الحربية في المجر والتي كان آنچلز يكتبها لمجلة «الراين الجديدة» أنها هي التي أيقظت فيه الرغبة التي صحبته طوال حياته للاهتمام بمشكلات الضابط أركان الحرب.

وقد بدأ الزعيمان الاشتراكيان اللذان اعتبرا نفسيهما دوليين، بدآ التفكير في السياسة الدولية في تاريخ يسبق كثيرًا تخلص زعماء أحزاب الطبقة الوسطى من اتجاهاتهم المحلية الضيقة المجال، وهكذا فإن أي عمل سياسي ـ مهما كانت الدولة التي يحدث فيها ـ يجب أن ينظر إليه في ضوء تأثيره من ناحية أوروبية عامة، ولم يكن من دليل في البداية على هذا الاتجاه أو التوجيه الدولي، وكان كل ما يدل عليه هو اقتراب فج من الواقعية، وكان الانقسام السياسي يرسم ببساطة في ضوء الصورتين العامتين في أوروبا، صورة «الرجعية» التي تضاد الثورة وصورة «القيصرية» التي تقف موقف العداء من الغرب المتقدم؛ وقد اعتبرت فرنسا لوقت طويل كموطن للثورة، وكانت السياسة الدولية التي أوصى بها ماركس وآنچلز بقوة في عام ١٨٤٨ هي تحالف غرب أوروبا لقتال روسيا، وعندما جاء هذا الاصطدام المتوقع بين الشرق والغرب وكانت حرب القرم؛ كانت هذه الحرب في الواقع صراعًا بين القيصر الروسي وبين نابليون المغتصب للعرش مع وقوف بريطانيا إلى جانب فرنسا لمعاونتها عسكريًّا، ومع هذا فإن الاستراتيچيين الماركسيين كانا يأملان في أن هذه الحرب ستطلق قوى الثورة من عقالها.

وكانت حرب القرم أول فرصة لآنچلز ليحلل المشاكل العسكرية لذلك العصر تحليلًا تفصيليًّا، وقد حاول إذ ذاك أن يجعل من دراسة العلم العسكري صناعته في الحياة، ولكنه أخفق في أن يحصل على المكان الذي يتوق إليه في صحيفة الديلي نيوز اللندنية، ولهذا كان المنفذ الوحيد لهذه

المعرفة غير العادية التي توافرت له هذه المقالات التي شاركه فيها كارل ماركس والتي نشرتها جريدة نيويورك تريبون، ***والواقع*** أن الرجلين قد أوضحا في هذه المقالات عظم ما توافر لهما من المادة الفنية مع الدقة في أحكامهما الاستراتيجية مما أنالهما تقدير جمهرة القراء الأمريكيين وجعل مقالاتهما في مصاف ثمار أفكار الأخصائيين الفنيين.

وكان آنجلز يأمل عند بداية الحرب في عمل سريع نشط من جانب القوات المتحالفة في البحر الأسود، ثم «بالتعاون مع السويد والدنمارك» في البلطيق مما يؤدي إلى تدمير الأسطول الروسي وإلى غزو كل التحصينات البحرية الروسية، وبهذا فإن العملاق الذي «تسمل عيناه» سيرغم على أن يجثو على ركبتيه بحركة كماشة هائلة، وبهذا فإن الثورة الداخلية لا تلبث أن تنهي روسيا القيصرية؛ ولكن الاتجاه غير الواضح وغير المقرر الذي وقفته بروسيا والنمسا قد أوجد صعابًا غير عادية في الاستراتيجية العسكرية، فقد حال وقوفهما على الحياد دون حدوث معارك برية كبيرة، وإن كانت تعبئة الجيش النمساوي قد أبقت جزءًا كبيرًا من الجيش الروسي متعطلًا بلا عمل، إلا أن الأمل في تدخل نشط من جانب النمسا كان قد عطل عمل الحلفاء لخمسة أشهر، وقد اعتبر آنجلز هذا التعطيل فشلًا، ولكنه ـ أسوة بماركس ـ كان يشك في بالمرستون(*) كحليف سري «لصديقه القيصر

(*) بالمرستون، هنري جون تمبل (١٧٨٤ – ١٨٦٥) سياسي إنجليزي دخل مجلس العموم سنة ١٨٠٧ تولى وزارة البحرية ثم وزارة الحرب في حكومات متوالية حتى عام ١٨٢٨ عندما انتقل لوزارة الخارجية تحت رياسة جراي سنة ١٨٣٠، وشغل هذه الوزارة مرات عديدة حتى سنة ١٨٥٠ عندما بعثت له الملكة ڤيكتوريا مذكرتها عن طريق رسل رئيس الوزارة تطلب تحديد اتجاهات سياسة الوزارة وتصر على أن ما تقرره الملكة ليس من حق الوزير تعديله بعد هذا وإلا كان من حق الملكة عزل الوزير، وبرغم هذه المذكرة وافق=

نيقولا» متبعًا في هذه السبيل ما سبقه إليه الإسكتلندي المضطرب العقل والذي كثر الحديث عنه «أوركيرت»(*).

على أن التحليل الدقيق لتنظيم القوات المتقاتلة وخواصها التكتيكية لم يترك أي شك عند آنچلز في أفضلية دول الحلفاء، وحتى معركة انكرمان كانت الأفضلية لمدفعية الحلفاء وفرسانهم واضحة تثبتها الأدلة المادية، ولكن حدث إذ ذاك أن انتصر المشاة الروس بالرغم من أنهم «كجيش متجمع» قد أثبتوا عدم القدرة على العمل في مواجهة الفن العسكري الحديث ولا على القيام بالتحركات التكتيكية للوحدات الصغيرة المنفصلة، وقد وصف آنچلز حرب القرم بعد أعوام من نهايتها للاقتصادي الروسي «دانيلسون» بقوله: «إنها صراع لم يكن فيه من أمل، قام بين أمة بدائية الإنتاج وأمم أخرى وصلت إلى أحدث صور الطاقة الإنتاجية»، ولم تحل الثقة في انتصار الحلفاء دون أن يوجه آنچلز نقدًا لاذعًا لتنظيم الجيش

=بالمرستون في العام التالي على مقترحات نابليون الثالث من إبقاء الحال القائمة في أوروبا دون استشارة الملكة أو رئيس الوزراء، وقد أدى هذا إلى إعفائه من منصبه، على أنه لم يلبث أن عاد من جديد بل وتولى رياسة الوزارة سنة ١٨٥٦، وقد اشتهر بالمرستون باتجاهاته الاستعمارية وإصراره على الإبقاء على المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية، ومات بالمرستون في مكتبه يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥ وهو في الحادية والثمانين من عمره E. Encycl. Vol. ١٠ pp. ٢١٩ (المترجم).

(*) أوركرت Urquhart السير توماس أوركرت (١٦١١ - ١٦٦٠) مؤلف ومترجم اسكتلندي، كان من حزب الملك أثناء الحرب الأهلية في إنجلترا، وفي عام ١٦٣٣ نشر الجزء الأول من ترجمته لأعمال الكاتب الفرنسي فرنسوا رابيليس، وقد أوصلته هذه الترجمة إلى الشهرة لأنها كانت من أدق الترجمات التي قدمت مؤلفات الكاتب الفرنسي وقد نشرتها مكتبة إفريمانز في طبعة حديثة عام ١٩٢٩. راجع مُعجم ويبستر ص ١٦٠٣ ودائرة معارف كل فرد المجلد ١٢ ص ٥١٤ (المترجم).

الإنجليزي، فإن النقص المعيب في الأغذية والثياب والعناية الطبية قد أثار غضب الرأي العام الإنجليزي، وقد وجه آنجلز اللوم ـ في ضوء التفسير الماركسي للتاريخ ـ إلى الطبقات الحاكمة.

وكانت الظاهرة الكبيرة الأهمية في حرب القرم هي الدور الذي كان للتحصينات أو حرب الحصار، ولا شك أن هذه الحقيقة قد وجهت نظر المراقب العادي غير المتعمق في دراسته إلى أن تغييرًا في فن الحرب قد حدث وأن عودة للوراء قد سارت بالفن العسكري من عصر نابليون إلى عصر فردريك الأكبر.

ولكن آنچلز لم يصل إلى مثل هذا التقرير، وقد قال بعد سقوط سباستبول: «لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من أن التحصينات لا أهمية لها اليوم غير أن تكون نقط احتشاد في معاونة تحركات الجيش في الميدان، إن قيمتها في الواقع نسبية، وهي لم تعد عوامل مستقلة في الحملات العسكرية بل مواقع ذات قيمة قد يكون أو قد لا يكون من الصواب الدفاع عنها للنهاية»، ثم ختم حديثه برأيه في أنه لهذا السبب كان الروس محقين في تجنب المعركة في الميدان المكشوف وفي تقديرهم أن أمن وسلامة جيشهم أكبر أهمية من القيمة السلبية التي لأي حصن؛ وبالإضافة إلى هذا فإن آنچلز لم يقرأ فقط ـ بمناسبة حرب القرم ـ كتابات كبار الاستراتيچيين العسكريين منذ أيام نابليون كچوميني وڤلسن كلاوزيڤيتز وغيرهم، بل إنه درس بعناية حملة نابليون في الروسيا وبذلك عرف الصعاب التي يمكن أن توجهها قوات الحلفاء بعد غزو القرم إذا ما تابعت تقدمها للاشتباك بعنف مع الروسيا، وكان من الواضح أن مشكلات المناحي العسكرية في أرض «المساحات الواسعة» لا يسهل التغلب عليها، ولهذا كان من الممكن إدراك

وفهم سر رغبة الحلفاء في سرعة إنهاء الحرب مبكرًا ما أمكن.

وكانت «إجابة» آنچلز في مثل هذا الموقف هي الاتجاه إلى الاستراتيچية الثورية، وبدا له أن «الحرب للمبدأ والعقيدة» هي الحل الوحيد للحلفاء ولروسيا على السواء، فيستند الأولون إلى كل القوى المتحررة في ألمانيا وبولندة وفنلندة والمجر وإيطاليا، وتستثير الأخيرة لنصرتها كل العناصر السلاڤية، وكان هذا الاحتمال «لحرب العقيدة» هي التقدير الصحيح للموقف، وقد اعترف نابليون الثالث بنفسه فيما بعد للملكة ڤيكتوريا: «بأنه لو كانت حرب القرم قد استمرت لاضطر مرغمًا لدعوة الشعوب التوَّاقة إلى التحرر لحمل السلاح في معاونة فرنسا».

ولا شك أن آنچلز كان يرحب بمثل هذا التحول، ولكن لا القيصر نيقولا، ولا الإمبراطور نابليون الثالث كان متأهبًا لإطلاق هذه القوى من عقالها والتي كانت هي الطابع الحاسم في عسكرية القرن العشرين.

على أن انتهاء حرب القرم في عام ١٨٥٦ وضع حدًّا لآمال آنچلز في إمكان قيام نظريات ثورية عظيمة، ولكنه في نفس الوقت زاد من اقتناع الاستراتيچيين الثوريين بخطر «البونابرتية»، وهكذا كانت «البونابرتية» و«السلاڤية» موضع الاهتمام في الاعتبارات الاستراتيچية لآنچلز، وقد اختلط الخوف من الاتساع التقدمي ومن الأطماع القومية لروسيا بالكراهية التي لا يخبو أوارها ولا يخبو لظاها للرجعية الطليقة، والتي أدى تدخلها العسكري إلى تدمير ثورة عام ١٨٤٨ ، ولكن العداء الشخصي العنيف بين ماركس وبين «ڤوجت» الألماني «١٨١٧ ـ ١٨٩٨» أوضح إلى أي مدى كانت الأفكار الاستراتيچية للأمن العسكري قاعدة صراع ماركس وآنچلز ضد الدعوة «الروسية / السلاڤية» والتي لم يكن يعنيها لو أن بوهيميا التي هي في



من قتال الشوارع في سبيل الحرية السياسية سنة ١٨٤٨

الصورة التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر

قلب ألمانيا قد تحولت لتتبع روسيا.

وتبعًا لآراء آنچلز إنما يعني نزول ألمانيا عن بوهيميا نهاية وجودها القومي، وبذلك فإن الطريق المباشر من برلين إلى ڤيينا يمر في الأراضي الروسية، وهكذا كانت الاعتبارات الاستراتيچية والثقافية والاقتصادية هي التي جعلت آنچلز يرى أن كل المناطق التي في شرق وجنوب شرق أوروبا والتي كسبها الألمان فيما مضى يجب أن تظل ألمانية. وقد عارض آنچلز بقوة تفتت الأمم الثقافية، كما عارض إيجاد هذه الدويلات الصغيرة المتناثرة التي لا تتوافر لها إمكانيات الوجود والبقاء القومي، وكل هذا باسم «الرغبة القومية المتحررة»؛ وهكذا يبدو لنا أن كل أخطار تطورات القرن العشرين قد قدرت من قبل وفي تاريخ مبكر سابق لحدوثها.

ولا يقل عن هذا أهمية النقاش الحديث لكفاح آنچلز ضد العقيدة «البونابرتية» وقد أدرك أن قوتها وخطرها إنما يكمنان في العمل للسيطرة على سياسة الاتساع الاقتصادي غير المنظور للطبقة الوسطى غير الراضية عن حالتها، وعلى ولاء ووطنية الجماهير الثورية، وقد قدم آنچلز دراسته القيمة لأطماع نابليون في رسالتيه «البو والرين ـ ١٨٥٩» ، «ساڤوي ونيس والرين ـ ١٨٦٠»، وقد هاجم في رسالتين الدراسات والآراء التي كانت منتشرة في ذلك العصر والتي كانت تسود آراء الكثيرين من الأخصائيين العسكريين «على مثال ما قدمه الچنرال ڤون ڤيلسين في دراسته للحملة الإيطالية لسنة ١٨٤٨» من أن الدفاع عن الرين يجب أن يكون على نهر البو والذي كان يعتبره جزءًا من ألمانيا، وقد أثبت آنچلز في تحليله القيم للمجاري العلوية للأنهار الإيطالية وللموقف الاستراتيچي للتحصينات الإيطالية ـ وهي دراسة يفخر بها أي عالم معاصر من علماء الچيو بوليتيكس ـ

أثبت أن السيطرة التي لوادي البو ليست فقط بسبب الحاجة العسكرية للدفاع عن حدود ألمانيا الجنوبية، بل بسبب الأطماع السياسية لإعادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة من جديد، مع تطلع ألمانيا لأن تكون سيدة أوروبا، وقد حذر آنچلز على التخصيص من السياسة التي ترمي إلى إيجاد «ألمانيا الكبرى» الأمر الذي سيجعلها تبعًا لتخلصها من جيرانها الضعفاء موضع كراهية وحقد أوروبا كلها، وهكذا كان محور روما / برلين، كما كان النظام الجديد لألمانيا الهتلرية، موضع الاستنكار والمعارضة قبل إيجاده وتكوينه بثمانين سنة.

على أن مناقشة آنچلز للاستراتيچية المحتملة لحملة غربية تستحق الإعجاب وتستثير الدهشة بدرجة أكبر، وقد حاول آنچلز أن يثبت أن فرنسا وقد حصنت باريس تستطيع أن تنزل عن مطالبها التقليدية على الضفة اليسرى للرين، وكما فعل في مسألة المطالب الألمانية / النمساوية في شمال إيطاليا لم يوافق آنچلز ـ في ضوء الأسباب العسكرية ـ على ما تطالب به فرنسا من «حدود طبيعية»؛ وقد اتجهت استراتيچية الحملات الفرنسية نحو الدفاع عن باريس، وكان لهذه الاستراتيچية أحقيتها تبعًا لأن مركزية فرنسا جعلت باريس مفتاح البلاد كلها، فإن استسلام العاصمة يسبب تهدم الإمبراطورية، ومع التحصينات الحديثة لباريس كانت الحلقات الثلاث من التحصينات حولها والتي بناها ڤوبان عديمة القيمة وتعني توزيعًا لا قيمة له للقوات العسكرية.

وقد رأى آنچلز أن الخطر الحقيقي ضد أمن فرنسا إنما يجيء من ناحية حدودها الضعيفة المشتركة مع البلچيك؛ ذلك لأنه بالرغم من المعاهدات الأوروبية فإن «التاريخ قد أوضح أن حياد البلچيك في حال الحرب ليس

أكثر من قصاصة ورق»، وعلى أساس مثل هذا التقويم الحقيقي وضع آنچلز في تفصيل ضاف خطته لحملة حربية ناجحة تستطيع فرنسا بها ـ مستندة إلى دفاعات باريس ـ أن تقوم بدفاع هجومي على الحدود البلچيكية. فإذا أمكن صد مثل هذا الهجوم وجب على الجيش أن يقف وقفة نهائية على خط «الواز / الأين»، ولن تكون هناك من قيمة لأن يتقدم العدو إلى ما وراء هذا الخط تبعًا لأن الجيش المتقدم من البلچيك سيكون أضعف من أن يستطيع العمل ضد باريس وحدها، وستمكن المواصلات غير المهددة من وراء خط الأين إلى باريس ـ أو على الصورة الأسوأ من وراء المارن مع الاستناد بالجناح الأيسر إلى باريس ـ الجيش الفرنسي الشمالي من القيام بالهجوم وانتظار وصول القوات الأخرى التي تبعث لمعاونته في خوض المعركة الحاسمة. وبعد خمس وخمسين سنة من هذا الحديث وصل الجنود الفرنسيون في سيارات التاكسي متبعين النبوة التي تحدث بها آنچلز والتي تحدثت عن «معجزة المارن»(*) قبل أكثر من نصف قرن على حدوثها.

(*) كانت "معجزة المارن" هي إعداد الجيش الفرنسي السادس بقيادة مانوري في أقصى الجناح الأيسر للحلفاء، وإعداده للقيام بالهجوم على يمين الألمان عند ما وضح أن الألمان تركوا خطة شليڤن الأصلية بالدوران حول باريس وتطويق جيوش الحلفاء ودفعها دفعاً إلى سويسرة.

وقد أدت ضرورة سرعة إرسال الإمدادات إلى مانوري إلى استخدام كل سيارات الأجرة التي في العاصمة لنقل الجنود إلى جبهة القتال، وقد أدى تجمع هذه القوات على جنب الجيش الألماني الأول الذي يقوده ڤون كلك وتهديدها لمؤخرته حتى بعد تقهقره إلى نهر أورك لإصدار مولتكه أوامره للجيوش الألمانية بالتوقف عن التقدم مما كان له أثره في بدء تقهقر الألمان في الجبهة الغربية في نهاية الأربعين يوماً الأولى من الحرب وابتداء القتال في خطين من الخنادق بين حدود سويسرا وقنال المانش – راجع كتاب "أربعين يوماً من عام ١٩١٤" للميجر جنرال السير فردريك موريس وترجمة (المترجم) ص ١٥٧ – ١٩٢=

وقد قدم آنچلز بعد حقبة من السنين إبان الحرب البروسية / الفرنسية دليلًا آخر على قدرته الاستراتيچية في سلسلة من المقالات التي كتبها لمجلة «بال مال» اللندنية، وقد قدر في تحليلاته التفصيلية تغيير الاتجاه الفجائي للجيش البروسي في تقدمه من شالون نحو الحدود البلچيكية، وهكذا كان هو «المراقب» الأوروبي الوحيد الذي تنبأ بالاستراتيچية التي أدت إلى انتصار مولتكه الحاسم في سيدان.

وقد أشار في رسالته «ساڤوي، نيس، والرين» إلى عامل آخر في الاستراتيچية العسكرية لم يتم إدراكه وتفهمه حتى كانت الحرب العالمية الأولى ألا وهو: «الشبح المخيف» للحرب في جبهتين نتيجة للحلف الفرنسي/ الروسي، وقد قال مستنكرًا: «أليس للرين من عمل إلا أن يتسبب في إثارة الحرب كي تطلق يد الروسيا في الڤستيولا والدانوب؟!»، فلقد بقيت روسيا مثار التهديد الأساسي للحرية الأوروبية، وإن كان آنچلز قد بدأ يتحدث عن الأمل الذي كان عبثًا ينتظر تحقيقه ألا وهو: أن يوقف هذا الخطر بالحليف الجديد للثورة، أي بالطبقات المتحررة من الرق، وفي هذا يقول: «إن الصراع الذي يقوم الآن في روسيا بين الطبقات الحاكمة وبين سكان الريف وغيرهم من المحكومين يهدد من نظام وكيان السياسة الخارجية الروسية، لقد كان هذا النظام ممكنًا فقط طوال بقاء الروسيا بلا أي تطور سياسي داخلي، ولكن قد مضى هذا العصر وانتهى».

ومن جهة أخرى كان الأمر يتطلب بذل عناية أكبر بالنسبة لخطط نابليون الثالث، وقد درس آنچلز احتمالات الغزو الفرنسي لإنجلترا وإمكانيات

="طبع القاهرة ١٩٢٩" ونشرته مكتبة الخانجي.

الدفاع عن الجزر البريطانية، وقد نشر حديثه في هذا الشأن في جريدتين فنيتين للعلم العسكري هما:

The “Darmstadter Allgemaine Militar Zeitung”

The “Volunteer Journal of Lancashire and Cheshire”

نشر عددًا من المقالات تتحدث على التخصيص عن المتطوعين من حملة البنادق، وقد طبعت بعض هذه المقالات سنة ١٨٦١ في كتيب بعنوان «موضوعات موجهة إلى المتطوعين»، وبالرغم من تقدير آنجلز لحملة البنادق ونظامهم الأقل صلابة وعنفًا في التدريب فقد انتهى حديثه بأنهم لا يمكن أن يقفوا على قدم المساواة مع الجيش الفرنسي الجديد الذي يتزايد عدده والذي قال عنه «أنه أحسن تنظيم عسكري في أوروبا».

وكان أكبر حادث في التاريخ العسكري للسنوات التالية هو «الحرب الأهلية الأمريكية»، ***والواقع*** أن أغلب الثقات العسكريين الرسميين لم يظهروا أية رغبة في دراسة هذا الكفاح الطويل المرير حتى أن مولتكه قال عن هذه الحرب أنها لا تهمه، لأنه «لا يعنى بدراسة تحركات الغوغاء المسلحين»، ولكن على نقيض كل هؤلاء الثقات العسكريين اعتبر آنچلز أن الحرب الأهلية الأمريكية «مأساة لا مثيل لها في سجلات التاريخ العسكري»، لقد كانت حربًا ثورية ليس فقط في استخدامها الأول للخطوط الحديدية والسفن المدرعة على نطاق واسع في العمليات الحربية بل وأيضًا في دعايتها العالمية لتحريم الرق»، وفي مقدمة الطبعة الأولى لكتاب رأس المال» طبعة سنة ١٨٦٧ كتب ماركس: «وكما كانت حرب الاستقلال الأمريكية في القرن الثامن عشر صوت الناقوس للطبقة الوسطى الأوروبية،

فإن الحرب الأهلية الأمريكية تعتبر صوت الناقوس للطبقات العاملة في القرن التاسع عشر».

ومع أن عواطف آنچلز كانت في جانب الشماليين إلا أنه هلع لهذا التراخي في إدارتهم للقتال على نقيض ما بدا من حماسة الجنوبيين واهتمامهم الجدي بالقتال، وفي رسالة له إلى ماركس تاريخها الخامس من نوفمبر سنة ١٨٦٢ كتب يقول: «إنني لا أستطيع أن أتحمس لشعب له مثل هذا التعداد الكبير ومع هذا فإنه يسمح لنفسه أن يتحمل باستمرار الضربات التي يوجهها له شعب لا يزيد عن ربع تعداده»، وكان ماركس هو الذي حذره ـ محقًّا في تحذيره ـ من ألا يكون رأيه ويصدر حكمه في المسائل العسكرية قبل أن تتوافر له الدراية بكل الحقائق، وألا يصدر حكمه تبعًا لمشاهداته من جانب واحد، وقد استطاع آنچلز أن يقدر الضبط والربط الجيدين والروح المعنوية القوية التي توافرت للشماليين الذين دخلوا الحرب وأسهموا فيها «على غير رغبة منهم وفي تراخي» عندما أحيط بقوات «لي»(*) الذي كان

(*) "لي" Lee روبرت لي (١٨٠٧ – ١٨٧٠) ابن هنري لي الذي تولى القيادة في حكم واشنطون واستولى من الإنجليز على حصن بولوس هوك وتولى حكم ولاية فيرجينيا؛ وروبرت لي الإبن من أشهر القادة الأمريكيين الذين تعرفهم الدوائر العسكرية الأوروبية، ولد في ستراتفورد من أعمال فرجينيا تخرج في الكلية الحربية "ويست بوينت" وترقى بسرعة حتى تولى قيادة الكلية سنة ١٨٥٢، انضم عند اشتعال نيران الحرب الأهلية إلى الجنوبيين وعمل مستشاراً للرئيس ديفْس ثم تولى الدفاع عن التحصينات الساحلية لسانت كارولينا وجورجيا، اشتهر بانتصاره على ماكليلان وبغزوه لميريلاند ولكنه هُزم في جيتيسبرج – تولى بعد انتهاء الحرب جامعة واشنطن حيث مات في ١٢ أكتوبر عام ١٨٧٠ وقد بقيت صداقته لجرانت على أساس أن كلا قد قام بواجبه تبعاً لوجهة نظره، وكان "لي" استراتيچياً من طراز ممتاز (المترجم) – E. Encycl. Vol ٨ pp. ٣٥٦ ٣٥٧.

يعجب باستراتيچيته، وعندما استطاع «جرانت»(*) أن يفعل ما فعله نابليون من قبل فيخوض معركة أشبه بمعركة «يينا» وبذلك أسر كل جيش العدو.

ومع نهضة بروسيا تحت زعامة بسمارك اتجهت أفكار الزعيمين الثائرين مرة ثانية نحو مسارح القتال في أوروبا، وقد أثبتت الحرب الدانمركية القصيرة الأمد لآنچلز أن المشاة الألمان أفضل من المشاة الدانمركيين، «وأن الأسلحة النارية الألمانية من البنادق والمدافع أحسن مثيلاتها في العالم كله»، ومع هذا فإنه لبث يقدس «قوة الضرب» البروسية بأقل من قيمتها، وبلا شك أن آنچلز خطا في مقاله لجريدة المانشستر غداة معركة «سادوا» خطوات واسعة للتنبؤ بإمكان هزيمة ألمانيا في أي حرب يطول أمدها ويمكن انتظار أحكامها وقضائها.

وقد هاجم آنچلز خطة مولتكه للحملة وإن كان قد كتب في اليوم التالي يعترف بأن «الألمان برغم خطاياهم ضد قوانين الحرب العليا قد أحسنوا

(*) جرانت Grant الوسيس سمبسون (١٨٢٢ – ١٨٨٥) الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية سليل أسرة اسكتلندية نزلت سيشوت في القرن السابع عشر، تخرج من الكلية الحربية "ويست بوينت"، حضر حملة المكسيك، انضم للشماليين عند بدء الحرب الأهلية سنة ١٨٦١، فعين برتبة الليفتينانت كولونيل في وحدة من وحدات المشاة ولم يلبث أن أظهر كفاية لفتت إليه الأنظار فارتقى إلى رتبة البريجادير جنرال حيث قام بالهجوم العظيم سنة ١٨٦٣ على فيكسبورج وأرغم الجنوبيين على الاستسلام وأسر ٣١.٠٠٠ جندي وفي سنة ١٨٦٤ منح رتبة الليفتينانت جنرال وتولى قيادة جيش الولايات المتحدة، وكانت المعارك التي أدارها وهو في القيادة العامة من أعنف المعارك وأكثرها سفكاً للدماء ولكنها أدت إلى استسلام "لي" يوم ٩ أبريل سنة ١٨٦٥ بكل جيشه، وقد أنهى هذا الاستسلام الحرب الأهلية الأمريكية، وانتخب رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٨٦٨ ثم أعيد انتخابه، مات سنة ١٨٨٥ بسرطان اللسان وكان في أواخر أيام حياته قد انصرف للكتابة ليكسب عيشه وعيش أسرته (المترجم) E. Encycl.

العمل»، وترجع في الواقع أخطاء آنچلز في التقدير ـ هذه الأخطاء التي أثارت الدهشة ـ إلى تقديره الخاطئ لقيمة الموقف الداخلي في بروسيا، وقد أخطأ آنچلز أيضًا في تقدير صراع الدستور المرير الذي قام بشأن إصلاحات الجيش في الحقبة السادسة من القرن التاسع عشر، كما أخطأ في تقديرها الكثيرون من الذين أسهموا في المقاومة الشعبية على أساس أنها ستسبب تقسيم الجيش وستكون فاتحة ثورة في بروسيا، ويقول عن هذا: «فإذا مرت هذه الفرصة دون الانتفاع بها واستخدامها فمن الضروري أن نحزم حقائبنا الثورية وأن نعود من جديد لدراسة النظريات»، ولا شك أن موقفًا ثوريًّا آخر قد مر دون الانتفاع به، وكان آنچلز سريعًا في تفهمه لهذه الحقيقة في اليوم التالي لمعركة «سادوڤا».

والواقع أنه مع تقديره واحترامه للجيش البروسي فقد تقبل النتائج السياسية التي جاءت في أعقاب الانتصار العسكري الذي حصل عليه البروسيون، وقد كتب لماركس يقول: «إن الحقيقة البسيطة الواضحة ، هي أنه لدى البروسيين خمسة آلاف مدفع في الوقت الذي تملك كل دول العالم خمسمائة مدفع فقط، ولا يمكن أن يسلح جيش بالأسلحة التي تعمر من «ظرف الماسورة» قبل مرور سنتين وربما خمس سنوات، وإلى أن يتم هذا ستظل بروسيا في القمة، فهل تظن أن بسمارك لن يستخدم هذه الفرصة؟!، إنه بلا شك سيفعل».

وعلى حين كان الثائر الاجتماعي الكبير يرى الآن في بسمارك(*) رجلًا من

(*) بسمارك ... أوتو ادوارد ليبولد برنس ڤون بسمارك (١٨١٥ – ١٨٩٨) ولد سليل أسرة طيبة في براندنبرج وتعلم في مدرسة خاصة ببرلين ثم أكمل دراسته في جامعة جوتنجن، وعاد بعد سنة إلى برلين لتأدية الامتحان للالتحاق بالسلك السياسي، على أنه لم يلتحق=

البونابرتيين أخطر من نابليون الثالث وبينا أسف للوحدة الألمانية فإنه سار مندفعًا اندفاعًا موقوتًا مع المبادئ البروسية، بل قد اعترض بنفس القوة على الاتجاه غير الواقعي الذي بدا من جانب الزعماء الاشتراكيين أمثال ويلهلم ليبنيشت(*) لرفضهم النظر إلى الحقائق بدلًا من معارضتهم للظلال، وقد

=بالعمل لتوه رغم نجاحه في الامتحان بل قام بعدة رحلات وأسفار وانصرف إلى المطالعة العامة، وقد مكنته هذه الأسفار وهذه المطالعات الواسعة من أن تتوافر له دراية بالحياة العامة، وفي سنة ١٨٤٧ تزوج جوهانا ڤون بونكامر، وأسهم في السنوات الخمس التالية في سياسة بروسيا، وقد كان يُعارض الكثير من الرغبات الخاصة بتعديل الدستور، ويرى أن الحركات الثورية إنما تعمل لإضعاف مركز بروسيا كولاية ألمانية، وفي سنة ١٨٥١ عين ممثلاً لبروسيا في حكومة فرانكفورت، وعرف في مركزه هذا الكثير من اتجاهات السياسة الألمانية إلا أنه لم يكتسب أية آراء تحررية على ما ظن الكثيرون فقد بقي يؤمن بأن الحكومة الملكية أصلح لألمانيا من أي نظام آخر من نظم الحكم.

وعمل سفيراً لبروسيا في بطرسبرج في باريس واتصل فيها بنابليون الثالث، وفي سنة ١٨٥٢ استدعي إلى برلين ليتولى وزارة الخارجية الألمانية، ثم تولى رياسة الوزارة بعد ذلك وقد ظهرت قوة توجيه بسمارك للسياسة الألمانية في القضاء على الثورة البولندية وفي الاتحاد مع النمسا لهزيمة الدنيمارك ثم في الحصول على موافقة فرنسا وإيطاليا للقضاء على قوة النمسا في حرب سنة ١٨٦٦، ثم في التحول بعد خمس سنوات للقضاء على قوة فرنسا نفسها.

وفي سنة ١٨٩٠ عندما تولى غليوم الثاني العرش أعفاه من عمله ولكنه لم يلبث أن أعاده سنة ١٨٩٣، وقد اعتبر عيد ميلاده الثمانين في ١٨٩٥ عيداً قومياً. (المترجم) E. Encycl. Vol. ٦ pp. ٥١٣.

(*) ويلهلم ليبينشت (١٨٢٦ – ١٩٠٠) ديمقراطي ألماني ولد في جليسين سُجن سنة ١٨٤٨ لمساهمته في ثورة بادن، ولكنه فر من سجنه ورحل إلى سويسرة أولاً ثم إلى لندن حيث عمل في بعض الصحف الألمانية التي تصدر بها، واشترك مع ماركس وآنجلز، ثم عاد سنة ١٨٦٢ إلى ألمانيا، إلا أنه منع من دخول برلين وبروسيا بسبب حركاته الاشتراكية، وفي سنة ١٨٦٤ دخل برلمان شمال ألمانيا، واشترك مع "بيبيل" سنة ١٨٦٨ في تحرير مجلة كانت تهاجم بسمارك فسجن لسنتين بسبب هجومه العنيف، فلما أطلق سراحه فاز

جدد آنچلز الكفاح ضد طبقة «اليونكرز» البروسيين وضد الأسس والقواعد التي أوجدها النصر البروسي.

لقد بدأت الدراسة الجدلية لماركس وآنچلز تواجه الآن تجربة لها قيمتها، وقد تعلما من مدرسة منفاهما أن يريا التطورات الخاصة للطبقات والأمم داخل نطاق «نظرتهما الأوروبية الخالصة»، وأن يكشفا عن زعامتهما الثورية على أساس «الحال الموضوعية للتطور الاجتماعي»؛ وهكذا وصلا إلى المرحلة الثالثة من مراحل استراتيچيتهما العسكرية بأن اقتربا نحو «الحكومة الثورية».

***

بعضوية مجلس الريشتساغ، وبقي عضواً فيه لمدة خمس وعشرين سنة متواصلة، ثم= =سجن سنة ١٨٩٥ لمدة خمس سنوات بتهمة (العيب في الذات الملكية) Lése-Majesté وله مؤلفات عدة، وقد كتب "ايزنر" تاريخ حياته سنة ١٩٠٠ (المترجم) E. Encycl. Vol. ٨ pp. ٤٣٢.

[٤]

وقد بقيت استراتيچية الدولة الثورية كما قدرها ماركس بل وعلى الأخص كما رآها آنچلز غير كاملة الصورة بل جاءت في أجزاء متناثرة، فإن وضع ومكانة الحركة الاشتراكية بالنسبة لغيرها ـ هذه الحركة التي كانا لسانيها الداعيين لها المدافعين عنها ـ لم ييسر لهما التكوين المادي الكامل لآرائهما، بل وبخاصة لم ييسر لهما التطبيق العملي لها بوضع نظام اشتراكي كامل.

على أننا قد نستطيع القول بأن أشياء أخرى كانت تعطل من هذا، فقد أبدت حتى زعامة الأحزاب الاشتراكية في ذلك الوقت تحفظًا محدودًا إن لم نقل معارضة لآراء آنچلز. ومع هذا فإن توجيهات سياسته قد بدأت تتضح في تلك المرحلة متوجة دراسة طويلة الأمد للاستراتيچية العسكرية ومقررة شكل أو صورة التطورات المقبلة للديمقراطية الراديكالية في أوروبا.

وقد كانت قاعدة سياسة آنچلز العسكرية الإيجابية هي عقيدته في الجيش الديمقراطي، أي الأمة المسلحة، وفي إيمانه بالإدراك التقدمي لهذه العقيدة، ولا شك أن آنچلز قد أوضح هذه العقيدة في الكتيب الذي كتبه عن «المسألة العسكرية والطبقة العاملة الألمانية» سنة ١٨٦٥ ، وكانت هي المبدأ الموجه طوال الثلاثين السنة التالية.

وقد كتبت الدراسة الخاصة بالمسألة العسكرية البروسية والتي نشرت في أوج الكفاح الدستوري بين الطبقة الحاكمة الإقطاعية والبرجوازية المتحررة

الناهضة كدراسة أولية(*) لأعضاء حزب العمال، وكانت نصيحة آنچلز للطبقة الفقيرة التي تقاتل من أجل تحررها السياسي أن تعاون البرجوازية ضد قوى الرجعية والتي كانت تتشكل في صورتها الجديدة في الطابع البونابرتي محرمة كل قوة سياسية من العمال والرأسماليين على السواء.

على أن الذي أعطى هذه الدراسة أهميتها الخاصة ليس التقدير العنيف الماكر لمناحي قوة وضعف مقاومة الطبقة الوسطى، ولا هو أيضًا دقة وإحكام عرض التفاصيل الفنية لتاريخ تنظيم الجيش البروسي منذ الحروب النابوليونية، بل ترجع أهميتها إلى معاونتها الواقعية للإصلاحات المطلوبة للجيش بالنسبة لتزايد سكان بروسيا وثروتها وبخاصة مقارنتها في هذا بالإمكانيات المتوافرة لجاراتها، ***والواقع*** أن هجمات آنچلز قد وجهت في غالبيتها ضد البرجوازية التي كانت قد فقدت نفعها الاستراتيچي وفشلت في أن تكسب الجيش في هذه السنوات الحرجة، وقد اعتبر آنچلز أن هذا الفشل إنما هو مسئولية عدم نشاط التطور الديمقراطي في ألمانيا بعد سنة ١٨٧٠ ، وكان تطور الجيش في تقديره وحكمه جزءًا داخليًّا من النمو الاجتماعي.

وفي الدراسات المبكرة ـ مثل المقالات التي كتبت لدائرة المعارف الأمريكية الجديدة التي قام بتحريرها «چورچ ريبلي» و «ا. دانا» طبع نيويورك (١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) ـ أكد ماركس وآنچلز القواعد الاجتماعية والظروف السابقة للتنظيم العسكري في الماضي والحاضر.

وقد تحقق الرجلان إذ ذاك أن الجيش نفسه يمكن أن يستخدم كهيئة

(*) وردت في الأصل الإنجليزي Primer ، وتعني "كتاب مبادئ القراءة" بالمعنى الحرفي. وترجمت هنا بالدراسة الأولية. (المترجم)

اجتماعية من الطراز الأول، كما يمكن أن يكون الجيش السبيل الأساسي لإيجاد مجتمع ديمقراطي، والوسيلة لهذا سهلة ميسورة وتتبع الاتجاهات التاريخية التي أوجدتها الثورة الفرنسية، ولقد شق تحرر البرجوازيين والفلاحين الطريق لتكوين جيش حديث من جمهرة الشعب، وكان التطبيق المستمر للتجنيد العام الذي يضمن تكون الجيش القوي الصالح للدفاع عن الأمة ضد «العالم الخارجي»، على أن يتغلغل الأمر إلى داخلية القوات المسلحة فيحول منها إلى جيش للشعب تبعًا «لثقل» وزيادة عدد أفراد الطبقات «الفقيرة» المنضمة إليه.

وكان من حق آنچلز أن يذكر بالفخر في سنة ١٨٩١ «أنه على نقيض المظهر الذي للخدمة العسكرية الإجبارية فإنها كهيئة ديمقراطية لها الأفضلية وتتوافر لها عوامل التفوق على كل الصور الأخرى للتحرر من القيود وبخاصة تلك التي تجيء عن طريق المنح من الحكومات؛ إن القوة الحقيقية للديمقراطية الاجتماعية الألمانية لا تستند إلى عدد الناخبين بقدر ما تستند إلى عدد الجنود، والناخب لا يستطيع مزاولة حق الانتخاب إلا عندما يصل إلى سن الخامسة والعشرين في حين أن الجندي تبدأ له مكانته في المجتمع عندما يصل إلى سن العشرين، ***والواقع*** أن من الشباب قبل أية مجموعة أخرى من الأمة يجند الحزب أتباعه، وفي سنة ١٩٠٠ سيكون الجيش ـ الذي كان يومًا ما أكثر بروسية! وأكثر العوامل رجعية في البلاد ـ سيكون اشتراكيًّا في غالبيته، ولن يمكن تجنب هذا كما لا يستطيع الفرد الفكاك مما قدر له من جد».

ومن الواضح أن آنچلز قد أخطأ في تقدير العوامل الداخلية للنظريات والمبادئ الراسخة في البلاد؛ ولم يقل عن هذا أيضًا خطوة في تقدير سرعة

سير التطورات التاريخية العظيمة وتحولها من حال إلى أخرى، ومع هذا فإن وجهات نظره هذه كانت جزءًا من اعتقاده المتفائل في التأثير المزدوج النهائي للديمقراطية والاشتراكية.

على أن مثل هذا الاعتقاد من آنچلز بصحة ما يراه لم يوجهه توجيهًا خاطئًا في قلة تقدير الاحتياجات العسكرية لذلك العصر وبخاصة في ضوء التهديد المستمر بحرب عالمية لا مثيل لها في العنف؛ وكان القرار النهائي في مثل هذه الحروب الأوروبية العامة في يد آنچلز تبعًا لأنها تستطيع فرض الحصار البحري على ألمانيا أو فرنسا وبذلك ترغم أيًّا من الاثنين على الخضوع والاستسلام، وقد كتب إلى «ببل»(*) في أكتوبر سنة ١٨٩١: «ولا نستطيع أن نطلب وجوب التغيير الكامل للنظام العسكري الحالي في الوقت الذي ما زال فيه خطر الحرب قائمًا»؛ وفي سلسلة المقالات التي وسمت بعنوان «هل يمكن أن ينزع سلاح أوروبا؟» والتي كتبها سنة ١٨٩٣، اقترح كوسيلة لمنع الحرب أن تخفض مدة الخدمة العسكرية تدريجيًّا وأن يكون هذا باتفاق دولي، وأن تكون هذه الخدمة في البداية لمدة سنتين فقط».

(*) فرديناند أوجست ببل (١٨٤٠ – ١٩١٣) اشتراكي ألماني تولى رياسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولد في كولون وعمل في ليبزج، انضم إلى اتحاد العمال سنة ١٨٦٣ وانتخب سنة ١٨٦٧ لعضوية برلمان شمال ألمانيا ثم لعضوية الريشستاغ سنة ١٨٧١ وكان العضو الاشتراكي الوحيد به وظل مُتمتعاً بعضويته حتى وفاته.

وقد عارض حرب عام ١٨٧٠ ضد فرنسا فسجن سنة ١٨٧٢ بتهمة الخيانة العظمى، وقد كون الحزب الاشتراكي بمعاونة ليبنيشت، وقد مكنته قوة عارضته الخطابية أن تكون له مكانة ممتازة في الحزب وكان من بين الذين اعتنقوا مذهب ماركس وله مؤلفات عدة أهمها: Die Frau und der Socialismus ١٨٨٣., Charles Fourier ١٨٩٠.

E. Encycl. Vol. ٢ pp. ١٧١.

ومع أن آنچلز كان يعمل تبعًا لمعتقداته الأساسية التي يؤمن بصحتها إلا أنه قال في تعقيبه على حديثه عن نزع سلاح أوروبا: «إنني أقبل ما تقبله أية حكومة قائمة من مقترحات على شريطة ألا تعرض أمنها وسلامتها للخطر»؛ ومع اعتباره أن «نظرية الميليشيا» تصلح كغرض نهائي فقد تعجل أن يقول ماركس: «إن المجتمع الاشتراكي وحده هو المجتمع الذي يستطيع أن يصل حقيقة إلى ما يقرب من نظرية الميليشيا تمامًا، وحتى مثل هذا الاقتراب لا يمكن أن يكون تامًّا»(*).

وسواء أكانت آخر تطورات آنچلز تتعارض مع سياسته الثورية في فجر حياته أم لا، فإن هذا الأمر يتطلب حقًّا المناقشة الطويلة. ولكن ما من شك أن «الاشتراكية المتطورة» و «الاشتراكية الثورية» توأمان يمكن أن ينتسبا إليه.

وكان هذا التعارض لا معنى له بالنسبة لآنچلز، وهو كجندي وكمقاتل لم يكن ليقنع بالإصلاحات البطيئة المملة، وفي ذات الوقت فإن الاستراتيجي الاشتراكي العظيم كان أوفر ذكاء من ألا يدرك أن كل قتال إنما يستند تمامًا إلى السلاح المستخدم، وأن كل شعب وكل عصر يتطلب وسيلة مختلفة تباين ما يتطلبه شعب آخر أو عصر آخر.

وقدم آنچلز في أخريات أيامه دليلًا على مثل هذه التغييرات الضرورية في الاستراتيچية الثورية، وجاء هذا الدليل في مقدمته لكتيبه «صراع الطبقات في فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠» عند إعادة طبعه في لندن سنة ١٨٩٥ ، والذي

(*) في الأصل الإنجليزي Asymptotic ، وتعني في المعنى الحرفي النظرية القائلة بأن الخط المستقيم يقترب جداً من القوس المنحني المرسوم أسفله ولكنه لا يُقابله قط. مُعجم ويبستر ص ٩١.

نشر سنة ١٩٢٢ في نيويورك بعنوان «القانون الثوري»، وقال آنچلز في هذه المقدمة: «إن أساليب القتال في سنة ١٨٤٨ لم تعد تصلح للقتال اليوم بأية حال، لقد ذهب عصر المتاريس التي كانت تستخدمها الثورات في أركان الطرق».

والواقع أن آنچلز كان محقًّا في الإشارة إلى أنه «حتى في أثناء العصر الكلاسيكي لمعارك الشوارع كان للمتاريس تأثير معنوي أكثر من أن يكون التأثير ماديًّا»، فإنها إذا بقيت حتى تهز من الثقة التي في نفوس أفراد القوات العسكرية أمكن اكتساب النصر وإلا كان معناها الهزيمة، وحتى في سنة ١٨٤٩ كانت فرص النجاح قليلة، «فقد فقدت المتاريس ما لها من رواء ولم يعد كجندي يرى وراءها أناسًا بل ثوارًا، وقد أضحى الضابط ـ مع الوقت ـ خبيرًا بتكتيكات وصور معارك الشوارع، ولم يعد يسير في خطوط مستقيمة وبلا ساتر نحو هذه الدفاعات، بل أضحى يعمل لتطويقها مارًّا بالحدائق والأفنية والدور».

ومنذ ذلك الوقت تغيرت أشياء كثيرة كلها في جانب القوات العسكرية، وبقي أسوأ ما في الأمر وحده هو الذي في جانب الثوار الذين يقفون وراء المتاريس، إن الأحياء الجديدة والتي شيدت في كل المدن الكبيرة منذ سنة ١٨٤٨ قد خطت في طرقات طويلة مستقيمة واسعة وكأنها قد أعدت خصيصًا للاستخدام المؤثر للمدافع والبنادق الجديدة[١]، فيجب ألا تتوقع الطبقات الحاكمة أن يتخير الثوار هذه الأحياء الجديدة لمعركة «متاريس»

(١) لاحظ الفرق الكبير في بناء أحياء الطبقات العاملة التي أُنشئت في ڤيينا أيام الجمهورية، والظاهرة الاستراتيچية التي لهذه الأبنية المتراصة في مربعات والتي جعلتها أشبه بالقلاع ثم تأثير هذا في حوادث سنة ١٩٣٤.

ولا «أن يطلبوا من أعدائهم في الحرب القادمة أن يواجهوهم في التشكيل الخطي الذي أوجده فردريك الثاني أو في تشكيلات القول للفرقة كما حدث في واجرام ووترلو. لقد انتهى الوقت الذي كان يمكن فيه قيام الثورات عن طريق أقلية صغيرة تسير في مقدمة الجماهير، وعندما يصل الأمر إلى التغير الكامل للتنظيم الاجتماعي فإن الجماهير نفسها يجب أن تسهم في هذا التغيير والانتقال، وأن تفهم الكثير مما علمنا التاريخ في الخمسين سنة الأخيرة».

وكان طابع ذلك العصر محاولة الدولة القيام بعملية غزو قانونية، ولم تكن هناك غير وسيلة واحدة يمكن بها وقف النمو المطرد للقوى الاشتراكية؛ تلك هي الاصطدام بها على نطاق واسع بواسطة القوات العسكرية، فتسفك الدماء بغزارة كما حدث في حكومة باريس الثورية(*) عام ١٨٧١ والتي عاشت لفترة قصيرة جدًّا.

وقد امتدحت هذه المحاولة الأولى «لجمهورية اشتراكية» في كل الكتابات التي قدمت الدروس العظيمة للثوار في حقب السنين التي تلت هذا، وقد حللها ماركس بعناية في دراسته «الحرب الأهلية في فرنسا ـ ١٨٧١»، ولا شك أن آراء «لينين» قد تأثرت كثيرًا بهذا الحادث، وقد كان تأثيرها واضحًا في التطورات الأولية للنظام السوڤيتي، ومع هذا فإن المجتمع الشيوعي لم يقترح شيئًا له قيمة في الاستراتيچية العسكرية للثورات الاجتماعية،

(*) "Paris Commune" وتُطلق هذه التسمية على:
١ - الحكومة الثورية في باريس ١٧٩٢ - ١٧٩٤.
٢ - الحكومة الثورية التي أنشئت في باريس في ١٨ مارس ١٨٧١ عند انتهاء الحرب الفرنسية - البروسية، وقد قضت عليها حكومة فرسايل في ٢٨ مايو ١٨٧١. (المترجم) "معجم ويبستر ص ٢٩٦".

والواقع أن تجديد تشكيل حكومة ثورية وإن كان يحمل في أعطافه التهديد بانقلاب فجائي ضد قوى الرجعية إلا أنه لم يكن بين الآراء التي عرض لبحثها الاستراتيجي الكبير آنجلز، بل إنه في هذه المرحلة الأخيرة من حياته الثورية رأى انتصار الاشتراكية عن طريق «النظرية الديمقراطية للتصويت والانتخاب» وعن طريق «الحصول على حقوق المواطنين»، كما رأى انتصار الديمقراطية نفسها عن طريق الخدمة العسكرية العامة.

لقد كانت «الأمة المسلحة» هي «النموذج المثالي» في تقدير آنجلز كاستراتيجي عسكري؛ وقد رأى آنجلز أن استهداف تدمير الروح العسكرية في المجتمع القائم إذ ذاك يعتبر فكرة غير هامة يسهل تفتتها والقضاء عليها.

وقد ظهر له بدلًا من هذا أن اقتلاع التقاليد الإقطاعية وإيقاظ الاتجاهات الديمقراطية في الخدمة العسكرية الإجبارية العامة يعتبر هو السياسة الوحيدة التي يمكن بها أن تتوافر الآمال التي يهدف لإدراكها؛ وكان أتباعه في القرن العشرين كثيرين، ووصل تأثيره إلى ما وراء صفوف الحزب بكثير.

لقد كان لمبدأ «الأمة المسلحة» أثره الكبير في روسيا السوڤييتية، وقد تحول ليكون المبدأ الحاكم الموجه للديمقراطيات العسكرية في الحرب العالمية الثانية، ولا شك أن آنجلز كان يتفق مع واحد من أبرز خلفائه هو الاشتراكي چان چوريس[١] الذي قال في كتابه «الجيش الجديد»:

---

(١) چان ليون چوريس (١٨٥٩ - ١٩١٤) زعيم اشتراكي فرنسي وكاتب كبير، تولى سنة ١٨٨٣ منصب الأستاذية لتدريس الفلسفة في جامعة تولوز، ولكنه استقال بعد سنتين عند اختياره عضواً في الجمعية الوطنية، احتضن قضية العمال في إضرابات عمال الفحم والزجاج بمدينة "كارمو" وقد لفتت وقفته هذه الأنظار إليه مما جعله يتولى زعامة=

«...وستكون الحكومات أقل تأهبًا لتحلم بالسياسة المخاطرة فيما إذا كانت تعبئة الجيش هي تعبئة الأمة نفسها، فإذا ما هوجمت أمة راغبة في السلام بواسطة حكومات مخاطرة تعمل للحصول على كسب كبير، أو لأنها تحاول التخلص من مشاكلها وصعابها المدنية فإننا في هذه الحال نشاهد حقيقة حربًا أهلية؛ إن «الأمة المسلحة» تمثل أصلح وأحسن نظام للدفاع الوطني في أكمل صوره، وإن «الأمة المسلحة» هي بالضرورة أمة تدفعها العدالة، ولهذا فإن هذا المبدأ سيجيء إلى أوروبا بعصر جديد، إنه سيجيء بالآمال في العدالة والسلام».

***

=الاشتراكيين في المجلس الوطني سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٢ عندما أثارت قضية دريفوس ضجة كان له دور كبير فيها، له عدة مؤلفات أهمها "التاريخ الاشتراكي، ١٧٨٩ – ١٩٠٠" الذي طبع سنة ١٩٠١، وفي يوم ١٦ يوليو ١٩١٤ اقترح الاشتراك في المؤتمر الذي عقد في باريس للقيام بإضراب عام لمنع الحرب العالمية الأولى فاغتيل بسبب هذا بأن أطلق عليه مجهول الرصاص في شارع دي كرواسا يوم ٣١ يوليو (المترجم) "مُعجم ويبستر ص ٧٨٤" E. Encycl. Vol v pp. ٧٣٥.

مراجع الفصل السابع

آنجلز وماركس

– Karl Marx-Friedrich Engels, Historisch Kritische Gesamtausgabe, "Moscow, ١٩٢٧ – ١٩٣٥".

– Karl Marx and Friedrich Engels: Correspondence ١٨٤٦ – ١٨٩٥ "New York, ١٩٣٤"

– Franz Mehring,: Aus dem Literarischen Nachlass von Karl Marx Friedrich Engels and Ferdinand Lasalle "٢nd., ed., Stuttgart ١٩١٣".

– D. Ryazanov, Gesammelte Schriften von Karl Marx and Friedrich Engels ١٨٥٢ bis١٨٦٢, ٢ Vols ."٢nd. ed., Stuttgart ١٩٢٠"

– Emil Burns, A Handbook of Marxism "New York, International Publishers, ١٩٣٥"

– V. Adoratsky, Karl Marx: Selected Works, ٢ Vols ."Moscow, ١٩٣٥".

– Gustav Mayer, Friedrich Engels, eine Biographie, ٢ Vols ."Haag, ١٩٣٤"

– Gustav Mayer, Friedrich Engels, eine Biography ."London ١٩٣٦".

– D. Ryazanov, Karl Marx and Friedrich Engels ."New York, ١٩٢٧".

– Franz Mehring, Karl Marx, Geschichte seines Lebens ."Leipzig, ١٩١٨".

– Edward Fitzgrald, Karl Marx: the Story of his Life ."New York, ١٩٣٥"

– Hans Rothfels ،"Marxismus und Auswartige Polotik", Meinecke Festschrift: Deutscher Staat und Deutsche Parteien ." Munich, ١٩٢٢".

– Oskar Blum, "Die Weltpolitischen Lehrjahre von Marx und Engels" Archiv fur Sozialwissenschaft und Sozialpolitik, XLIV (١٩١٧–١٩١٨), ٥٣٠–٥٦٦.

– Hertneck, Die deutsche Sozialdemokratie und die orientalische Frage im Zeitalte: Bismarcks ."Diss, Berlin, ١٩٢٧,".

– August happich, Friedrich Engels als Soldat der Revolution, "Hessische Beitrage zur staat und Wirtschaftskunden ١٩٣١".

– Ernest Drahn, Friedrich Engels als Kriegswissenschaftler) Kultur und Fortschrift, Nos .(٥٢٤–٥٢٥).

– Max Schippel, "Friedrich Engels als Militar politischer Fuhrer" Sozialistische Monatschefte, XXI (١٩١٢) ١٢٢٢–١٢٢٧.

– Max Schippel, "Die Miliz und Friedrich Engels" Sozialistische Monatschefte XX (١٩١٤) ٢٠–٢٧.

– Hugo Schulz, "Der General", Der Kampf XVIII, ٣٥٢–٣٥٧ ."Vienna, ١٩٢٥".

الفصل الثامن

مولتكه وشيلفن: المدرسة البروسية - الألمانية

هاجو هولبرن

تباعدت بروسيا عن الاشتراك الإيجابي في الحروب الأوروبية لنصف قرن كامل من الزمان بعد صلح «ڤيينا»، وعندما كان الجيش البروسي أكبر قوة في قارة أوروبا في عام ١٨٦٠ كانت قد مرت بهذا الجيش حقبتان من السنين بغير تجربة عملية في الحرب وإن كان قد قام ببعض الحملات غير البارزة في أثناء ثورة ١٨٤٨ / ١٨٤٩، كما أنه عبئ أكثر من مرة على التوالي بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٥٩ كلما توقع صراعًا لم يتم، وفي الوقت نفسه كانت الجيوش الروسية والنمساوية والفرنسية والإنجليزية تقاتل في حروب متتالية، على أن الأفضلية التي توافرت للجيش البروسي في الحلقة السادسة من القرن التاسع عشر إنما كانت بسبب تنظيمه وتدريبه في وقت السلم، ثم بسبب الدراسة النظرية للحرب، هذه الدراسة التي وصلت إلى الكمال في نصف القرن الذي سبق «سادوڤا» و«سيدان».

ويرجع وجود الجيش البروسي للقرن التاسع عشر إلى أربعة رجال هم: فردريك الأكبر، نابليون، شارنهورست، ثم چينيسناو.

وقد خلف فردريك وراءه ذكريات مجيدة لانتصارات باهرة هي من أهم الضروريات ليفخر بها الجيش ولتوطد في أفراده جملة الثقة بأنفسهم، وبالإضافة إلى هذا فقد غرس فردريك في خلفائه العسكريين المعرفة بأنه

حتى في فترات السلم يجب أن ينصرف الجيش كله إلى العمل العنيف الشاق المتواصل، وأن المعارك إنما تكسب أولًا في أرض التدريب؛ ومما لا شك فيه أنه كان في الجيش البروسي تقدير يزيد عن الحد لدقائق الحياة العسكرية حتى ما بدا منها تافهًا هين القيمة، الأمر الذي عدلت من توازنه أصلًا العبقرية الاستراتيجية للملك.

والواقع أن فردريك لم يدرب جيلًا من الاستراتيجيين الشبان، بل كان غازيًا أجنبيًّا هو الذي ذكَّر البروسيين بالدور الذي تلعبه الاستراتيجية في صناعة الحرب، وكان ضابطان في فجر العمر ليسا ألمانيي المولد هما اللذان كوَّنا الجيش البروسي، وقد فعلا هذا ـ إلى حد بعيد ـ على أساس الطابع الفرنسي الحديث؛ وبذلك كان نابليون هو ثاني الرجلين اللذين أوجدا الجيش البروسي، ثم بعد معركة يينا، كيَّف شارنهورست وجينيسناو الجيش البروسي طبقًا للطابع الجديد للحرب.

وقد عرف المصلحان العسكريان البروسيان أن أساليب الحرب الحديثة إنما هي إيضاح للتطورات الاجتماعية والسياسية العميقة الأثر والتي جاءت بها الثورة الفرنسية؛ كان جيش فردريك الأكبر قوة من المأجورين ينعزل أفرادها تمامًا عن المجتمع المدني الأهلي، وكان الضباط الذين هم أصلًا من طبقة الأشراف وحدهم الذين يعرفون الشرف والولاء، على حين كان باقي أفراد الجيش والذين هم في صفوف الجند لا يعيشون متماسكين معًا إلا بالضبط والربط العنيف.

وقد تولى المصلحان العسكريان البروسيان تحويل جيش عصر الطغيان

والأوتوقراطية(*) إلى جيش قومي أهلي، ولتحقيق هذا أدخلا نظام التجنيد الإجباري في طابع أكثر تحولًا نحو التغير الاجتماعي من أية محاولات سابقة؛ وقد عطلت معاهدة تيليست(**) التي فرضها نابليون على بروسيا من التفهم المباشر لآراء شارنهورست، ولكن مشروع القانون العسكري البروسي لعام ١٨١٤ والذي وضعه تلميذه «بوين» Boyen جعل تخطيط شارنهورست هو الصورة الدائمة للنظام العسكري البروسي.

وكان التجنيد قد بات القاعدة العامة على التخصيص بالنسبة لكل الدول التي في قارة أوروبا، ولكن كان التجنيد في هذه الدول كلها عدا بروسيا وقفًا على الفقراء، فقد سمح لمن يملك مالًا أن يدفع «نقدًا» بدلًا من خدمة الجندية أو أن يقدم بديلًا عنه لخدمة الجندية، ولكن كان الأمر على نقيض هذا في بروسيا فقد أسهمت كل طبقات الشعب في خدمة الجندية، فكان جيش بروسيا جيشًا له الطابع القومي أكثر مما لأي جيش آخر في أوروبا؛ ومن سوء الجد أن البروسيين ليسوا مواطنين ديمقراطيين

(*) في الأصل "Despotism"، وتعني الحكم أو الحكومة التي تتولاها Despot أي طبقة خاصة من الحكام كما كانت الحال بالنسبة للأباطرة البيزانطيين الذين كانوا أساقفة في الكنيسة اليونانية القديمة. (المترجم) "مُعجم ويبستر صفحة ٣٩٨".

(**) تيليست مدينة على نهر ممل يسكنها ٥٧٠٠٠ نسمة كانت في بروسيا الشرقية وتقع في غرب روسيا السوڤيتية الآن؛ وصلح تيليست هو الصلح الذي تم سنة ١٨٠٧ بين فرنسا من جانب والروسيا وبروسيا من الجانب الآخر، بعد هزيمة الروس في فريالاند، وقد وجد نابليون أن من صالحه أن يُعامل الروسيا برفق فأطلق يدها في السويد وتركيا على أساس أن تظل في داخل النظام الذي أوجده لقارة أوروبا، أما بروسيا فقد فقدت ممتلكاتها غرب الألب كما فقدت ما استولت عليه من بولندة في تقسيم ١٧٩٣ – ١٧٩٥، وكما فرض عليها غرامة مالية كبيرة وخفض جيشها العامل إلى ٤٢٠٠٠ جندي. (المترجم)

فقد ظلوا رعايا لنظام دكتاتوري مطلق الحكم، كما أنه كان لأشراف الأقاليم البروسيين مكان ملحوظ في الجيش وأعمال الحكومة، وبقيت طبقة اليونكرز(*) تحتكر وظائف الضباط في الجيش، وأضحت الخدمة الأهلية والتي كانت الطابع المنطقي ومظهر الفكر المتحرر في أمريكا وفرنسا، أضحت في بروسيا عاملًا لدعم قوة الدولة المطلقة الحكم.

وضاع حلم المصلحيْن العسكريين البروسيين اللذين أملا في إيجاد جيش للمواطنين في غمرة الأعمال السياسية المضادة بعد سنة ١٨١٥، كان كل ما خلفاه وراءهما من معرفة استراتيجية وتكتيكية قد حظي من الناحية العملية بدرجة كبيرة من التقدم وإن كانت المدرسة القديمة نفسها قد حصلت على بعض النجاح؛ وقد حاول قانون خدمة الميدان البروسي لسنة ١٨٤٧ أن يعيد إلى الحياة التكتيكات الفردريكية التي كانت أوامر شارنهورست لسنة ١٨١٢ قد استبعدتها؛ فإن آراء شارنهورست وجينيسناو الاستراتيجية لم تغفل تمامًا في الجيش البروسي.

والواقع أن هذين الضابطين اللذين جاءا من أسرتين هانوڤرية ونمساوية كانا وحدهما، من بين كل الذين عاشوا في عصر نابليون، اللذين يمكن أن يقال عنهما أنهما كانا في ذات مرتبة نابليون في صناعة الجندية وفن الحرب. وقد حالت وفاة شارنهورست المبكرة والتي حدثت في صيف سنة

(*) "اليونكرز" اصطلاح يُستخدم للتعريف بأفراد طبقة ملاك الأراضي في بروسيا وشمال ألمانيا عامة وقد بقي لهذه الطبقة نفوذها القوي في الحياة العسكرية في ألمانيا حتى ثورة عام ١٩١٨، واستخدم هذا الاصطلاح أيضاً للتعريف بكبار رجال التجارة في مدينة دانزنج الميناء الحر بعد الحرب العالمية الأولى وأحد أسباب الحرب العالمية الثانية، وقد استخدمت الكلمة الإنجليزية في عصر الياصابات للتعريف بالرجل الشجاع ذي المروءة. (المترجم)

١٨١٣ دون توليه القيادة العليا في الميدان، على أن رياسة چينيسناو لهيئة أركان الحرب البروسية من ختام سنة ١٨١٣ إلى صيف سنة ١٨١٥ قد أثبتت أن المدرسة البروسية الجديدة للفكر العسكري لا يمكن فقط أن توجد فلسفة جديدة بل وأن تخرِّج أناسًا يستطيعون أن يضعوا نظرياتهم في الأسلوب العملي التطبيقي.

وقد حدث نقاش طويل لتقدير أي الرجلين كان هو القائد الأكبر أو الأعظم، وقد أعطى كلاوزيڤيتز ـ والذي كان صديقًا وتلميذًا للاثنين ـ تاج الإمارة لشارنهورست بسبب امتزاج عقليته الناضجة المفكرة بالتعمق ودقة العمل؛ ولكن شليڤن يقرر أن چينيسناو هو أقدر الاثنين وأعظمهما بسبب ما توافر له من عمق التفهم ودقة الحكم مع العزيمة في ميدان القتال، ومع هذا فإنه من وجهة النظر التاريخية قد يكون من الأهمية بمكان أن نذكر بأن كلا الضابطين سواء شارنهورست الهادئ الطبع أو چينيسناو الكريم السريع التفكير والعمل إنما يمثلان طابعًا جديدًا للقادة، فقد ولد كل من الرجلين قائدًا للرجال وربما كان أولهما أقدر على إعدادهم للحرب وثانيهما أقدر على توجيههم في ميدان القتال، ولكن كلا الرجلين اللذين ولدا في ألمانيا في العصر الفلسفي ـ العصر الذي جاء فيه «كانط» و «جوته» ـ قد آمن بأن التفكير يمكن أن يعير العمل التنفيذي الأجنحة التي تمكنه من الانطلاق.

لقد وثبت الاستراتيچية البروسية الجديدة من التفهم الأصيل لفن نابليون، وبدت كتابات چوميني لكل طلاب القرن التاسع عشر الذين درسوا الحرب قبل سادوڤا وسيدان على أنها المرجع الوحيد والأخير لاستراتيچية نابليون؛ ألم يقل نابليون نفسه أن هذا الرجل السويسري قد كشف عن أعمق أسرار استراتيچيته؟! وبالرغم من أن نابليون كان يمتدح

جوميني إلا أنه قد أشار بأن چوميني قدم فقط المبادئ الأساسية تاركًا السبيل لعبقرية الفرد لتعمل تبعًا لما يتوافر له من مقدرة وكفاية[١].

ولم تتوافر لمنطق چوميني الكفاية ليقدر في عدالة الهبة والدوافع الغريزية التي كانت هي القوة الخفية المحركة لأعمال نابليون، أن الشروح والتفاسير التي جاء بها شارنهورست لاستراتيچية نابليون والتي وجهت چينيسناو في إدارته لعمليات ١٨١٣ ـ ١٨١٥ قامت على أساس طريقة تاريخية استدلالية جعلت مرجع الأمر كله إلى تصوير القائد والنشاط المعنوي لجنوده، وقد وجدت هذه الفلسفة الجديدة المتسع في كتاب كلاوزيڤيتز «فن الحرب» الذي يمكن من أن توضح في إفاضة وفي أسلوب جيد.

وقد وضعت المدرسة البروسية الجديدة للاستراتيچية عمدها في داخل هيئة أركان الحرب البروسية التي كانت عصب الجيش ورأسه المفكر، على أن تكوين هيئة أركان الحرب البروسية يرجع في الواقع إلى حقبة من السنين قبل عام ١٨٠٦، وإن كانت لم تصل إلى مكانتها البارزة البراقة قبل عهد شارنهورست، فلما أن أعاد شارنهورست تنظيم وزارة الحرب في عام ١٨٠٦ أوجد إدارة خاصة وكّل إليها التخطيط لتنظيم الجيش وتعبئته في وقت الحرب، على أن تتولى هذه الإدارة أيضًا في وقت السلم كل ما يختص بالتعليم والتدريب في الجيش.

«ولم تقف مسئوليات هذه الإدارة عند هذا الحد»، فقد جاء أيضًا تحت إشرافها كل ما يختص بالإعداد للعمليات الحربية من أعمال المخابرات والمساحة العسكرية، وكذلك كل ما يختص بالإعداد والتوجيه في «التكتيك»

---

(١) General Baron Gourgaud, Sainte Hélène, Journal inédit, ١٨١٥ à ١٨١٨ (Paris, ١٨٩٩), II, ٢٠.

و«الاستراتيجية».

وقد احتفظ شارنهورست لنفسه كوزير للحربية برياسة هذه الإدارة، وبذلك كان تأثيره كبيرًا في التفكير التكتيكي والاستراتيجي للضباط الذين يعملون بهذه الإدارة؛ لأنه كان هو الذي يتولى تدريبهم في مباريات الحرب ومناورات أركان الحرب.

ولما أصبح عادة أن يعين هؤلاء الضباط في مراكز أركان الحرب لمختلف وحدات الجيش فقد امتدت سيطرة رئيس هيئة أركان الحرب بواسطتهم على كل القادة، وكان الضباط الشبان الذين يرتدون السراويل القرمزية هم الرسل الذين ينقلون التوجيه الاستراتيجي إلى كل أقسام الجيش.

وفي إدارة شارنهورست كانت هيئة أركان الحرب قسمًا من وزارة الحرب «وزارة الحربية»، وكان من الضروري أن يظل الأمر كذلك لو كانت ألمانيا قد عرفت الحكم النيابي، ولكن تنظيم الحكومة البروسية على أساس الحكم المطلق جعل تقسيم المسئولية العسكرية إنما يتبع القيادة العليا التي يتولاها الملك نفسه.

وفي عام ١٨٢١ عين رئيس هيئة أركان الحرب كمستشار أعلى للملك في كل المسائل العسكرية، وحدد دور وزارة الحرب بالسيطرة السياسية والإدارة على الجيش فقط، وكان لهذا القرار تبعاته البعيدة المدى؛ إذ أنه مكَّن من أن تكون لهيئة أركان الحرب اليد الطولى الموجهة في كل المسائل العسكرية ليس فقط بعد إعلان الحرب، بل وحتى في مرحلة الإعداد للحرب.

* * *

[٢]

وكان مولتكه موفقًا مجدودًا لأن ينتفع بكل هذه الآراء والتعاليم التقليدية والتي أمكن الوصول إليها في حروب التحرير، وكان مولتكه ـ كشارنهورست وچينيسناو ـ هو الآخر ليس بروسيًّا بالمولد بل جاء إلى بروسيا من منطقة مجاورة هي مكلنبورج، وكان أبوه ضابطًا في جيش ملك الدانيمارك، وكان كدوق شليزويج وهولستين أميرا ألمانيا، وقد نشأ مولتكه يطلب العلم في معاهد الدانيمارك، وخرج من المعهد العسكري ليرتقي إلى رتبة الملازم في سنة ١٨١٩، ولكن كانت كل العوامل تدفعه لهجرة البلاد، فهو لم يكن سعيدًا في حياته المدرسية، ولم تكن صلته بأبيه قوية، ثم إنه لم تكن في خدمة الجيش الدانيماركي الفرصة التي يرجوها من يحفزه الطموح دائمًا؛ وقدم مولتكه طلبًا للخدمة في الجيش البروسي الجيش الذي كان أبوه نفسه قد بدأ فيه حياته العسكرية قبل أن ينتقل إلى الجيش الدانيماركي.

«ومع أن البروسيين كانوا يشجعون من يريدون الالتحاق بجيشهم» فقد وضعوا الملازم الصغير في مواجهة امتحان عنيف، ثم جعلوه يبدأ من جديد من أولى درجات السلم العسكري، وبعد سنة كاملة منحوه فرصة للالتحاق بالكلية الحربية التي كان يديرها كلاوزيڤيتز. على أن كلاوزيڤيتز نفسه لم يكن يلقي على طلبة معهده العسكري أية محاضرات ولهذا فإن مولتكه لم يتأثر به من قريب أو بعيد حتى كان عام ١٨٣١ عندما طبعت مؤلفات كلاوزيڤيتز في المجموعة التي قربت الرجل ودراساته إلى المتعلمين.

وقد رغب مولتكه مدة بقائه بالمعهد العسكري في دراسة علوم الجغرافيا

والطبيعة والتاريخ العسكري، العلوم التي كانوا يحسنون عرضها في ذلك المعهد، فلما رجع مولتكه إلى وحدته سنة ١٨٢٦ قضى سنتين في دراسة نظرية وفي تدريس هذه العلوم الثلاثة لضباط وحدته، وفي سنة ١٨٢٨ نقل إلى هيئة أركان الحرب التي ظل من ضباطها لأكثر من ستين سنة.

على أن مولتكه فيما عدا السنوات الخمس التي قضاها كملازم في الجيشين الدانمركي ثم البروسي لم يعمل في الوحدات قط، ولم يتول قيادة سرية ولا أية وحدة مماثلة حتى تولى وهو في الخامسة والستين من سنه قيادة الجيوش البروسية كلها في الحرب ضد النمسا.

وكان مولتكه قد قضى السنوات بين ١٨٣٥ و ١٨٣٩ في تركيا كمستشار عسكري «للباب العالي» وهو برتبة اليوزباشي، وهي رتبة لم تكن لتجعل منه قوة في وجه القادة الأتراك، ولهذا فإن أحدًا لم يقدِّر نصائحه، وهكذا شهد مولتكه الحروب التي قام بها محمد علي ضد العثمانيين وعاش أسوأ أيام حياته وسط جنود مهزومين.

فلما عاد مولتكه من جديد إلى برلين كان يقف على باب عهد جديد من الرخاء بالنسبة له، ***والواقع*** أنه عاش كملازم وهو لا يجد ما ينفقه حتى أنه اضطر ليكتب بعض القصص القصيرة لمجلة شعبية وأن يكتب بعض الموضوعات التاريخية لصحيفة أخرى، وعندما أراد أن يشتري جوادًا ليعد نفسه لوظيفة في هيئة أركان الحرب اضطر لأن يترجم ستة مجلدات من تاريخ چيبون(*)، على أنه لم يلبث أن اكتشف أن الناشر الذي اتفق معه قد أفلس، ومن الغريب أن الرجل مع هذه المشكلات المادية التي تأخذ بخناقه

(*) إدوارد چيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤) مؤرخ إنجليزي، أهم كتبه "اضمحلال وسقوط إمبراطورية روما"، وقد وضعه مؤلفه هذا في مصاف أقوى كُتاب التاريخ في العالم.

قد استطاع أن يصل إلى حصيلة طيبة من العلم سيما في العلوم الثلاثة التي استهوته من البداية، وهكذا تعمق في دراسة قوة تعبيرية كبيرة وجعلت منه واحدًا من أعظم الكتاب الألمان.

ومع هذا فإنه لم يكن من رجال السياسة، بل ولم تكن فيه أية أصالة في التفكير السياسي، وبهذا كان على نقيض شارنهورست وچينيسناو فقد كان الاثنان من رجال السياسة كما كانا قائدين عسكريين، وقد اتجهت اصطلاحاتهما العسكرية مباشرة إلى إصلاح حياة الأمة عادة، وجعلهما هذا موضع شك المحافظين من رجال البلاط البروسي بل وموضع شك كل دوائر البلاطين النمسوي والروسي، ولهذا فإنه عندما وضحت هزيمة نابليون وبدا أن الثورة الفرنسية بدورها قد قهرت أطلق عليهما اسم «اليعقوبيين» وأحيلا إلى التقاعد.

ولكن مولتكه، وإن كان لم يسهم بصورة إيجابية في الشئون السياسية ولم يعن بالسؤال عن السلطة القائمة بالأمر، فإنه كان على دراية تامة بالعلاقة الوثيقة بين السياسة والقيادة، وكانت تستهويه الدراسة الشخصية للاتجاهات والآراء السياسية، فقد كان مقتنعًا بسيادة الحكومة الملكية مقدرًا لها تركها العسكريين أحرارًا في إدارة المسائل الخاصة بالجيش دون أي تدخل من غير الأخصائيين المحترفين. وكان مولتكه راضيًا عن هزيمة الأفكار التحررية الألمانية التي كانت عامل ثورة سنة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ ، كما كان لها نفس الأثر مرة ثانية في ثورة عام ١٨٦٠ .

وكان من الضروري لضابط هذه حاله وهذه وجهات نظره السياسية مع سعة الاطلاع وغزارة العلم أن تحسن وفادته في البلاط، وفي سنة ١٨٥٥ عينه فردريك ويليام الرابع ياورًا لابن أخيه الأمير فردريك ويليام الذي كان

إمبراطورًا فيما بعد باسم فردريك الثالث، ومكنه هذا من الاتصال «بالأمير الجندي»، ويبدو أن ويليام الأول قد كشف عن مواهب مولتكه، المواهب التي رشحته لوظيفة رئيس هيئة أركان الحرب.

وكان من أول أعمال ويليام في عام ١٨٥٧ عندما تولى الوصاية على عرش بروسيا أن عين مولتكه في الوظيفة التي رشحته لها مواهبه، ولكن ويليام كان يهتم بالسياسة وبالتنظيم الفني للجيش ولهذا فقد قرب منه وزير الحرب «رون»(*) الذي طغت شخصيته على شخصية الرجل الصامت رئيس هيئة أركان الحرب وباعدت بينه وبين الكثير من المجالس الحكومية.

وقد استهدف ويليام ورون من الإصلاحات التي اقترحاها وعملا على تنفيذها زيادة كفاية الجيش. ولكن هذه الإصلاحات استهدفت على مدى الوقت إلغاء كل التشكيلات القريبة من الطابع العسكري والتي تتوافر فيها الروح التحررية الشعبية، وهكذا بترت وضغطت «قوات التريتوريال» و «الحرس الوطني»، وتم هذا كله من أجل زيادة الجيش العامل، وقد مكن هذا فيلق الضباط المحترفين من السيطرة على كل التشكيلات العسكرية للأمة.

وقد حارب البرلمان البروسي هذه الإجراءات، ولكن هذا التخطيط لإعادة التنظيم كان موضع التنفيذ تحت إدارة بسمارك حتى دون الحصول على موافقة المجلس النيابي؛ وقررت استراتيجية مولتكه الناجحة أمرين:

أولهما: نهضة ألمانيا المتحدة وتقدمها على كل أمم أوروبا.

(*) رون Roon إميل (١٨٠٣ – ١٨٧٩) قائد سياسي بروسي ولد في جليشاجن سنة ١٨٠٣ عمل وزيراً للحرب ومساعداً لبسمارك في السياسة لأمد طويل من حياته السياسية. "معجم لاروس ص ١٦٣٢"

وثانيهما: انتصار الملكية البروسية على المعارضة الديمقراطية المتحررة في ألمانيا تبعًا للاحتفاظ بالسلطة في الجيش البروسي.

وكان الدور الذي قام به رون كوزير للحرب في سنوات الصراع السياسي قد جعله أكبر شخصية في الجيش قبل عام ١٨٦٦، وقد اعتاد ويليام الأول أن يتلمس النصائح من وزير حربيته حتى كان رئيس هيئة أركان الحرب في حكم الشخص المنسي، ***والواقع*** أن مولتكه العزوف عن المظاهر البراقة لم يكن معروفًا في دوائر الجيش حتى أنه في معركة «سادوا» بعث بأحد ضباط رياسته يحمل أمرًا إلى قائد إحدى الفرق، وأنصت القائد للأمر وتلا الرسالة متمهلًا ثم قال: «هذا جميل.. ولكن من هو الچنرال مولتكه هذا؟!!»، وكان وصول مولتكه إلى مركز الصدارة بين مستشاري الملك مفاجأة غير متوقعة بالرغم من أنه أمر منطقي في تاريخ العسكرية البروسية منذ أيام شارنهورست وچينيسناو.

وكان تباعد مولتكه عن مسرح السياسة في السنوات من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٦ قد طوَّع له من أن يوجه كل عنايته إلى إعداد كل مطالب العمليات الحربية المقبلة؛ وكانت ثورات عام ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ وقيام الإمبراطورية الثانية في فرنسا ثم اشتعال نيران حرب القرم قد أوضحت كلها بداية عصر جديد في التاريخ الأوروبي، كما أوضحت إمكان استخدام القوة الحربية بطلاقة في هذا العصر الجديد. وقد بدأ مولتكه لتوه مراجعة كل الخطط التي وضعتها هيئة أركان الحرب الألمانية قبل تولية رياستها، وكان سلفه الچنرال رايهر واحدًا من القادة البروسيين القلائل الذين جاءوا من الصفوف؛ ***والواقع*** أنه كان رجلًا واسع التصور، وكان أستاذًا ممتازًا للاستراتيچية ؛ وكان في استطاعة مولتكه أيضًا أن يعتمد على كفاية وحسن إعداد الضباط

البروسيين مما يمكنهم من إيجاد الحلول الصحيحة للمشكلات التكتيكية في الحرب، ويجب أن نذكر بأن الضباط البروسيين بمجرد أن اجتازوا حدود بوهيميا للقتال ضد النمسا قد أسقطوا من أيديهم في صمت كتاب «تعليمات خدمة الميدان» الصادر سنة ١٨٤٧ وبدأوا يعملون بآرائهم الخاصة في فن القتال.

ومسألة أخرى، فإن تشكيلات السلم للجيش البروسي كانت أكثر تطورًا وتقدمًا من تشكيلات أية أمة أوروبية أخرى، وكانت كل وحدات الجيش البروسي عدا وحدات الحرس تجمع جنودها واحتياطيها من المناطق المحلية التي تعسكر بها، وهذا أمر لم تستطع أن تفعله إمبراطورية هبسبورج مع مشكلاتها الخاصة بالقومية تبعًا لتباين أصول الناس.

وكان الجيش البروسي أيضًا قد احتفظ منذ سنة ١٨١٥ بتشكيل الفيلق، التشكيل الذي أوجده نابليون في حملاته الحربية والذي أغفلته فرنسا في حكم البوربون ونفضت يديها منه، وإن كان هذا التشكيل في الحقيقة يتأثر بسرعة التعبئة كما يتأثر بطاقة الجنود والقادة للقيام بالعمليات الحربية في مدى واسع.

وكانت «التعبئة» في الجيش البروسي سريعة نسبيًّا قد زاد مولتكه من هذه السرعة، إلا أن البناء الجغرافي «غير السعيد» السيئ الذي كانت تكونه بروسيا إذ ذاك بامتدادها الكبير من الشرق إلى الغرب بين إكس لوشابل وتيليست، كان يزيد مشاكل بروسيا العسكرية، وقد جاء عصر السكك الحديدية بعلاج لهذه المشكلة انتفع به مولتكه إلى غاية ما يستطاع.

كان مولتكه قد بدأ دراسة الخطوط الحديدية قبل أن يمد خط واحد

حديدي في ألمانيا، وكان مؤمنًا بفوائد الخطوط الحديدية حتى أنه في سنة ١٨٤٠ عندما كان إنشاء ومد الخطوط الحديدية لا يزال في بدايته جازف فأسهم بكل ما يدخر من مال في خط برلين / هامبورج الحديدي، وقد يكون اهتمامه بهذا الخط الحديدي ناتجًا عن تطلعه لتقصير المسافة بينه وبين زوجته الصغيرة التي تعيش في هولستين، ولكن ما من شك أن تفكيره واهتمامه العسكري بالخطوط الحديدية كان كبيرًا.

وفي الأمد بين سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٠ كان الجنود في مختلف دول أوروبا ينقلون بالخطوط الحديدية، وفي سنة ١٨٥٩ عندما عبئ الجيش البروسي أثناء الحملة الإيطالية استطاع مولتكه أن يختبر التسهيلات التي جاء بها النقل بالسكك الحديدية، كما استطاع بهذا الاختبار أن يدخل الكثير من التحسينات على عمليات النقل.

والواقع أن الخطوط الحديدية قد جاءت بفرص استراتيجية جديدة فقد كان من الممكن نقل القوات بسرعة تصل إلى ستة أضعاف السرعة التي سارت بها جيوش نابليون، وظهر «الوقت»و «المسافة» ـ العاملان الأساسيان لكل استراتيجية ـ في ضوء جديد له أهميته؛ وقد حصلت الدولة التي توافر لها نظام جيد للنقل بالسكك الحديدية على نفع حاسم في الحرب، فإن سرعة التعبئة وسرعة الحشد قد باتا عاملًا ضروريًّا له أهميته في التقديرات الاستراتيجية، ومما لا شك فيه أن الجداول الزمنية للتعبئة وترتيبات الحشد وأوامر السير أوجدت العمود الفقري للخطط الاستراتيجية التي تضعها هيئات أركان الحرب للمستقبل لتنفيذها عند قيام الحرب.

وقد اقترح مولتكه بالإضافة إلى الانتفاع بالخطوط الحديدية الجديدة

استخدام شبكة الطرق البرية الكثيفة التي جاءت إلى الوجود مع تطور الثورة الصناعية، وكان نابليون قد وجه الأنظار إلى هذا بتقسيمه جيشه أثناء السير، وقدم في حملة عام ١٨٠٥ التي أدت إلى استسلام الجيش النمساوي في «أولم» مثلًا جيدًا مهمًا للاستخدام الاستراتيجي لقوات منفصلة تسير كل منها بأمر سير خاص بها، والجيش الذي يتقدم مع عدم استعداده للمعركة يتطلب يومًا كاملًا ليتم عملية «الفتح» لكل فيلق يتكون من ثلاثين ألفًا، وكانت عملية الانتقال من تشكيل السير إلى تشكيل القتال «المعركة» تستنزف الوقت، ولهذا كان من الضروري أن تحشد الجيوش قبل المعركة بأيام.

وتحسنت حال الطرق بدرجة كبيرة بعد عام ١٨١٥ وبذلك أمكن استخدام تكتيكات جديدة، وكتب مولتكه عام ١٨٠٨: «تزداد الصعاب التي تواجه خفة الحركة تبعًا لزيادة أحجام الوحدات العسكرية، ولا يمكن في اليوم الواحد نقل أكثر من فيلق واحد من فيالق الجيش إذا استخدم طريقًا واحدًا في هذا النقل، ثم تزداد هذه الصعاب كلما اقتربنا من الغرض وذلك تبعًا لتحديد عدد الطرق التي يمكن استخدامها، وعلى هذا كانت الحال العادية هي أن يقسم الجيش إلى فيالق كما وضح أن حشد هذه الفيالق معًا في كتلة واحدة، ما لم يكن الغرض من هذا التكتل محددًا، يعتبر خطأ يجب تجنبه، والجيش المحتشد المتكتل لا يستطيع السير «على الطرق»، ويمكن تحريكه فقط في ميادين القتال، ولكي يسير الجيش يجب أن يقسم إلى وحدات صغرى الأمر الذي له خطره إذا حدث في مواجهة العدو؛ ولكن لما كان حشد الجنود من جهة أخرى ضروريًا للمعركة. فإن محور الاستراتيجية هو تنظيم عمليات سير منفصلة على شريطة أن يمكن هذا من الاحتشاد والتجمع في اللحظة المناسبة».



دي رون وزير حربية ألمانيا

(١٨٠٣ ـ ١٨٧٩)

ومن المحتمل أن يكون مولتكه قد عني العناية كلها بالعمليات التي يتم فيها احتشاد الجيش في ميدان المعركة، وبذلك فقد أغفل المبدأ الذي تحدث عنه نابليون بضرورة حشد الجيش قبل بدء المعركة، ومع هذا فإن توجيه مولتكه للعمليات قبل معركة «سادوڤا» لم يغفل مبادئ نابليون تمامًا من البداية؛ ***والواقع*** أنه رأى ضرورة تجمع الجيوش معًا قبل المعركة ثم عاد في تاريخ متأخر وقرر استمرار فصلها على أن يتم تجمعها في مسرح القتال، وقد لخص نظرياته بعد «سادوڤا» فيما يلي:

«من الأصلح أن تحرك القوات يوم المعركة من عدة نقط منفصلة وأن توجه لتحتشد في ميدان المعركة، وفي كلمات أخرى: «إذا أمكن أن تؤدي عمليات السير القصيرة القادمة من اتجاهات مختلفة إلى حشد القوات في الجبهة وعلى جنب العدو فإننا بذلك نحصل على خير ما يمكن إدراكه، ويجب أن نتوقع الحصول بهذا على نتائج عظيمة ما كان ليمكن تحقيقها بجيوش تعمل منفصلة، وذلك لأن هذا لا يتوقف وحسب على العوامل التي يمكن تقديرها وحسابها كعاملي الوقت والمسافة، بل ويتوقف أيضًا على المعارك الصغرى السابقة وعلى الجو، كما يتوقف على الأنباء الكاذبة، بل ـ وفي إيجاز ـ يتوقف على كل ما يقال عنه «الفرصة» أو «الحظ» في الحياة البشرية العادية، ومع هذا فإن النجاح الكبير في الحرب لا يمكن إدراكه دون القيام بمغامرات كبيرة».

وتمكننا هذه الملاحظات الأخيرة من أن نصل إلى إدراك فلسفة مولتكه في الحرب، فهو ـ كطالب مخلص شديد الولاء لكلاوزيڤيتز ـ كان توَّاقًا لأن يمد في سيطرة العلاقة السببية على صناعة الحرب إلى أبعد ما يمكن، وقد أدرك جيدًا أن «مشكلات الحرب» لا يمكن إضعافها بالعمليات الحسابية،

أي بالعوامل التي يمكن قياسها؛ ذلك لأن الحرب آلة من الآلات السياسية. وبالرغم من أن مولتكه قد بقي يؤمن بضرورة تحرر القائد في توجيهه للعمليات الحربية فقد اعترف بأن الأهداف السياسية المتأرجحة في صعود وهبوط مثلها مثل «الظروف» و «الأحوال» تتجه إلى تعديل وتبسيط الاستراتيچية في كل الأوقات.

وبالرغم من حالة «الشك» التي تنتج بتأثير أو بضغط السياسة على الاستراتيچية فقد أدرك مولتكه أن العمليات الأولية للحشد والتعبئة يمكن حسابها ويمكن إعدادها قبل بداية الحرب بوقت طويل، ولكن «الخطأ الذي يحدث عند حشد الجيوش يصعب تصحيحه على طوال مسير الحملة»، ومع هذا فإن الأوامر الضرورية للحشد يمكن أن توضع في وقت مبكر، وما دامت الوحدات متأهبة للحرب وما دامت وسائل النقل منظمة تمامًا فمما لا شك فيه أنه يجب توقع نتائج جيدة.

وإلى ما وراء هذه المرحلة تكون الحرب مزيجًا من الجرأة أو المجازفة في جانب والتقدير الحسابي للعوامل المادية في جانب آخر، فإذا ما بدأت العمليات فعلًا «اصطدمت رغباتنا لتوها بالرغبات المستقلة للعدو، ومن المؤكد أننا نستطيع وقف رغبات العدو عند حد معين نظرًا لتأهبنا لملاقاته ولاعتزامنا الحصول على قوة المبادأة؛ ولكننا لا نستطيع أن نحطم رغباته بأية وسيلة أخرى غير القتال، أو بمعنى آخر بغير المعركة، ثم تكون معقبات هذا من العوامل المادية والمعنوية مع ما ينتج عنها من مواقف مختلفة تمامًا قاعدة لتدابير جديدة؛ وعلى أية حال فإن أي تخطيط للعمليات لا تكون له صورة مؤكدة قبل الالتقاء الأول بقوات العدو الأساسية، ولهذا فإن القائد يضطر طوال الحملة أن يضع قراراته على أساس مواقف لا يستطيع التنبؤ بها أو

تقديرها قبل هذا الاصطدام، ومن هنا فإن كل الأعمال التي تحدث لا تكون تنفيذًا لخطة معدة من قبل، بل تكون نتيجة طبيعية لضغط الحوادث، وتكون المشكلة التي تواجه القائد هي ضرورة تقديره لهذا العدد الكبير من الصور المختلفة للموقف الحقيقي الذي يغطيه ضباب الشك، ثم تقدير القيم الحقيقية لهذه الصور واستخدامها استخدامًا صحيحًا، وكذلك تقدير العوامل غير المعروفة للوصول إلى قرار سريع ثم العمل بقوة ودون هوادة؛ ومن الواضح أن المعرفة النظرية ليست كافية، بل إن هناك مؤثرات وخواص للعقل والخلق تمكن بدورها من الوصول إلى ما يمكن الانتفاع به نتيجة للتدريب العسكري والتجارب المستقاة من التاريخ الحربي بل ومن صميم الحياة نفسها».

وقد أنكر مولتكه أن الاستراتيچية علم، وأن الأصول العامة يمكن أن توضع بحيث يمكن أن تستنبط منها استنباطًا منطقيًّا، وقد بدا له أن هذه القواعد ـ كالفائدة التي لخط العمليات الداخلي أو وقاية الجنب وغير هذا على سبيل المثال لا الحصر ـ لها قيمتها بدرجة نسبية فقط، ثم إن كل موقف يتطلب تفهمًا للظروف المحيطة به، كما يتطلب حلًّا تتجمع فيه التجربة والمعرفة بالجرأة والتصور، وفي رأي مولتكه أن هذا هو الدرس الأساسي الذي يمكن اكتسابه من التاريخ؛ ولدراسة التاريخ أيضًا نفعها في جعل من يعد نفسه للقيادة في المستقبل على دراية بتعقد الظروف التي تجيء الأعمال العسكرية في ظلها؛ وقد آمن مولتكه بأنه لا تدريبات هيئة أركان الحرب ولا حتى مناورات الجيش يمكن أن تقدم الصورة الحقيقية لمراحل الحرب كما يمكن أن تصورها دراسة التاريخ!

ولقد جعل مولتكه دراسة التاريخ من مسئولية هيئة أركان الحرب

البروسية دون الأقسام التابعة لها، ووضع مولتكه دراسته «الكلاسيكية» عن الحرب الإيطالية لعام ١٨٥٩ والتي طبعت لأول مرة في عام ١٨٦٢ مستهدفًا الوصف الموضوعي للحوادث قاصدًا استنباط الدروس العملية منها، ثم كتبت فيما بعد الدراسات الخاصة بحربي سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ بالأسلوب نفسه وبتوجيهه وإشرافه.

وكانت وجهة نظر مولتكه، أن الاستراتيچية يمكن أن تنتفع من التاريخ ما دامت تدرس بالأسلوب الصحيح الذي يعنى بالعلاقة الوطيدة بين مناحي الموضوع؛ وتوضح تجارب مولتكه نفسه مدى النفع الذي حصل عليه من دراساته التاريخية.

ولا شك أن مولتكه كان يعرف باستخدام نابليون للقوات المنفصلة في الهجوم على أجناب العدو ومؤخرته، ولكن هذه العمليات للوحدات المنفصلة لم تؤثر في المبادئ العامة التي قدمها نابليون عن حشد الجيش، كما لم تؤثر في إيمانه بالتأثير الكبير الذي للهجوم المركز؛ لقد كان لهذه الاستراتيچية فوائدها الكبيرة القيمة في عصر نابليون ولكنها على هذا لم تحل دون الهزيمة التي لحقته أخيرًا، وأوضحت معركة ليبزج الإمكانيات التي تتوافر للحركات المحتشدة للجيوش المنفصلة والتي تنبأ بها شارنهورست في نصيحته بأن الفرد يجب ألا يترك أي جيش محتشدًا دون هدف، بل يجب أن يقاتل دائمًا بقوات محتشدة؛ وفي رأي مولتكه أن التقدم الفني والتطور في النقل قد مكنا من التخطيط للعمليات في حشد أوسع مدى مما كان لها قبل نصف قرن من الزمان.

وقد أشار مولتكه إلى أن أهمية دراسة الضابط للاستراتيچية لا تقل عن أهمية دراسته للتاريخ؛ «فالاستراتيچية مجموعة من الوسائل التي تستخدم

لإدراك وتحقيق الوصول إلى غرض محدد، إنها أكثر من أن تعتبر معلومات بالنسبة للضابط، إنها تطبيق المعرفة في الحياة العامة، إنها تطور الفكرة الأساسية الأصلية بالتمشي مع الحوادث الدائمة التغير، إنها فن العمل تحت ضغط أصعب الظروف وأقساها».

وكان لتنظيم القيادة مكان الصدارة في آراء مولتكه وتفكيره، وقد عالج الموضوع في وضوح وإسهاب في تأريخه للحملة الإيطالية، فلا يمكن لأي مجلس حرب أن يتولى توجيه جيش ما، ويجب أن يكون رئيس هيئة أركان الحرب هو المستشار الوحيد للقائد العام في التخطيط للعمليات، وحتى لو كانت الخطة التي يضعانها فيما بينهما خاطئة فإن تنفيذها بعزيمة وإصرار يجعلها أفضل من (الإنتاج التركيبي) الخطة التي تجيء نتيجة تخطيط وتفكير عدد من الأفراد لكل رأيه واتجاهاته.

ومن جهة أخرى فإنه حتى أحسن الخطط لا تمكن من توقع كل ما في مسار الحرب من تغييرات غير منتظمة، هذه التغييرات التي أساسها «الحظ»، ولا من تجنب القرارات التكتيكية الفردية التي يجب أن تصدر وأن تتم في التو واللحظة، ويرى مولتكه أن إرغام القائد على تنفيذ خطة ما للعمليات خطيئة قاتلة، ولهذا فقد بذل كل عناية لتشجيع قوة الابتكار في القادة من كل الرتب على اختلاف درجات السلم العسكري، بل وعلى نقيض الضبط والربط البروسي العنيف الذي تفخر به الجندية البروسية فقد كانت القرارات والأحكام الاستقلالية الخارجة عن التعليمات والتي يصدرها الضباط في المسائل العسكرية موضع التقدير والتشجيع دائمًا.

ولم يصدر مولتكه إلا الضروري جدًّا من الأوامر، وفي رأيه «أن الأمر يتضمن كل شيء لا يستطيع القائد أن يفعله بنفسه ثم لا شيء غير هذا»؛

وكان المعنى الذي يستهدفه هو أن القائد العام يجب ألا يتدخل إطلاقًا في الترتيبات التكتيكية، ولكن مولتكه ذهب إلى ما وراء هذا بكثير؛ فقد كان على أتم أهبة لأن يقوم بأي تحول في خطة العمليات إذا ما حصل القائد التابع له على نجاح تكتيكي له أهميته؛ ذلك لأنه ـ كما قال ـ: «يجب أن تستجيب الاستراتيچية لأي نصر تكتيكي»، وقد بقي لا يتحول عن رأيه عندما كاد بعض القادة في الأسابيع الأولى من الحرب الفرنسية / البروسية أن يسببوا تدمير كل خطته للعمليات برغم ما أمكن إدراكه من كسب في ميدان القتال.

ولم يرغب مولتكه في أن يربك روح الاقتتال التي توافرت للجيش البروسي ولا أن يعطل ظاهرة الإقبال على العمل، أو العمل المضاد طواعية، ومن جانب القادة التابعين، فلقد وضعت التطورات الحديثة على عاتق القادة التابعين مسئوليات جسام لم يكونوا يحتملونها في العصور السابقة؛ ***والواقع*** أن من أهم الأسباب التي جعلت نابليون يحتفظ دائمًا بجيشه متجمعًا رغبته في أن يبقى الجنود قريبين منه ما أمكن لتنفيذ أوامره المباشرة، ولكن طريقة مولتكه «للتوزع في الاتجاه الأفقي «بالعرض» جعلت التوجيه المركزي للمعركة غير مستطاع ولو أن عمليات السير قبل المعركة يمكن أن تنظم في يسر بواسطة البرق».

لقد وجه مولتكه أغلب التحركات في حرب عام ١٨٦٦ من مكتبه في برلين، ووصل إلى ميدان القتال قبل معركة سادوڤا بأربعة أيام فقط، ولا شك أنه كان حكيمًا في أنه ترك لنفسه فقط الأوامر الاستراتيچية العامة، ولكي يضمن تنفيذًا دقيقًا، أي التنفيذ الطليق المتحرر للآراء الاستراتيچية، نظم هيئات القيادة للجيش وترك السلطة في المسائل التكتيكية وحدها لقادة



جينيسناو (١٧٦٠ ـ ١٨٣١)

الفيالق والفرق أنفسهم.

وقد واجهت قيادة مولتكه أول وأعظم اختبار لها في الحملة النمساوية لسنة ١٨٦٦ فإن دوره في الحرب النمساوية / البروسية ضد الدانيمارك لسنة ١٨٦٤ لم يكن بذي بال، وقد جعله تدخله السريع في المرحلة الأخيرة من الحرب لوقف الاضطراب الذي سببه الفيلد ماريشال «الشيخ» رانجل ومجلس مستشاريه يبدو لعيني ويليام الأول كاستراتيجي محنَّك يتجنب الاندفاع والتهور؛ ثم زادت من مكانته مناقشته لخطط القتال ضد النمسا حتى أصدر ويليام توجيهاته في الثاني من يونيو سنة ١٨٦٦ التي تقضي بأن كل الأوامر يجب أن تصدر عن طريق مولتكه، ومنذ ذلك التاريخ كان الملك يتقبل نصائح مولتكه دون تردد؛ ووجد القائد الذي كان قد بلغ الخامسة والستين والذي كان قد بدأ يفكر في التقاعد، وجد نفسه يتولى فعلًا القيادة العامة للجيش البروسي.

وكان أول اختبار لقيادته ـ هو في ذات الوقت ـ أعظمها أثرًا في حياته، كانت القوات تقريبًا متماثلة بدرجة أكبر مما كانت فيما بعد في الحرب الفرنسية / البروسية، وكان على مولتكه أيضًا أن يتغلب على مشاكل جغرافية وسياسية متعددة، وتصور حرب سنة ١٨٦٦ وعلى الأخص حملة بوهيميا الجانب الاستراتيجي من الحرب في صورة أوضح مما تصوره الحرب الفرنسية / البروسية، بل أكثر مما تصوره أغلب الحروب الأخرى.

والواقع أن ويليام الأول قد رغب في تجنب الحرب ضد النمسا والتي دفعه بسمارك إليها دفعًا، وبدأ البروسيون تعبئة قواتهم بعد أن بدأ النمساويون التعبئة بوقت طويل، وحتى إذ ذاك كان من المشكوك فيه أكان

الملك سيوقع إعلان الحرب حتى يمكن للجيش البروسي أن يقوم بالهجوم؟

وكانت المشكلات الاستراتيجية الأصلية بالتبعية دقيقة جدًّا، ومن بوهيميا ومورافيا كان النمساويون يستطيعون العمل ضد سيليزيا العليا أو سيليزيا الوسطى أو أن يتقدموا في ساكسونيا ليهددوا برلين بعد الاتصال مع الجيش الباڤاري في بوهيميا الشمالية أو في ساكسونيا، وكان توقع أي من هذه الاحتمالات يتوقف تمامًا على تاريخ بدء الحرب، ومن الطبيعي أن مولتكه قد عاون بسمارك في حث الملك على العمل لتوه، ولكن مولتكه تجنب أن يدفع التوجيه السياسي بواسطة التدابير العسكرية على نقيض ابن أخيه مولتكه الصغير والذي أخبر الإمبراطور ويلهلم الثاني «غليوم» في أغسطس سنة ١٩١٤ أن التخطيط الاستراتيجي لهيئة أركان الحرب قد حرم الحكومة من حرية العمل.

وقد استهدفت تحركات مولتكه الكبير في المكان الأول أن يعوض التعطل الذي سببه تأخر بدء التعبئة، وبالإضافة إلى هذا فقد رغب أن تتمشى وأن تعمل بنجاح ضد التقدم النمساوي المحتمل ضد ساكسونيا وبرلين أو ضد بريسلاو في سيليزيا الوسطى على حين تبقى سيليزيا العليا غير محمية أصلًا، على حين كان النمساويون لا يستطيعون استخدام غير خط حديدي واحد لتعبئة قواتهم في مورافيا استخدم مولتكه خمسة خطوط حديدية لنقل الجنود البروسيين من كل أنحاء بروسيا إلى جوار مسرح الحرب، وتبعًا لهذا فإنه في اليوم الخامس من يونيو سنة ١٨٦٦ انتشرت الجيوش البروسية في نصف دائرة تمتد لمسافة ٢٧٥ ميلًا من هال وتورجو إلى جورليتز Gorlitz ولنديشوت Landeshut ، وكان الوضع الأصلي للقوات البروسية سلبيًا ما بقيت القوات النمساوية بعيدة للجنوب والتي كانت في

الواقع في موراڤيا لا في بوهيميا كما قدر مولتكه.

ولم يضع مولتكه تخطيطه ليترك جنوده في نقط إنزالهم بل بدأ لتوه يسحبهم أقرب ما يمكن إلى مركز متوسط حول چورليتز، وقد رفض مولتكه أن يأمر بحشد كامل في منطقة صغيرة كما أشار بهذا كل القادة البروسيين بل وحتى بعض أفراد هيئة أركان حربه، على أنه من جهة أخرى شعر بالجزع والقلق عندما عرف أن القوات النمساوية الأساسية تتجمع في موراڤيا لا في بوهيميا وهي حقيقة بدا أنها تشير إلى إعداد التدابير لهجوم نمساوي نحو سيليزيا العليا.

وقد سمح مولتكه ـ دون أية رغبة من جانبه ـ لجناحه الأيسر ليمتد نحو نهر نيسي Neisse وبهذا فقد نشر الجيوش البروسية في مسافة تزيد على ٢٧٠ ميلًا من تورجاو Toegau إلى نيسي، ويرجع تردده أساسيًّا إلى عدم تأكده من سياسة ويليام الأولى لا بسبب أية اعتبارات عسكرية، وكان رأي مولتكه أن كل شيء سيتجه اتجاهًا حسنًا إذا لم يفقد الفرصة لاستكمال حشد كل الجيوش البروسية على الطريق الأقصر أي للقيام بتحرك أمامي في بوهيميا.

وقد تخير مولتكه چيتشين Gitschin مركزًا لهذا الحشد لا بسبب الأهمية الاستراتيچية التي لها بل بسبب المسافة فإنها كانت على مسافة متساوية من الجيشين البروسيين الرئيسيين، الجيش الثاني الذي يقوده ولي العهد فردريك ويلهلم والذي يكون الجيش الأيسر للقوات البروسية في سيليزيا، ثم الجيش الأول الذي يقوده البرنس فردريك كارل والذي كان قاعدته حول چورليتز؛ وفي نفس الوقت فإن چيتشين كانت على مسافة متساوية من تورجاو ومن المويتز Olmuctz ، أي على مسافة واحدة من جيش الألب البروسي ومن الجيش النمساوي الأساسي فإذا ما تحركت الجيوش البروسية



(١) جيش سيليزيا الأول (٢) جيش سيليزيا الثاني

(٣) جيش الألب

«منطقة معركة بوهيميا عام ١٨٦٦ توضح الخطوط الحديدية الرئيسية وتقدم الجيوش البروسية الثلاثة»

لإتمام عملية الحشد في ذات اليوم الذي يترك فيه الجيش النمساوي موراڤيا، فإن حشد الجيوش البروسية سيتم قبل أن يصل النمساويون إلى چيتشين.

على أن الضباط البروسيين الذين في المقدمة لم يسلموا الضباط النمساويين قرار بروسيا بإعلان الحرب على النمسا قبل الثاني والعشرين من يونيو، وإن كانت بروسيا قد بدأت عملياتها العدائية ضد الولايات الألمانية الأخرى منذ السادس عشر من يونيو فبدأ جيش الألب احتلاله لساكسونيا في نفس اليوم الذي بدأ فيه الجيش النمساوي سيره من الموتيز نحو چوزيفستادت Josephstadt على الألب العلوي.

وكان الجيش النمساوي يجمع أحسن التقاليد التاريخية للجندية النمساوية، وكانت روحه المعنوية عالية، وكان ضباطه كلهم ذوي كفاية وتجربة عملية كبيرة فضلًا عن أنه كان فيهم الكثيرون من خير قادة ذلك العصر؛ وكانت بعض أسلحة الجيش النمساوي، وعلى الأخص الفرسان والمدفعية، أفضل من مثيلاتها في الجيش البروسي، ولكن كانت قوة الجيش البروسي في الواقع تكمن في مشاته، ولم تكن مدافع البروسيين في حد ذاتها وحدها تكفي للحصول على النصر كما ثبت هذا في الحرب ضد فرنسا حيث قاتل البروسيون ضد مشاة يحملون بنادق أفضل من بنادقهم، ولكن كانت تكتيكات النمساويين كما كانت مدفعيتهم القديمة الطراز هي السبب في أن تقف الأفضلية في الجانب المضاد.

وانقلب تأرجح كفتي الميزان بسبب قلة الكفاية الاستراتيچية للقيادة النمساوية العليا، كان «بنيديك» Benedek ضابطًا جيدًا مع سجل عسكري حافل في خدمة إمبراطورية آل هبسبورج، وكان في حال جيدة طوال المعركة

وقد وجه جنوده بلا خوف توجيهًا صحيحًا حتى في توجيهه لتقهقر جيشه المنهزم في ميدان معركة «سادوڤا»، ولكن بنيديك قد نشأ في المدرسة الكلاسيكية للفكر الاستراتيجي، وكان مستشاره الاستراتيجي الجنرال كريسمانيك Krismanic ـ والذي لم يكن له رأي في اختياره ـ رجلًا عاش في الفكر العسكري للقرن الثامن عشر، وكان لهذه العوامل كلها الأثر الأكبر في توجيه القيادة العليا النمساوية لاستراتيجية الحرب، فقد استهدفت القيادة النمساوية التشكيل في عمق وأصرت على الاحتفاظ بمواقع طبيعية قوية على حين أوضح مولتكه من جانبه أن «المسافة» يمكن أن تقهر بعامل «الوقت».

وقد تحرك الجيش النمساوي من موراڤيا في ثلاثة قولات متوازية، وبالرغم من أن الجهد كان كبيرًا فإن النمساويين وصلوا إلى أهدافهم بسرعة وفي نظام جيد، ولكن بعد وصول الحرس الأمامي إلى چوزيڤستادت يوم ٢٦ يونيو، كان حشد الجيش ثانية في كتلة واحدة يتطلب ثلاثة أيام، وربما كان ضياع الوقت هنا هو الذي أنقذ الجيش البروسي.

وبالرغم من تحذيرات مولتكه المستمرة فإن الجيش الأول كان بطيئًا في تقدمه تبعًا لأن البرنس فردريك كارل أراد أن ينتظر جيش الألب الذي كان سينضم إلى قيادته بعد احتلاله لساكسونيا، وقد أعطى هذا لبينديك فرصة استخدام خط العمليات الداخلي.

وهنا تثب إلى الضوء مسألة كانت مثار مناقشة طريفة بين طلاب التاريخ العسكري وهي: «أي من الجيشين المتساويين في القوة كان على بينديك أن يهاجمه؟»، وربما كان تقدير بينديك صحيحًا عندما قدر أساسيًّا الهجوم



جنرال مولتكه «الكبير»

(١٨٠٠ ـ ١٨٩١)

على الجيش الأول، ولكنه مع هذا قد فشل أن يقدر ـ في الوقت المناسب ـ أن أمامه فقط يومًا وحدًا وربما يومين اثنين ليبدأ الهجوم ضد أحد الجيشين البروسيين دون أن يخشى أن يجيء الجيش الثاني إلى مؤخرته، ولكن الفرصة أفلتت بسبب إيمان القيادة النمساوية العليا في النفع التكتيكي للمواقع القوية أكثر من إيمانها بالقيمة التي لا تقدر لعامل الوقت ثم بسبب أن الحشد المبكر للجيش قد عطل من خفة حركته، وعندما اكتشف بينديك خطأه كانت حتى فرصة التقهقر وراء الألب عند چوزيڤستادت وكورينجراتز قد أفلتت، وكان عليه أن يتقبل المعركة والنهر في مؤخرته.

وبدأ مولتكه ـ عندما وضح له أن خطر الهجوم النمساوي على واحد من الجيشين البروسيين قد انتهى ولم يعد من سبيل لتحقيقه ـ يؤجل من حشد جيوشه مبقيا كلًّا منهما على مسيرة يوم واحد من الآخر ليضمن اتحادها معًا في مسرح المعركة.

وقد صدرت الأوامر النهائية ليلة ٢ يوليو، وكانت الأوامر أكثر جرأة مما أظهرها تنفيذها، وعلى تقدير مولتكه كان الجناح الأيسر للجيش الثاني والجناح الأيمن للجيش الأول سيعملان، لا ضد جناحي النمساويين وحسب، بل وضد مؤخرتهم، وقد فكر مولتكه في «سادوڤا» كمعركة تطويق، ولكن القادة البروسيين لم يتبعوا تعليماته واستطاع الجيش النمساوي النجاة وإن كان قد فقد ربع قوته، ولم يكن من الممكن القيام بمطاردة مباشرة بسبب أن جنود الجيش الثاني تقدموا في مواجهة الجيش الأول فسببوا اضطراب الصفوف وتشابكت وحدات الجيشين بعضها في بعض مما وضح معه أن هذا الموقف المضطرب يتطلب وقتًا لفصل القوات

وإعادة تنظيمها، وقد أثبتت معركة «سيدان» بعد أربع سنوات من هذا أن البروسيين قد تعلموا الدرس، ولو أنهم في سيدان قاتلوا جيشًا فرنسيًّا أقل عددًا من الجيش النمساوي.

وقد أوضح مولتكه باستراتيجيته أن أهمية خط العمليات الداخلي ـ الذي كثر التفاخر به والتشدق بالحديث عنه ـ إنما هي أهمية نسبية، وقد أوجز تجاريبه في قوله: «لا تتوافر فوائد خط العمليات الداخلي ما لم تتوافر لك المسافة الكافية لتتقدم ضد عدو واحد «يقصد قوة واحدة للعدو» على عدد من خطوط السير، وبذلك تحصل على الوقت الكافي لتنتصر على هذا العدو وتطارده ثم تتحول نحو عدو آخر، على شريطة أن يكون هذا العدو الثاني طوال قتالك للعدو الأول تحت مراقبتك، فإذا ضاقت هذه المسافة بحيث لا يمكنك مهاجمة العدو الأول دون أن تجازف بمواجهة هجوم العدو الثاني على جنب قواتك ومؤخرتها فإن النفع الاستراتيجي لخط العمليات الداخلي ليتحول ليكون ضررًا تكتيكيًّا ناجمًا عن عملية التطويق في أثناء المعركة».

وقد فسرت كلمات مولتكه على أنها قضاء حاسم ضد العمليات على الخطوط الداخلية، وأنها توصية للقيام بمناورات مركزة؛ أي مناورات تستند كلها إلى مركز واحد؛ ولكن في الواقع لم يكن هذا التفسير هو رأي مولتكه ذلك لأنه في الحرب الفرنسية / البروسية لسنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ استخدم كلتا النظريتين بطلاقة ونجاح مستندًا أساسًا إلى ما يقوم به العدو فيعمل هو تبعًا لهذا، وقد امتازت استراتيجية مولتكه بتحرر تفكيره وتحوله المرن من تطبيق نظرية إلى استخدام أخرى «بسرعة تبعًا للموقف».

وقد قيل إن استراتيجية مولتكه إنما هي انعكاس للقوة العسكرية الممتازة

التي توافرت لبروسيا في ذلك الوقت، ولكن مثل هذا الحديث يعتبر صحيحًا مع بعض التحفظات ففي سنة ١٨٦٦ كان على مولتكه أن يوجد الأفضلية القليلة في قوة الجيوش البروسية في بوهيميا، وقد جازف بأن سحب الجنود من كل الولايات الألمانية تاركًا جيشًا صغيرًا جدًّا للعمل ضد حلفاء النمسا من الألمان؛ ولو كانت حملة بوهيميا قد استمرت لوقت أطول أو كانت قد توقفت دون نتيجة حاسمة لكان نابليون الثالث قد انتفع بالفرصة للاستيلاء على أرض الرين، ولكان في استطاعته أن يقرر مستقبل القارة، وهذه إمكانيات لم تتوافر له إبان الحرب ١٨٧٠ـ ١٨٧١ .

واستطاعت بروسيا ـ ألمانيا ـ أن تتنفس الصعداء في يسر وطلاقة بعد معاهدة فرانكفورت، فقد وجدت الحكومة التي نجحت في منع التعاون العسكري بين جارتيها فرنسا وروسيا، وقد قدر مولتكه هذه الخطورة لأول مرة في سنة ١٨٥٩ ، ولكنها كانت سحابة تمر في أفق السياسة، إلا أنه منذ سنة ١٨٧٩ بدأت إمكانيات التعاون بين فرنسا وروسيا تتضح بصورة أقوى وأعظم في أفكار هيئة أركان الحرب البروسية، فلما تم الحلف الفرنسي / الروسي في فجر الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر كان لهذا الحلف الاعتبار الاستراتيجي الرئيسي.

وكانت خطط مولتكه بالنسبة لهذا الموقف تتمشى في اتجاه واحد مع استراتيجيته في الماضي، أي أن يقاتل عدوًّا واحدًا بأقل ما يمكن من قوة حتى يتيسر له أن يعد أكبر ما يمكن من قوة لتدمير العدو الآخر، وكانت نصيحته هي الوقوف للدفاع في الغرب مع القيام بالهجوم ضد الروسيا، ومن الضروري أن نضع موضع التقدير أن ألمانيا ـ وهي تمتلك أرض الألزاس واللورين ـ تستطيع أن تدافع عن حدودها الغربية بقوات صغيرة

حيث لا يمكن أن تأمل في تحقيق قرارات حاسمة ضد هذا الخط من التحصينات الفرنسية، على حين يمكن في ذات الوقت الحصول على نتائج أعظم وأهم ضد الروسيا.

ولكن الكونت ڤون شليڤن ـ الرجل الثاني الذي خلف مولتكه كرئيس لهيئة أركان الحرب البروسية ـ لم يلبث أن قلب هذا الوضع في سنة ١٨٩٤؛ ومنذ ذلك التاريخ بدأت الخطط الألمانية للقتال في جبهتين تقوم على أساس الهجوم أولًا في الغرب.

❊ ❊ ❊

[٣]

ولد الكونت ڤون شليڤن سنة ١٨٣٣ سليل أسرة من النبلاء قدمت عددًا من أعلام العسكريين والموظفين المدنيين لخدمة ملك بروسيا؛ وكان قصر نظره وتحفظه في الحديث وشغفه بالدراسات العامة ـ كل هذا ـ يؤهله للخدمة المدنية أكثر من أن يؤهله للخدمة العسكرية، ***والواقع*** أنه لم يفكر قبل التحاقه بالجيش لأداء الخدمة الإلزامية لسنة واحدة في أن يكون ضابطًا، على أنه لم يلبث أن تحول إلى الدراسة العسكرية وقضى في الكلية الحربية الأمد بين ١٨٥٨ و ١٨٦١ وبدا لأول وهلة إمكان إعداده للمراكز الكبيرة في هيئة أركان الحرب، على أنه كان يغير من عمله على فترات متنقلًا بين هيئة أركان الحرب العامة وبين العمل في وظيفة أركان الحرب في وحدات الجيش، ولبث كذلك حتى سنة ١٨٧٦ عندما تولى قيادة الآلاي الأول من حرس «الأوهلن» في بوتسدام حيث بقي لسبع سنوات، ثم عاد ثانية إلى هيئة أركان الحرب العامة سنة ١٨٨٣ وظل بها حتى تقاعد في سنة ١٩٠٦ بعد أن عمل رئيسًا لأقسامها المختلفة على التوالي متنقلًا من رياسة قسم إلى رياسة آخر حتى تولى رياسة هيئة أركان الحرب كلها منذ سنة ١٨٩١ ، فكأنه قضى في رياسة هيئة أركان الحرب الألمانية خمس عشرة سنة متوالية.

وقد مكنته طبيعة حياته في السنوات التي سبقت توليه رياسة هيئة أركان الحرب من الاتصال وثيقًا بحياة الجنود أكثر مما كانت الحال بالنسبة لمولتكه، وقد توافرت لشليڤن تجربة عملية في الحرب أكثر مما اكتسب مولتكه في سنة ١٨٦٤؛ وفي سنة ١٨٦٦ كان شليڤن بين أفراد هيئة أركان الحرب لفيلق

الفرسان، وشهد معه معركة سادوڤا التي تركت أثرًا كبيرًا في نفسه، ولكنه لأسفه لم يسهم في معارك الحدود في الحرب الفرنسية ـ البروسية إلا أن الفرصة واتته ليكشف عن مواهبه عندما خدم في هيئة أركان الحرب لأحد الجيوش في حملة اللوار، وفي هذه الحملة جمع لنفسه حصيلة طيبة من الآراء والنظريات عن الحرب والقيادة.

على أننا عندما نقارن حياة شليڤن بالكفاح الذي بدأ به مولتكه حياته فإنا نجد أن ترقي شليڤن للرياسة كان سهلًا هينًا، ثم إن شليڤن لم يفكر قط في أن نصائحه كرئيس هيئة أركان الحرب يمكن أن ترفض أو أن تعطل وهذا أمر لم يتوافر لمولتكه منذ أن تولى الرياسة في سنة ١٨٥٧ «وحتى اليوم الثاني من يونيو سنة ١٨٦٦ عندما أصدر الإمبراطور أمره بأن يتولى مولتكه كل شيء!!».

والواقع أنه قبل سنة ١٨٦٦ لم يكن من منازع لنفوذ هيئة أركان الحرب العامة ولكن كل هذه السلطات التي حصلت عليها هيئة أركان الحرب الألمانية بعد سادوڤا وسيدان كانت من نصيب شليڤن «في ثوب مولتكه»(*)؛ وهكذا كان شليڤن أقدر من سلفه مولتكه على التصرف لحل المشكلات العسكرية متجاهلًا جوانبها السياسية.

«وهنا مسألة تستحق الذكر» فإن زيادة الاحتراف والتخصص الأمر الذي كان طابع الحياة في أواخر القرن التاسع عشر قد انعكست صورته في

(*) في الأصل "with Moltko togon" وكلمة "togon" تعني قطعة القماش التي كان مواطنو روما القديمة يتدثرون بها فوق ثيابهم لتدل على درجة ووظيفة الفرد، وكانت لهذا تختلف ألوانها، ويمكن ملاحظة هذا من مراجعة صور ورسوم العصر الروماني – مُعجم ويبستر ص ١٥٣١ (المترجم)

حياة قادة الجيش الألماني، وعندما درس شليفن في الكلية الحربية في منتصف القرن التاسع عشر كان تأثير الأخصائيين والفنيين قد بدأ يطغى على المعتقدات التاريخية الفلسفية القديمة هذه المعتقدات التي كانت هي الغذاء الروحي لمولتكه والتي توضح إلى حد بعيد اتجاه تفكيره، وكان للطابع الجديد تأثيره في شليفن فتوافرت له طبيعة خالصة أصيلة دفعته لتطلب تحقيق المستحيل وأبقت جهوده في نطاق الجو الفني الذي يعمل فيه؛ فهو لم يتعمق إلى حد بعيد في دراسة الأسباب السياسية للحرب ولا في بحث نتائجها. وإذا كان مولتكه قد بقي بعيدًا عن الانغمار في السياسة إلا أنه كان مدركًا للقوى السياسية وقد حاول أن يكيف استراتيجيته تبعًا له، بينما بقى شليفن على نقيضه واقفًا حياته كلها للمشكلات العسكرية وحدها، ثم تركته وفاة زوجته الصغيرة بعد حياة زوجية قصيرة عازفًا عن كل شيء إلا واجباته كرئيس هيئة أركان الحرب. وقد كانت هذه الرعاية القوية من جانب شليفن لواجباته العسكرية شيئًا غير إنساني بالرغم من أنه بدا لطلبته ومريديه على أنه مثالي في إنسانيته، كما أوضح عقله وتفكيره لأولئك الذين يتوقون للتعمق في أسرار القيادة الحديثة ما توافر له من اجتذاب مسيطر أخاذ.

وبالرغم من اتساع نطاق هيئة أركان الحرب البروسية وازدياد عدد أعضائها على الأيام بعد سنة ١٨٩١ فإنها لم تتغير كمعهد دراسي، وبقيت واجباتها وخواصها تعليم الحرب للحرب والإعداد للعمليات، وكان أهم ما أسهم به شليفن من الناحية الفنية هو ازدياد التطور والتحسين في النقل البري بالسكك الحديدية، وإيجاد المدفعية الثقيلة الخفيفة الحركة برغم معارضة المحافظين المتزمتين من أفراد الجيش، ثم إيجاد وتكوين بعض

الفروع العسكرية الجديدة كمهندسي الجيش للسكك الحديدية، ومثل السلاح الجوي.

وكان شليڤن معنيًّا بكل المسائل الفنية الحديثة إلا أنه لم ينجح بدرجة كبيرة في جعل الضباط أنصاف الإقطاعيين يؤمنون بضرورة الانتفاع الكامل من المكتشفات الحديثة؛ فقد بقي الضباط يشكون من هذه المناحي الفنية الحديثة عازفين عن أن يوكلوا إلى الفنيين والمهندسين دورًا رئيسيًّا في المسائل العسكرية، على أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى كان ضباط المدفعية الثقيلة والمهندسون العسكريون للسكك الحديدية هم وحدهم الكفاة حقًّا للقيام بدورهم، ولم يكن سلاح الجو الألماني ولا سلاح الإشارة كافيًا أو صالحًا للقيام بدوره على الوجه الأكمل، والأسوأ من هذا هو أن قيادة الجيش لم تكن متأهبة لاستخدام الإمكانيات الفنية الجديدة، ثم جاءت معارك الدبابات في سنة ١٩١٨ بتغيير كبير يمكن أن تتضح نتيجته في تنسيق الخدمات الفنية والعسكرية في جيش هتلر.

وقد عني شليڤن عناية كبيرة بالمسائل الفنية الحديثة، لا بسبب اعتقاده أن هذا التطور الفني سينزل الاستراتيچية عن عرشها، بل بسبب أنه رأى فيه تحديًا جديدًا للقيادة العسكرية. وقد أشار بأسلوبه الساخر ذات مرة إلى تقدم التطور الفني الحديث قائلًا: «ولو قدرنا فوائده النفيسة ـ يقصد التطور الفني ـ بين كل الاتجاهات بعدالة وبالتساوي دون التحيز إلى جانب ما، يمنحه أكثر مما يمنح للجانب الآخر لوجدنا أن هذا التطور الفني قد أوجد أعظم الصعاب كما سبب الكثير من الأضرار»[١].

(١) “Der Krieg in der Gegenwart” in Schliffen, Cannae, p. ٢٧٤

والواقع أنه من بين النتيجتين الرئيسيتين للعصر الصناعي؛ ألا وهما «السرعة» و«الوفرة في الإنتاج» فإن «الوفرة في الإنتاج وحدها هي التي أثرت في صناعة الحرب، وقد بسطت الجيوش المحتشدة الحديثة ـ مع الزيادة الكبيرة لقوة نيرانها ـ من استراتيچية الحرب الخفيفة الحركة في الصورة التي أوجدها نابليون ثم مولتكه من بعده، ولكن شليڤن انتقد أولئك الضباط الذين تقبلوا في خضوع فقدان خفة الحركة وقوة المناورة، ولم يفكروا في حلول أخرى غير المواقع الدفاعية أو الهجمات الأمامية بالمواجهة، وقد كتب شليڤن: «لقد أثبتت الحرب الروسية اليابانية أنه ما زال من الممكن نجاح الهجمات بالمواجهة برغم كل الصعاب إلا أن نجاحها في أحسن الأحوال يكون صغيرًا فمن الممكن إرغام العدو على التقهقر للخلف، ولكنه بعد وقت قصير يعود ثانية للمقاومة التي يكون قد نزل عنها مؤقتًا، وهكذا تستمر الحرب، توقف موقوت عن المقاومة ثم عودة إليها من جديد، إن مثل هذه الحروب يعتبر مستحيلًا عندما يكون بقاء الأمة قائمًا على التقدم للتجارة والصناعة، إن استراتيچية «الملامسة»[(١)] «لا تصلح إذا كانت مطالب ملايين الناس تتطلب فقد البلايين منهم»[(*)]؛ وفي رأي شليڤن أن

(*) ذات المرجع ص ٢٧٩ – ٢٨٠ و ٨٦ – ٨٧ ,Cf. Dienstschriften, I.

(١) "Strategy of Attrition" يعني هذا إجهاد العدو بالضربات المستمرة المتتابعة دون القيام بهجوم كبير والاشتباك به اشتباكاً عنيفاً، وتعتبر عمليات "الحصار" من عمليات استراتيچية الملامسة عندما تقوم على عامل الوقت لإجهاد العدو بحرمانه من موارد إمداده وتموينه دون تكبد خسائر كبيرة باقتحام مواقعه، وقد كانت نظرية تجنب النقط القوية والتسرب إلى ما وراءها بعد عزلها هي أساس عمليات الحرب البرقية كما كانت أساس إيجاد نظريات الدفاع الشبكي حتى تستطيع كل نقط المنطقة الدفاعية متابعة القتال كلٍ منها على حدة باعتبارها "جزيرة من جزر المقاومة" – المترجم

استراتيچية الإفناء والتدمير تمامًا هي وحدها التي يمكن أن تحفظ وتبقي النظام الاجتماعي قائمًا.

ولم يتنبأ شليڤن بالحرب الشاملة ولو أنه خشي أن هذه التغييرات الاجتماعية الأساسية ستكون مؤكدة في الحرب الطويلة الأمد؛ وقد أضاف القلق من أن يفشل الاستراتيچيون المعاصرون في الاحتفاظ بمكانتهم وتفكيرهم.. أضاف ظلًّا قاتمًا إلى أفكاره وتعاليمه، لقد اكتسب شليڤن مكانته في التاريخ كمفكر وكأستاذ في الاستراتيچية، ومن غير الممكن القول بما إذا كان قد أثبت أيضًا قدرته كقائد عظيم في الحرب، لقد توافرت له الخواص التي بدا أنها تؤهله بذاته للقيادة في الحرب، ولم يرتبك تفكيره قط بالاعتبارات القليلة القيمة ولم يكن ليضطرب بالأحداث، ثم إنه بالرغم من هدوء طباعه فإن شخصيته المشعة كانت تبعث قوة تلهب كل أولئك الذين يحيطون به، وكان طلابه يؤمنون بأنه سيكون أستاذًا عارفًا بصناعته وسيدًا عظيمًا في ميدان المعركة كما هي الحال وهو أمام «خريطة العمليات» في مكتبه، ولم يكن بين قادة الحرب العالمية الأولى من يمكن أن يقارن أو يوازن بعظمته هو؛ وكما حدث بالنسبة لشارنهورست مات شليڤن في وقت كانت ألمانيا تعد فيه أمرًا مهمًّا شغله حتى آخر لحظة من حياته في يناير سنة ١٩١٣ في حل مشكلات ألمانيا العسكرية؛ لقد بقي ظله واضحًا للنظارة يسيطر على كل التصرفات في الحرب العالمية الأولى، ثم في الحرب العالمية الثانية، ومن الصعب تقدير تأثيره ونفوذه على الفكر العسكري الألماني. وقد أطلق عليه الچنرال بيك رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية في الفترة التي تسلحت فيها ألمانيا من جديد سنة ١٩٣٨. أطلق عليه: «الأول بين عمداء أساتذة الاستراتيچية»، ولو أن الچنرال ڤون فريتش قد أضاف إلى رأيه الخاص

تحذيرًا جاء فيه: «أن التقدم الكبير المتزايد في المسائل الفنية منذ وفاة شليڤن قد يجعل بعض قواعده وأصوله تبدو وكأنها لم تعد صالحة و«مقبولة»[١].

وقد أكد الحلف الفرنسي / الروسي لسنة ١٨٩٣ أنه في حالة قيام حرب أوروبية فإن ألمانيا ستضطر لخوض الحرب في جبهتين، وقد وضح أنه لا أمل في منافسة الكتلة الفرنسية / الروسية من ناحية تعداد الجيوش، فلم تكن النمسا والمجر ـ لأسباب سياسية ـ بقادرة على أن تمد من تسليحها بدرجة كبيرة، ولم يكن من الممكن كذلك اعتبار إيطاليا حليفة لألمانيا، كما أنه كان من الواضح مع مرور الوقت أن بريطانيا تتحول لتكون خصمًا عسكريًّا، ولكن من جهة أخرى فإن ألمانيا كانت لا تزال تملك الانتفاع بمركزها المتوسط في قارة أوروبا إذا ما خاطرت وجازفت بتقسيم غير متساوٍ لقواتها بإيجاد قوة ضرب كبيرة جدًّا في أحد ميداني الحرب في المراحل الأولية لها، وكان في رأي شليڤن أن هذه الأفضلية المؤقتة التي تتوافر لألمانيا يجب أن تستخدم لا حيث يمكن الوصول لكسب المعارك وحسب، بل حيث يمكن الحصول على قرارات سريعة من الحرب؛ وكانت توصية مولتكه الكبير «بالقيام بحرب دفاعية ضد فرنسا وبحرب هجومية ضد الروسيا» لا تؤكد هذا النجاح فستكون العمليات في الشرق مضيعة للوقت تبعًا لأن السهول الشرقية الفسيحة ستسمح للروس باستخدام «تكتيكات التخلص» أي «تكتيكات تجنب المعركة لإجهاد العدو المهاجم»[*].

---

(١) في المقدمة للجزئين الأول والثاني من كتاب شليفن "Dienstschriften".

(*) في الأصل Evasive Tactics، وتعني كلمة Evasive التحايل لمحاولة الفكاك وتجنب القتال، والاصطلاح في جملته من الناحية العسكرية يعني تكتيكات "التملص !!" أي عدم الاشتباك الجدي العنيف، بل الاصطدام مع سرعة التخلص والارتداد للخلف لمسافة ما ثم إعادة الاصطدام والتخلص والارتداد وهكذا، وبذلك فإن الجيش الذي يقوم=

ثم إن القتال المائع في الغرب دون أن ينتصر أي من الجانبين المتقاتلين انتصارًا حاسمًا، والقتال الطويل الأمد في الشرق سيجعلان بريطانيا سيدة الموقف في أوروبا، وقد حذر مولتكه ـ حتى دون توقع تدخل بريطانيا في القتال ـ من أن حروب المستقبل ستكون على خلاف حروب سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٤ و ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ طويلة الأمد، وقد قرر شليڤن سنة ١٨٩٤ أنه للتغلب على الخطر الذي ستسببه الحروب الطويلة الأجل يجب في حالة الحرب القيام بالهجوم أولًا ضد فرنسا.

وقد بنى شليڤن أسباب هذا على أساس حقيقة واحدة هي أن فرنسا هي الخصم الأقوى وأنها هي الخصم الذي تحتشد قواته ومن الممكن الاصطدام به مع التأكد من الحصول على قرار حاسم ضده في وقت مبكر من الحرب، وستجعل السيطرة على فرنسا التدخل البريطاني غير متوقع أو عديم الأثر؛ ولكن للحصول على قرار حاسم في الحرب الأوروبية نتيجة للقتال ضد فرنسا يجب ألا يكتفى بإرغام الجيش الفرنسي على التقهقر إلى داخل البلاد الفرنسية أو حتى باحتلال باريس، بل من الضروري القضاء تمامًا على كل القوات المسلحة التي تضاد ألمانيا في الغرب وتحطيمها وسحقها.

ولكن خطة شليڤن الأولى للهجوم على فرنسا والتي وضعت سنة ١٨٩٤

=بالهجوم يُتابع التحول من عمليات السير إلى عمليات "الفتح" والتشكيل للمعركة ثم العودة للتجمع والفتح وهكذا دون أن يحصل على قرار حاسم، ودون القدرة على سحق القوات التي ترتد من مواقع إلى مواقع أخرى في الخلف دون ما حرج، لأن المساحات الواسعة والمسافات البعيدة تُمكنها من هذا، وقد استخدم الروس هذه التكتيكات ضد نابليون سنة ١٨٨٢، ولكنهم لم يستخدموها سنة ١٩١٤ لأنهم قاموا بالهجوم في بروسيا الشرقية ولولا تقدمهم بالجيش الأول والثاني تفصل بينهما بحيرات الماسوريان لما نجح هندنبرج في تاننبرج واستطاع القضاء على كل من الجيشين على حدة. (المترجم).



شارلنهورست (١٧٥٥ ـ ١٨١٣)

لم تكن صالحة تمامًا للوصول إلى تحقيق معركة أخرى كسيدان وعلى نطاق واسع فقد كانت الخطة تقوم على أساس هجوم أمامي كامل من اللورين، ثم إن القوة المتزايدة للتسليح الفرنسي جعلت هذا التخطيط مشروعًا باهظ الثمن، وفي السنوات ما بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٩٠٥ عدل شليفن تدريجيًّا من خطته الفضفاضة الواسعة للهجوم الألماني والذي كان سيكتسب قوة الدفع القوية من ثقل الجناح الألماني الأيمن الذي يدور عن طريق لوكسمبورج والبلچيك وجنوب هولندا.

وقد أعطت مذكرة عام ١٩٠٥ لهذه الآراء الاستراتيچية الخاصة بالقتال في الغرب صورتها «الكلاسيكية» ولو أن شليفن قد بقي حتى وفاته يعيد دراستها واختبارها ويعيد بحث مشكلاتها؛ وقد وافقت هيئة أركان الحرب الألمانية كما وافقت الحكومة الألمانية على مبدأ الحرب في جبهتين مع هجوم خاطف ضد فرنسا برغم ما في هذا من مخاطرة سياسية عظيمة تبعًا لاختراق حياد البلچيك وهولندا؛ وكان التخطيط يتضمن أيضًا حراسة الجبهة الشرقية بقوات صغيرة على أن تستخدم ثمانية أتساع الجيش الألماني للقضاء على قوات فرنسا المسلحة، ومع هذا فإنه كان على الجيش الألماني في الشرق ـ تبعًا لآمال شليفن ـ ألا يرتد فورًا إلى ما وراء قلاع نهر الفستيولا، بل يجب أن يحاول مهاجمة الجيوش الروسية التي ستضطرها بحيرات الماسوريان إلى أن تقسم قواتها التي تغزو بروسيا الشرقية «بدلًا من التقدم في كتلة واحدة قوية»، وقد يمكن اقتران استخدام الخط الداخلي باستراتيچية التطويق، الذي يمكن القوات الأقل عددًا من الحصول على النصر.

وقد حققت معركة «تاننبرج» التي حدثت في الثامن والعشرين من أغسطس ١٩١٤ والتي أمكن بها إفناء جيش سامسونوف الحلم الذي

داعب شليڤن بالحصول على النصر في الشرق، على أن خطة هذه المعركة كانت قد وضعت أصلًا بواسطة شليڤن، كما أنه كان قد اختبرها مع ضباط هيئة أركان الحرب في المباريات الحربية على الخرائط(*)، وفي سنة ١٩١٤

(*) المباريات الحربية War Games هي مشروعات التدريب لأفراد هيئة أركان الحرب وتكون عادةً ذات جانبين في كل جانب بعض الضباط الذين يُمثلون قيادة تشكيل ما كلواء أو فرقة أو فيلق مع هيئة تتولى إدارة المشروع وفرض المواقف المختلفة نتيجة الأوامر التي يُصدرها كلٌ من الجانبين، ويكون كلٌ من الجانبين طوال المشروع وكأنه في ظروف المعركة فعلاً وحتى لو فرضت الهيئة التي تتولى إدارة المشروع أن طائرات العدو تقذف مكان الرياسة بالقنابل وجب الذهاب إلى المخابىء ... وإذا فرضت إلقاء الغازات السامة وجب العمل مع ارتداء القناعات الواقية من الغاز، وتقرر في النهاية الهيئة التي تتولى المشروع أوجه الإجادة أو الخطأ في عمل أفراد الجانبين، ويستمر المشروع الواحد لعدة أيام يتناوب الضباط طوالها العمل كما في وقت الحرب تماماً، ولهذه المباريات أثرها الكبير في إعداد الضباط أركان الحرب للقيادة في ميدان القتال.

وقد جاءت "مباريات الحرب" من الأصل الألماني "Kriegspiel" وقد اخترع الماريشال كيت الألماني نوعاً من هذه المباريات على طراز الشطرنج أسماه "شطرنج الحرب"، على أن "مباريات الحرب" في صورتها الحديثة أوجدها ضابط بروسي اسمه ڤون رايزوتيز (١٧٩٤ - ١٨٢٦) في سنة ١٨٢٤، وانتشرت هذه المباريات بسرعة في البلاط الألماني كوسيلة للتسلية، ثم أدخلت في الجيش البروسي كوسيلة للتدريب ثم انتشرت في كل جيوش العالم، وفي سنة ١٨٩٨ أوجد ف. ت. جان نموذجاً منها للحرب البحرية.

وقد بدأت المباريات بدراسة معارك معروفة من التاريخ ووضع الجنود طبقاً للأوضاع المعروفة عند بدء المعركة، ولهذا كانت الخرائط تُعد كلها بمقياس واحد، فلما استخدمت هذه المباريات لأغراض التدريب أعدت الخرائط بمقياس كبير حتى يتوافر المكان لإيضاح التفاصيل الضرورية كالمرتفعات والطرق والمباني ومجاري المياه وسياجات الأشجار وغير هذا من الصور الطبيعية التي تؤثر في التحركات.

ولما كانت الخريطة هي ميدان المعركة وجب أن تمثل القوات بقطع خشبية ملونة لإيضاح قوات الجانبين المُتضادين وقد استخدم في البداية اللونان الأحمر والأزرق فقط.

وقد وضع قانون لهذه المباريات، ومع الزمن ثبت أنه من الضروري وجود جماعة تحكم المباراة فأغفلت القوانين وترك للحكام تقدير المواقف في المباريات، ومن هنا نشأت فكرة=

طبق هوفمان ولودندورف(*) هذه المباراة الحربية «على الأرض هذه المرة لا على الخرائط» بصورة كانت ولا شك ترضي أستاذهما العسكري؛ ولم يتوقع شليفن قط أن معركة في الشرق من هذا النوع سيكون لها التأثير الحاسم في استراتيجية الحرب، بل أمل فقط في الحصول على نصر يمكن أن يكسبه الوقت لإكمال عملياته العظيمة في الغرب.

ومع أن استراتيجية هذه المعركة في الشرق أو استراتيجية معركة من طراز تاننبرج قد بدت لشليفن على أنها أحسن ما يمكن أن يدل على عبقرية القيادة فإن هانز ديلبروك المؤرخ العسكري قدم في المجلد الأول من كتابه «تاريخ فن الحرب» ـ المطبوع سنة ١٩٠٠ والذي بحث فيه الاستراتيجية

=الاستعانة بثلاث خرائط، يستخدم الحكام واحدة منها يقدرون عليها المواقف ويصدرون تبعاً لها الأوامر والتعليمات، ومع هذا فإن المباريات لا تزال تتبع نفس الأسلوب الذي وضعه لها الألمان منذ الربع الأول للقرن التاسع عشر الميلادي. (المترجم).

(*) لودندورف، إيريك ڤون (١٨٦٥ - ١٩٣٨) ولد في كروسيڤنا قرب بوزن بدأ حياته في مُشاة البحرية وانتقل للجيش سنة ١٨٩٠ كان في فجر الحرب قائد لواء في ستراسبورج وانتقل رئيس أركان حرب الجنرال إيمتش في حصار لييج وإلى مواهبه يرجع نجاح الألمان في اختراق التحصينات، وفي ٢٢ أغسطس ١٩١٤ عين رئيس أركان حرب لهندنبرج الذي تولى قيادة الجيش الثامن في بروسيا الشرقية، وكسب معركة تاننبرج ثم أرسل إلى الجنوب للعمل مع الجيش النمسوي عند برزميسل وتولى منصب رياسة الإمدادات والتموين عندما تولى ڤون هندنبرج رياسة هيئة أركان الحرب، وفي سنة ١٩١٨ كان يُلح لتوقيع الهدنة مع الحلفاء، ثم استقال من منصبه في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٨ وفر إلى السويد في ثياب مدنية ثم عاد إلى ألمانيا وأقام في ميونيخ، ويعتبره المؤرخون الألمان بين الذين تسببوا في هزيمة ألمانيا وينسبون كل ما حصل عليه من الانتصارات إلى الجنرال ماكس ڤون هوفمان، وللودندورف عدة مؤلفات أهمها "ذكريات الحرب" التي طبعت سنة ١٩١٩، و "هيئة أركان الحرب ومشكلاتها" ١٩٢٠ و "الحرب والسياسة ١٩٢٢" وقد أرخ له الكولونيل ڤون هورستينو في كتابه "اضمحلال النمسا والمجر" المطبوع سنة ١٩٣٠. E. Encycl Vol. ٨ p. ٥٨١ (المترجم).

القديمة ـ ما وجده من صورة قديمة تماثل هذه المعركة ألا وهي انتصار قرطاچنة في معركة «كانِّي»؛ ففي سنة ٢١٦ قبل الميلاد أفنى هانيبال جيشًا رومانيًّا يفوق جيشه عددًا نتيجة لتقبله بشجاعة أن يواجه هزيمة موقوتة في الوسط ليكون في قوة تكفي لأن يدمر جناحي العدو ويحدق بقواته عليهما، وقد رأى شليڤن أن كل كبار القادة في التاريخ قد استهدفوا القيام بصور مماثلة لما حدث في «كانِّي» ولم يكن لدى فردريك الأكبر القوات الكافية ليوجه مثل ضربات الإفناء هذه، ولكن انتصارات فردريك تعتبر في رأي شليڤن كمعركة «كانِّي» فقط في صورة غير كاملة، وقد أبدى نابليون وهو في ذروة مجده صورة مشابهة لهانيبال كما حدث في حملة سنة ١٨٠٥ التي مكنت من الإمساك بجيش «ماك» في «أولم». ثم إن هزيمة نابليون بدورها كانت نتيجة لاستراتيچية تماثل استراتيچية «كانِّي» وعلى الأخص في معركتي ليبزج ووترلو؛ وكان هذا الحديث صحيحًا أيضًا بالنسبة لمعركة سادوڤا وإن كان «التنفيذ» في سادوڤا لم يصل إلى هذه الدرجة الكبيرة من المهارة، وقد نفذت ـ في العصر الحديث ـ معركة سيدان في الأسلوب الكامل الصحيح كمعركة «كانِّي».

وكان شليڤن يميل إلى تبسيط التاريخ العسكري، وقد كون آراءه الاستراتيچية في دراسة التكتيكات الحديثة ثم استطاع بسهولة كبيرة أن يتعمق بهذه الآراء الحديثة إلى الماضي التاريخي، وقد يحق لنا هنا أن نسأل عما إذا كانت استراتيچية نابليون بالاختراق في الوسط توضح أبسط الصور لعبقريته العسكرية!؟.

لقد كان صحيحًا أن نؤكد بأن الهجوم الأمامي بالمواجهة قد أضحى أبهظ ثمنًا وأقل تأثيرًا وذلك نتيجة لقوة النيران الحديثة، ولكن كانت هذه هي

الحال أيضًا في عصر مولتكه، ولهذا فإن من الممكن أن نتحول لنقرر بأن تقدم الفن العسكري في نصف القرن الذي جاء بعد «سادوڤا» قد جعل الدفاع التكتيكي أكبر قوة مما كان؛ ومن جهة أخرى فإن الحاجة الملحة إلى الذخيرة للاحتفاظ للجيوش الحديثة الكبيرة العدد بالقدرة على متابعة القتال قد جعلت خطوط مواصلاتها أكثر تعرضًا، وهكذا كان الهدف الحقيقي للهجوم الجانبي هو توجيه طعنة إلى خطوط العدو الخلفية، ولم يعد يكفي طي جناحي العدو نحو قلب أو وسط مواقعه فإن هذا يؤدي فقط إلى ما أطلق عليه شليڤن ـ مستخدمًا في هذا التعبير أحد اصطلاحات نابليون ـ «النصر العادي»، ولكن توجيه الطعنة إلى «مؤخرة» ساقة العدو تعني معركة الإفناء والقضاء التام على قوات العدو.

وقد آمن شليڤن بأن معركة التطويق عندما توجه توجيهًا صحيحًا بالهجوم على كلا جانبي العدو فإنها تكون أقوى ما يمكن أن تحققه الاستراتيچية، ولكن لما كانت هذه الاستراتيچية هي الأمل الوحيد لانتصار جيش أقل عددًا من الجيش الذي يضاده فإنه من الضروري أولًا أن تتوافر للجيش الأقل عددًا القدرة على حل المشكلات مثل هذه المعركة، وقد كانت كلمات فردريك الأكبر بأنه لا حاجة إلى اليأس عند مواجهة عدو أكبر عددًا ما دام من الممكن للقائد أن ينظم أوضاعه للتغلب على هذا النقص العددي في قوته، كانت هي القاعدة التي عمل على أساسها شليڤن ليبث في جمهرة الضباط الألمان هذا الأمل الذي يملؤه بالثقة في إمكان التغلب على النقص العددي الذي يقدره في قواته.

وقد كان من الصعب استخدام استراتيچية «كانِّي» في أي موقف تتوافر فيه «المسافة» للقيام بالمناورة كما كانت الحال في بروسيا الشرقية حيث كان من

المتوقع أن تخوض جيوش فردية عمليات القتال في المراحل الأولية للحرب الألمانية / الروسية، وحيث كان من الممكن استخدام الخط الحديدي لعمليات مفاجئة بجيوش صغيرة نسبيًّا، ولكن الزيادة العددية الكبيرة في الجيوش المحتشدة والمسافات الكبيرة التي تحتاجها هذه الجيوش نتيجة للأسلحة الحديثة قد جعلتا هذا المشروع غير عملي في مسرح الحرب لغرب أوروبا، فإن جيوشًا بالملايين ستغطي كل منطقة موجودة على الحدود الألمانية الفرنسية وستمتد هذه الجيوش من القنال الإنجليزي إلى سويسرا، وهكذا لن يكون الهجوم على جانبي الجيش الفرنسي مستطاعًا بل وسيكون مستحيلًا بسبب أن الجنب الفرنسي الأيمن تحميه قلعة بلفورت وتحصينات الچورا السويسرية، وعلى هذا فإن الهجوم عن طريق البلچيك ضد الجنب الفرنسي الأيسر كان هو وحده الذي يمكن من توجيه «الطعنة» إلى مؤخرة العدو.

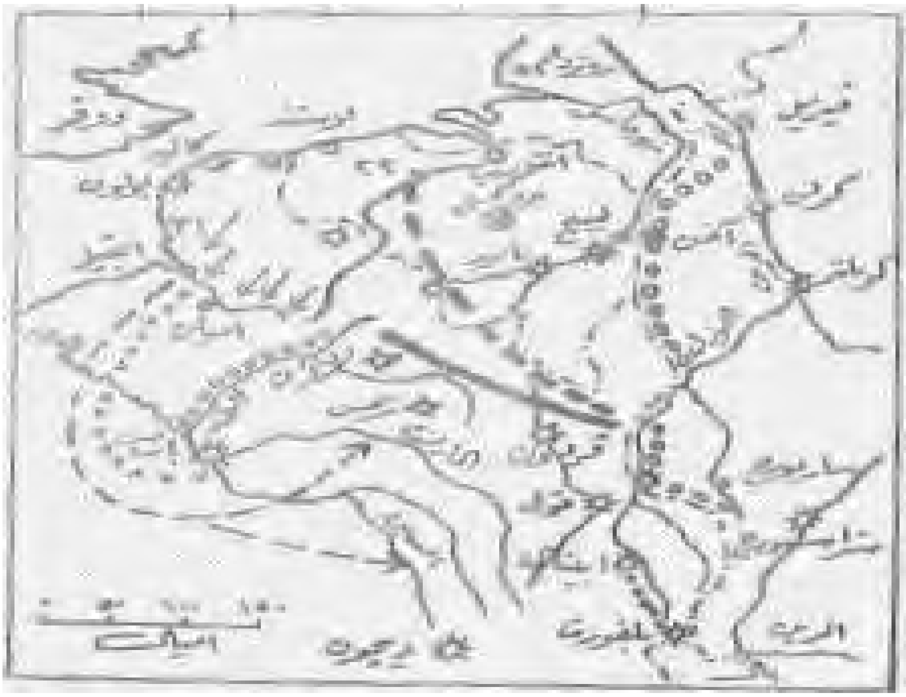
وقد قورنت خطة شليڤن بتنظيم فردريك للسير المائل في لوثين سنة ١٧٥٧ عندما هزم بجيشه المكون من خمسة وثلاثين ألفًا جيشًا نمساويًّا تعداده سبعون ألفًا، بالرغم من أن قوات فردريك في الواقع كانت أضعف من أن تمكنه من الاستثمار الكامل لتكتيكاته الجانبية للقيام باستراتيچية التطويق، على حين كان شليڤن يستطيع أن يجمع القوة الكافية للقيام بمعركة إفناء وتدمير بالإغفال المؤقت للتهديد الروسي لولايات ألمانيا الشرقية.

وفي مذكرة شليڤن لسنة ١٩٠٥ قدر أن يستخدم ضد فرنسا ثمانية جيوش تتكون من ٧٢ فرقة من المشاة و ١١ فرقة من الفرسان ثم ستة وعشرين لواءً ونصف لواء من قوات اللاندڤير «الاحتياطي الأول»، بل وأضاف إلى هذا اعتزامه استخدام ثمانية فيالق من الأرساتز «الاحتياطي الثاني» بمجرد أن تتم تعبئتها، وأن يكون الحشد الأكبر لهذه الجيوش بين «متز» و «إكس لاشابل»

وعلى أن تكون القوة الأكبر في الجناح الألماني الأيمن، وأن يوضع جيش واحد من تسع فرق من المشاة وثلاث فرق من الفرسان ولواء واحد من اللاندڤير بين متز وستراسبورج، وأن يترك «الألزاس» بلا حراسة، اللهم عدا ثلاثة لواءات ونصف من اللاندڤير تغطي الضفة اليمنى للرين، وأن تكون قوة الجناح الألماني الأيمن بالنسبة لقوة الجناح الأيسر كنسبة «٧ : ١».

وكان الهجوم الذي يصل في مرحلته الأولى إلى الخط من ڤردون إلى دنكرك يدور حول المحور في متز، وقد قدر شليڤن بأن من الواجب أن يتم في اليوم الحادي والثلاثين للتعبئة الوصول إلى خط السوم وأن تكون القوات قد اجتازت إميان وآبڤيل، وأن توجه المرحلة التالية والحاسمة بالعمليات ضد السين الأسفل والذي يؤدي عبوره إلى المرحلة النهائية للمعركة، وفي تلك اللحظة يدور الجناح الألماني الأيمن نحو الشرق ويعمل جنوب باريس ضد السين العلوي وبذلك يلقي بالجيوش الفرنسية ويدفعها نحو القلاع الفرنسية والحدود السويسرية.

وكانت جرأة خطة شليڤن تكمن في المجازفة التي كان راغبًا في القيام بها بجمع القوة الأكبر في الجناح الألماني الأيمن، فإن هذا كان من الضروري أن يكون قويًّا لا بالدرجة التي تكفي لتمزيق أية مقاومة أثناء السير في البلچيك بل وبالدرجة التي تمكن من الاحتفاظ باندفاعه للأمام لأمد بين خمسة وسبعة أسابيع مع استمرار اتساع حركة الدوران للشمال والغرب؛ وكان من المتوقع أن يكون الجيشان الألماني والفرنسي متساويين في القوة من الناحية العامة، ولهذا كان من الممكن جمع القوة الكافية لتنفيذ هذا المشروع المليء بالأطماع بشيء واحد هو إهمال الألزاس بل وحتى بالسماح للفرنسيين بفرصة عبور الرين العلوي؛ وقد توقع شليڤن أن الفرنسيين لن يتركوا في



خطة شليفن للعمليات (١٩٠٥)

لاحظ أن الأرقام (٢٢) و (٣١) تدل على الأيام التي تمر من بداية التعبئة حتى يمكن الوصول إلى ذلك الخط.

قلاعهم قوات كبيرة ، وأن القوات الفرنسية التي ستقوم بغزو الألزاس أو جنوب ألمانيا ستضطر لفورها إلى الانسحاب بضغط تهديد الجناح الألماني الأيمن الذي يقوم بحركة الدوران، وحتى إذا ما فعل الفرنسيون هذا فإنهم سيفعلونه متأخرين إلى الحد الذي لا يجعله مؤثرًا في نتيجة الحملة.

فقد أشار شيلڤن في عرضه للمباريات الحربية لسنة ١٩٠١ إلى التعارض بين آرائه الاستراتيچية وآراء مولتكه بقوله: «لقد كنا في سنة ١٨٧٠ قادرين على مهاجمة جبهة العدو، وقد مكنتنا الأفضلية العددية التي توافرت لنا يومذاك من الاشتباك بالعدو والدوران حول جناحه الممتد ثم ضرب جنبه، ولكننا الآن لا نستطيع الاعتماد على الأفضلية العددية، ففي أحسن الظروف سنتساوى معه في القوة العددية بل إن من الضروري أن نقنع متى كنا أقل عددًا منه؛ وبذلك تضطرنا الحاجة إلى التفكير في طريقة نستطيع بها قهر العدو بقوات أقل عددًا من قواته، وليست هي العلاج الوحيد(*) بل وليس هناك المشروع الواحد، بل هناك فكرة واحدة فقط تعتبر صالحة ألا وهي: «عندما يكون الفرد أضعف من أن يهاجم الكل وجب عليه أن يهاجم الجزء»؛ وهنا تبرز إلى الضوء عدة صور تعدل من هذا الحديث؛ ومن هذه الصور أن «الجنب» يمكن أن يكون جزء جيش العدو الذي تحسن مهاجمته، ولهذا فليهاجم شليڤن «جنب» العدو، وقد يكون الهجوم على الجنب صعبًا عندما تكون كل قوة العدو سرية من المشاة أو أن تكون كتيبة أو غير هذا من الأقسام الصغيرة التي تنفصل وحدها، ولكنها تكون أيسر وأصلح كلما زادت قوة العدو وكلما امتدت خطوطه، وكلما ازداد الوقت الذي يحتاجه

(*) في الأصل Panacea تعني العلاج الوحيد والدواء الوحيد الشافي لجميع الأمراض والعلل. مُعجم ويبستر صفحة ١٠٥٥ (المترجم).

لمعاونة هذا الجنب الذي يتعرض للهجوم بقوات يسحبها من الجنب الآخر؛ ولكن كيف يهاجم جيش العدو؟! إنه ليهاجمه ولكن لا بفيلق أو فيلقين بل بجيش أو أكثر، وأن يوجه سير هذه الجيوش لا ضد جنب العدو بل ضد خط تقهقره الأمر الذي يماثل ما حدث في «أولم» وما حدث في «حملة شتاء سنة ١٨٠٧»، ثم ما حدث في «سيدان»، ونتيجة لهذا سيحدث الاضطراب في صفوف العدو وتسنح الفرصة لمعركة ذات مواجهة «معكوسة الاتجاه»، معركة الإفناء، معركة تكون في مؤخرة العدو الموانع والعوائق التي تعطله»[١].

وتتضمن هذه الكلمات خلاصة فكرة شليڤن الاستراتيچية للتغلب على مشكلة: «كيف يمكن القيام بحروب قصيرة حاسمة ضد عدو أكبر قوة؟»، وقد ألح شليڤن لزيادة عدد الجيش الألماني، وجاءت هذه الزيادة على فترات بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٩٠٦ ومع هذا فإن ألمانيا حتى تقاعده كانت قد دربت فقط ٥٤ ٪ من شبابها بينما كانت فرنسا قد دربت ٧٨ ٪ من مجموع شبابها الصالحين للتجنيد، ***والواقع*** أن شليڤن لم ينصح قط بالتعبئة العامة لكل رجال الألمان بل كل ما أوصى به هو إعداد القوات الكافية للعمليات، فإن الفكرة الاستراتيچية وكفاية الأفراد كانتا في تقديره أهم من الأفضلية في العدد ومن التكتل.

وبهذه الروح حاول شليڤن تدريب أعضاء هيئة أركان الحرب الألمانية هادفًا إلى زيادة واستكمال إعدادهم على مر السنين، ويمكننا المجلدان الأول والثاني من كتاباته العسكرية واللذان طبعا سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٨ من دراسة

(١) Shlieffen, Dienstschriften, I, ٨٦ – ٨٧.

تطور وتقدم آرائه الاستراتيچية وتعاليمه في الخمس عشرة سنة التي احتل فيها مكان شارنهورست ومولتكه في الجيش الألماني.

وكانت أغلب آراء شليڤن هي التكملة المنطقية للتقاليد الكلاسيكية لفردريك ونابليون ومولتكه مع تطبيقها في ظروف وأضواء الحرب الحديثة، ومع هذا فإن شليڤن قد وصل إلى أبعد مما وصل إليه أسلافه العظام بتخطيطه السابق لموعد التنفيذ ليس فقط لعمليات التعبئة والنقل والحشد، ولا لتوجيه الهجوم وحسب، بل وللمعركة الحاسمة نفسها، وبذلك أكسب ما قيل في الحديث عنها «خطة شليڤن لسنة ١٩٠٥» مكانها الصحيح في تاريخ الاستراتيچية، وإن كان من الضروري أن نلاحظ بأنه ليس من الصحيح أن نقول في حديثنا «خطة شليڤن لسنة ١٩٠٥» لأن الوثيقة لم تكن تزيد عن تخطيط أو مشروع لخطة تستند إلى قوات لم تكن إذ ذاك موجودة تحت إمرة القيادة الألمانية العليا.

ولقد كان نابليون يفخر بأنه خطط من قبل مسير كل حملاته، ولكن ما حدث فعلًا يتعارض مع هذا، وفي الجملة فإن نابليون كان ولا شك يتفق مع مولتكه في قوله:

«بأن رغبة العدو تحول دون إمكان تخطيط سير الحرب قبل بدئها»، ولكن شليڤن كان يؤمن بإمكان تعطيل رغبات العدو ونواياه وذلك بإرغامه من البداية على الوقوف موقف الدفاع، وكان هذا يتطلب الإسراع في العمليات، أي أن تتوافر للعمليات غاية ما يمكن تحقيقه من السرعة، ولم يكن هذا جديدًا في التاريخ الحربي فإن خفة الحركة الكبيرة كانت في كل العصور هي «الضرورة» العامل الأساسي للنجاح العسكري، وكل ما فعله شليڤن هو أنه طبق المبادئ والأصول القديمة في بلاد تتوافر لها وسائل جيدة

للمواصلات والنقل.

ولقد أكد شليڤن ـ بالإضافة إلى هذا ـ أن نجاح مثل هذه العمليات الاستراتيجية يتوقف على السيطرة الكاملة في كل منطقة الأرض، أو بمعنى أصح في الاصطلاح العسكري السيطرة على عامل «المسافة»، وذلك لمنع العدو من توجيه أية عمليات استراتيچية، وكانت خطة شليڤن لغزو شمال فرنسا عن طريق البلچيك وجنوب هولندا تقوم إلى حد بعيد على أساس الرغبة بإبقاء الجيش الفرنسي في النطاق الذي لا يستطيع الفكاك منه أي في النطاق بين القنال الإنجليزي وبين جبال الألب السويسرية، وقد حذر المرة بعد الأخرى بأنه من الضروري أن يصل الجيش الألماني الأول إلى القنال وإلى آبڤيل وإلا كان من الصعب تجنب عمليات تطويق الجنب التي قد يحاولها العدو، وسيجد الجيش الفرنسي ـ عندما يواجه بجيش ألماني يحمي الساحل الفرنسي جنبه الأيمن ـ بأنه من الصعب أن يمد جناحه الأيسر في الوقت المناسب وبالقوة الكافية لوقف الهجوم الألماني، بخاصة إذا ما شغل في نفس الوقت قلب الجيش الفرنسي بالمعركة.

ولم تترك خطة شليڤن للجيش الفرنسي فرصة للاختيار الاستراتيچي، بل تركت له وسيلة واحدة للعمل هي: الهجوم في الألزاس واللورين، وإن كان هذا الهجوم سيزيد من متاعب الفرنسيين فضلًا عن أنه لن يمكنهم من الحصول على نتائج حاسمة؛ ولم يرغب شليڤن في تقدير الانتفاع من أخطاء العدو، ولكن من الصحيح أيضًا أنه أمل في أن أخطاء العدو يمكن أن تيسر من الحصول على عمليات ناجحة إلا أنه توقع حدوث هذه الأخطاء من جانب الفرنسيين كنتيجة للتحركات المتضادة المتعجلة لمواجهة التوزيعات والأوضاع الألمانية غير المتوقعة، لقد كان شليڤن جريئًا، وكان على أتم

استعداد للمجازفة ولكنه لم يكن مغامرًا ولهذا رفض أن يقدر من البداية خطة فرنسية خاطئة يجعلها أساسًا لوضع مشروعه الاستراتيجي.

فإذا كان شليفن قد أراد أن يحول الحرب كلها إلى معركة واحدة يضع تخطيطها قبل موعد تنفذها، وأن يضع هذا التخطيط متمشيًا مع خطط التعبئة والنقل ومنسقًا مع الحشد الأولي للجيش، إذا كان قد أراد هذا فلا شك أنه قدر احتياجه إلى تنظيم كامل مدرب تمامًا يتولى قيادة الجيش حتى يمكن تنفيذ هذا التخطيط، وهنا نجد أن شليفن قد صور في تاريخ مبكر كيف يجب أن يكون القائد العام للجيش في أول حرب عالمية فقال: «إن القائد العام ـ في العصر الحديث ـ لا يمكن أن يقف مثل نابليون في ثيابه الزاهية فوق التل، ولن يمكنه أقوى منظار مكبر من رؤية الكثير من أرض المعركة. ثم إن جواده الأبيض سيكون غرضًا ظاهرًا سهل الإصابة من نيران عدد لا حصر له من بطاريات المدفعية[*]؛ إن القائد العام في العصر الحديث سيكون في منزل صغير في الخطوط الخلفية به عدة غرف تستخدم كمكاتب وتوجد في متناول يده في هذا المنزل أجهزة البرق والتليفون وآلات الإشارة السلكية واللاسلكية، على حين يقف رتل من السيارات والدراجات الميكانيكية في انتظار الأوامر للتحرك لمسافات طويلة، وفي هذا المنزل ـ فوق مقعد مريح وأمام خريطة كبيرة ـ سيجلس «الإسكندر» الحديث مطلًّا على أرض المعركة كما توضحها له الخريطة، وفي هذا المنزل ينقل له التليفون كل الأحاديث المشجعة، ويتلقى فيه تقارير قادة الفيالق والجيوش وتقارير المناطيد التي تراقب تحركات العدو وتكشف مواقع قواته»[١].

(*) يصف شليفن هنا ما كان يفعله نابليون في معاركه. (المترجم).

(١) Schlieffen, Cannae, p. ٢٧٨.

وقد أوضح شليفن لضباطه «أنه سيكون من غير الممكن دائمًا إصدار أوامر محددة للمعركة، وعلى أية حال فإن أوامر الهجوم قد استبدلت بأوامر السير، وليس معنى هذا أوامر السير التي تقود مباشرة إلى أرض المعركة، بل أوامر السير التي تبدأ بها تحركات الجيش بعد أن يتم احتشاده الأول والتي تقوده في النهاية فقط إلى الاصطدام بالعدو؛ وفي تقبلنا لتصوير عادي لسير الحوادث فإن الفيالق ستشكل خط المعركة في بساطة عندما تقابل العدو وتقوم بالهجوم، وسيجيء من التوجيه الذي في أوامر السير التوجيه لعمليات التطويق والاختراق وغيرها، أو بمعنى آخر في إيجاز ستجيء صورة المعركة كما خططها القائد العام؛ ولكن لا يمكن تقدير كل شيء إلى حد أن تسير الحوادث في هذا المسار الهين البسيط؛ فقد تحدث حوادث مختلفة تتطلب تحولًا عن الخطة الأصلية. هنا وهناك، وفي هذه الحال لن يمكن دائمًا الرجوع إلى القائد العام وطلب الأوامر منه إذ قد يتعطل البرق وغيره من وسائل المواصلات وبذلك سيواجه قائد الفرقة أو الفيلق بضرورة الوصول لقرار من تفكيره هو نفسه؛ على أنه لكي يتمشى هذا القرار مع فكرة القائد العام وتفكيره يجب أن يبقه هذا الأخير دائمًا على دراية تامة بالموقف، وفي ذات الوقت يجب على قائد الفيلق من الجانب الآخر أن يبقى نصب عينيه الآراء الأساسية لكل العمليات بل وأن يتعمق إلى داخل عقل القائد العام وتفكيره»(١).

وعلى نقيض مولتكه الذي تركت خططه المرنة للعمليات مكانًا لأخطاء كثيرة في التنفيذ، فإن استراتيجية شليفن تطلبت درجة كبيرة من الدقة؛ ***والواقع*** أن مولتكه لم يكن قط في موقف يمكنه من فرض رغبته إلى ذات

(١) Schlieffen, Dienstschriften, II, ٤٩.

الدرجة التي توافرت للسعداء الذي خلفوه وجاءوا بعده، وعلى أية حال فإن الجيوش الحديثة تبعًا لاحتشادها وتكتلها تتطلب تنسيقًا أكثر دقة إذا ما بقيت تتولى عمليات خفيفة الحركة وعلى الأخص عندما تستعيض بقوة المناورة عن النقص النسبي في القوى العددية.

ولهذا فقد وجه شليڤن عناية كبيرة إلى الاستراتيچية في تدريبه لأعضاء هيئة أركان الحرب، وقد دهش الكثيرون من الضباط لأن يروا بعض صغار الضباط في هيئة أركان الحرب وقد سمح لهم بإدارة المناورات لوحدات كبيرة من الجيش. على أن هذا لم يسبب إغفال المعرفة التكتيكية في الجيش الألماني؛ ولكنه سبب تناقص احترام القادة كبار السن والذين أبعدوا عن موارد الحكمة الاستراتيچية!! وتتضح لنا هذه الحقيقة من تقديرنا لهذا الدور الذي لعبه الليفتينانت كولونيل هنتش أثناء معركة المارن بإصداره الأوامر لتقهقر الجيوش الألمانية التي في الجنب الأيمن على نقيض القرار الحكيم الذي وصل إليه قائد الجيش الأول ورئيس أركان حربه، ومع هذا فإن كل هيئة القيادة العليا للجيش الألماني كانت قد تغيرت تمامًا تحت إمرة مولتكه الصغير خليفة شليڤن، إلى حد أنه من المستحيل إجراء مقارنة مباشرة، وقد أشار شليڤن دائمًا في كل أحاديثه عن مستقبل القيادة الألمانية بأنه سيكون للجيش قائد حقيقي (!) يتولى السلطة كلها، ولكن بلا شك أن شليڤن لم يقصد إطلاقًا أن يكون هذا القائد مترددًا في آرائه الاستراتيچية، ولا أن يترك في اللحظة الحرجة ضابطًا صغيرًا يصدر قرارًا تاريخيًّا حاسمًا نيابة عنه وباسمه كما حدث من الكولونيل هنتش عندما أصدر باسم مولتكه الأوامر بتقهقر الجيوش الألمانية التي في أقصى الغرب.

ولا يمكن كذلك القول بأن الحملة الفرنسية في أغسطس سنة ١٩١٤

كانت اختبارًا لخطة شليفن، فإن الموقف في سنة ١٩١٤ كان يختلف تمامًا عن الموقف في سنة ١٩٠٥، فإن روسيا كانت منذ سنة ١٩٠٥ قد حصلت على قوى جديدة، ثم إن فكرة الحرب الهجومية كانت قد تغلغلت إلى عمق كبير في أذهان أفراد هيئة أركان الحرب الفرنسية بتأثير دراسات الكولونيل جراند ميسون.

وقد تبع مولتكه الصغير فكرة شليفن في القيام بدفاع ضعيف في الشرق مع عمليات هجومية قوية في الغرب، ولكنه مع هذا عدل كثيرًا من خطة شليفن للجناح الأيمن الذي يقوم بالدوران، فبينما كانت النسبة بين الجناحين الأيمن والأيسر في تخطيط شليفن (١:٧) فإن مولتكه جعلها (١:٣)؛ فلقد كان مولتكه يخشى الاندفاع الفرنسي في الألزاس واللورين، ومع أن لتقدير مولتكه نصيبًا من الصواب إلا أنه لم يكن هناك من سبب لتقوية الجناح الألماني الجنوبي إلى هذه الدرجة، سيما وأنه يتمتع بالفوائد الدفاعية التي للتحصينات القوية في تلك المنطقة؛ بل ولا شك أن مولتكه كان يوزع قواته توزيعًا آخر لو كان قد اعتقد بأن الهجوم الفرنسي سيمكنه من الحصول على فرصة القيام بمعركة حاسمة في الألزاس واللورين، ولو ترك الفرنسيون قلاعهم وأرسلوا نصف جيشهم إلى اللورين لأمكن دفع جناحهم الجنوبي ضد الفوج والرين، ولأمكن تدميره وبذلك يضيع كل أمل للفرنسيين في المقاومة. وفضلًا عن هذا فإن معركة اللورين ستحدث قبل أسابيع ثلاثة أو أربعة من الموعد المحدد للقرار الحاسم المتوقع تبعًا لخطة شليفن لسنة ١٩٠٥ .

وهكذا نظر مولتكه إلى الجناح الألماني الأيمن نظرة أخرى؛ كان واجبه الرئيسي إغراء الفرنسيين لتوجيه هجومهم إلى اللورين، وفي هذه الحال فإن

الجيوش الألمانية تسير في طريقها عبر البلچيك ولكن استمرار السير نحو باريس قد يكون أقل أهمية إذا استطاع الجناح الألماني الأيسر أن يقوم بضربة حاسمة، وقد اختار مولتكه الصغير ـ في تقليد غير كامل لعمه مولتكه الكبير ـ أسلوبًا طليقًا من أساليب الاستراتيچية.

وعلى حين أراد شليڤن أن يعطي الفرنسيين فرصة تثبيت سير الاستراتيچية الألمانية نتيجة لتصرفاتهم هم أنفسهم فإن مولتكه جعل توجيه العمليات يستند جزئيًا إلى «رغبة العدو»، وقد سبب هذا الاتجاه وضوح عناصر غير مؤكدة في الأهداف الاستراتيچية للقيادة الألمانية العليا، وكان من الضروري لضمان التنسيق ولوضع القرار النهائي عن سير العمليات أن يكون مولتكه دائمًا على اتصال مباشر بالقوات وأن ينظم عملياتها تبعًا لتفكيره العسكري.

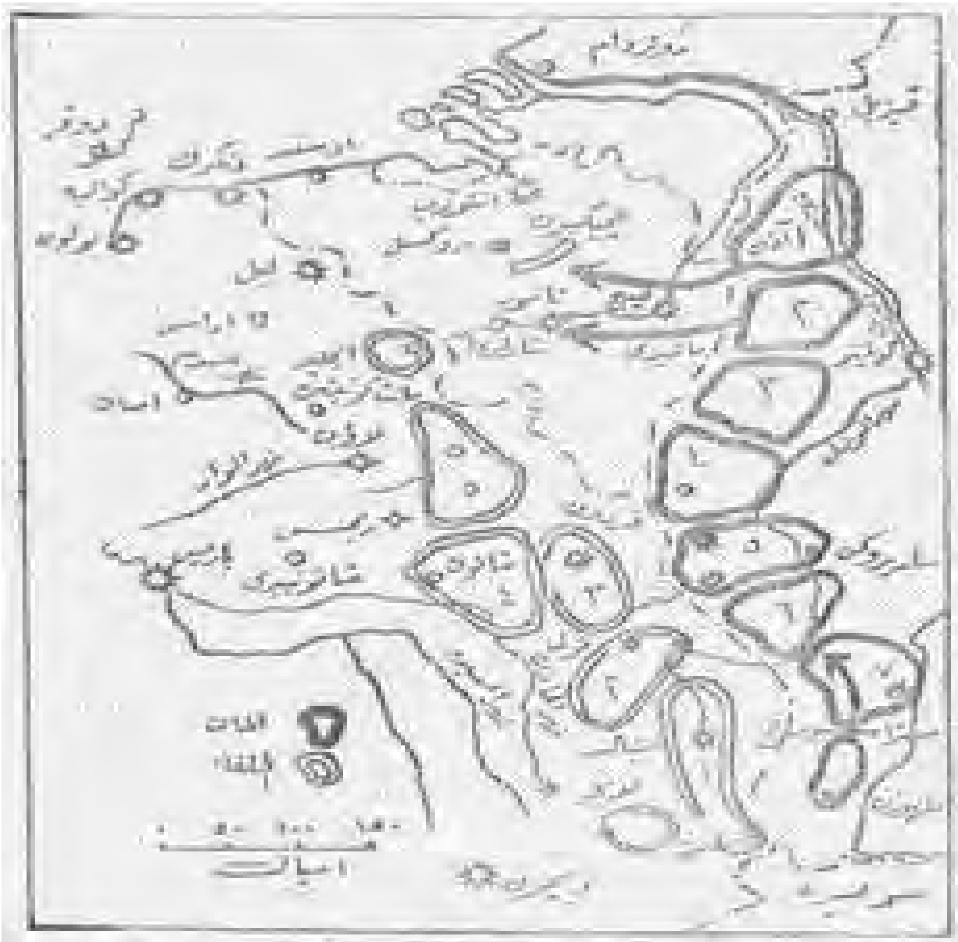
وكان من الممكن أن يحقق مولتكه حلمه بالحصول على معركة حاسمة في اللورين لو كان قد أصرَّ على أن يعمل الجيشان السادس والسابع تبعًا للخطة الأصلية، والتي كانا في ضوئها سيتقهقران للخلف ليسحبا الفرنسيين بعيدًا عن قلاعهم، ولو كان في ذات الوقت قد قام بخطى صحيحة لإبطاء سرعة تقدم الجناح الألماني الأيمن، ولو كان قد نقل القوات الكبيرة من اللورين «كما كانت الخطة الأصلية، وفي سنة ١٩٣٩ قدم الچنرال ڤيتز رئيس أركان الحرب للماريشال لودندورف في سنتي ١٩١٧ ـ ١٩١٨ مناقشة قوية الحجج والبراهين تؤكد المدى الذي كان سيصل إليه مثل هذا المشروع لو طبق تطبيقًا صحيحًا[1]؛ ولكن مولتكه بدلًا من هذا كله سمح

(١) “Das Bild des modernen Feldherrn”, Militar-Wochenblatt, pp. ٢٢٥٧ – ٢٢٦٤; ٢٣٢٩ – ٢٣٣٨ ٢٤٠٦ – ٢٤٠٩.

بإجراء هجوم «بالمواجهة» أمامي سابق لوقته المناسب، وقد أدى هذا إلى إرغام الفرنسيين على التقهقر، ولكنه تقهقر أوصلهم إلى منطقة أمن وسلامة في داخل حصونهم القوية، ومع هذا فإنه لم يمنع القيام باقتحام مباشر للخطوط الفرنسية، هذا الاقتحام الذي أوقع الجيش السادس في صعاب لها خطرها، وحال دون سحب أي قوات من يسار الخط الألماني لاستخدامها في الجنب الأيمن؛ ويحتمل أن يكون مولتكه الصغير قد وجد في مذكرات عمه «مولتكه الكبير» ما يجعله محقًّا في ليونته ورقة معاملته لقادة الجيوش، وإن كانت بساطة شخصيته وافتقاره إلى العزيمة كانا هما السبب الحقيقي لما حدث!!

لقد كان الجناح الألماني الأيمن في سنة ١٩١٤ من البداية أضعف من أن يحقق الأهداف التي وكلها إليه شليڤن، ولم يكن من المستطاع أن تصل الجيوش الألمانية إلى القنال وأن تعمل لغرب وجنوب باريس، ثم عاد مولتكه وأضعف من الجناح الأيمن بنقل فيلقين من البلچيك إلى بروسيا الشرقية في الخامس والعشرين من أغسطس، وافتقد الألمان هذين الفيلقين في معركة المارن، وفي ذلك التاريخ كان الفيلقان ما زالا في طريقهما إلى الشرق مع أن معركة تاننبرج كانت قد انتهت، ومما لا شك فيه أن القوات التي احتاجها لتقوية الجيش الألماني الثامن في بروسيا الشرقية كان من الضروري أن تسحب من الجناح الألماني الأيسر حيث كانت قوات الاحتياطي متوافرة.

لقد عمل مولتكه بتأثير معارك اللورين من ٢٠ إلى ٢٣ أغسطس والتي بدا أنها فتحت أمامه الطريق ليحصل على نتائج حاسمة؛ ومن جهة أخرى فإن تقدم الجيوش الألمانية عبر البلچيك كان سريعًا ومستمرًّا، وكانت هذه



تجمعات القوات في الغرب ١٩١٤

الجيوش في ذلك الوقت قد اجتازت الخط بروكسل / نامور والتي كانت تلي لييج في الاعتبار كأخطر «عنق زجاجة»، ومع هذا فإن واجبها الحقيقي كان قد بدأ لتوه فلم تكن الجيوش الألمانية قد نجحت بعد في تدمير القوى المعنوية لجيوش الحلفاء، ولم تنجح كذلك في تطويق أي وحدة للعدو تعمل منفصلة كالحملة الإنجليزية أو الجيش الفرنسي الخامس، ومما لا شك فيه أن الحاجة إلى قوات جديدة كانت ستزداد في الأسابيع القادمة تبعًا للسير الإرغامي الذي يقوم به الجنود.

ومع هذا فإن القيادة الألمانية كانت ـ بالرغم من نقل فيلقين ألمانيين إلى الشرق في ٢٥ أغسطس، وبالرغم من استخدام فيلق آخر دونها سبب لحصار موبيج بعد هذا بقليل ـ تستطيع تقوية الجناح الألماني الأيمن بنقل الجنود من الجناح الأيسر بالسكك الحديدية أو بتوجيه عمليات وسط الخط الألماني إلى اليمين بدرجة أكبر.

وقد بقي مولتكه يعتقد بأن الجناح الألماني الأيسر وإن كان غير قادر على تحقيق واجبه الاستراتيجي الأصلي إلا أنه يثبت قوات فرنسية كبيرة في مكانها ويحول دون نقلها إلى منطقة باريس، وبذلك فإنه يمكن الجناح الألماني الأيمن من تحقيق ما هدفت إليه خطة شليفن.

لقد كان الإيمان بخطة شليفن ـ والذي كان مولتكه نفسه قد أضعفه ـ قد بات في ذلك الوقت مدعاة لليأس، فلقد وضح أن الهجوم القوي ضد الجناح الغربي هو الفرصة الوحيدة الباقية في هذه المرحلة لتأكيد النجاح الألماني، وبالتبعية كان من الواجب القيام بكل ما يمكن لإعطاء الجيوش الألمانية الأول والثاني والثالث القوات الكثيرة التي تحتاجها لتوجه الضربة

الحاسمة للحلفاء، بل وحتى كان من الممكن أن يعطي مولتكه هذه الجيوش الثلاثة وقتًا قصيرًا للراحة التي كان الجنود يحتاجونها حقًّا، وكان من الممكن مع هذا القيام بكل التدابير التي تضمن القوة الأكبر للمعركة القادمة، ولكن شيئًا من هذا لم يفعله.

على أنه في الجانب الآخر كانت القيادة الفرنسية العليا تقوم بتوجيه جيد قوي لعمليات الجيوش الفرنسية كلها حتى في التقهقر الطويل المجهد الذي قامت به، وقد استخدمت القيادة الفرنسية شبكة الخطوط الحديدية في أرض فرنسا على أكمل وجه وإلى أكبر درجة يمكن الانتفاع بها لمواجهة الموقف وللتأهب للعودة إلى الهجوم في الوقت المناسب؛ وفي نفس الوقت كان مولتكه قد فقد الاتصال بحقيقة الموقف على طول الجبهة، فوسائل المواصلات ضعيفة والنقل بالخطوط الحديدية يمكن اعتباره مهملًا، ولكن كان السبب الرئيسي للصعاب وتعقد الموقف هو عدم معرفة قادة الجيوش بالخطط الاستراتيجية لرئيس هيئة أركان الحرب الألمانية إلى الحد الذي يمكنهم من التجاوب معها، لقد تنكب قادة الجيوش الألمانية في أخطاء كثيرة، بعضها فيما أغفلوا، وبعضها فيما نفذوا من أعمال، ولكن مع هذا لا يمكن تعنيفهم أو لومهم بشدة لأن القائد قد تركهم في الظلام إلى حد بعيد بالنسبة لصورة العمليات في جملتها.

وأخيرًا نجح الجيش الألماني الأول بسبب جرأة وشجاعة أفراده في تحقيق «المستحيل» الصعب بالتخلص من الخطر الأعظم الذي تنكب فيه، وبدا أنه سيبدأ في إدراك بعض ثمار الكسب المتوقع في ضوء خطة شليفن القديمة، ولكن حدث إذ ذاك أن أصدر الليفتينانت كولونيل هنتش ـ الذي بعث به مولتكه لبحث الموقف في الجناح الغربي ـ الأمر بالتقهقر، والغريب أن

مولتكه الذي حاول أن يتبع أسلوبًا استراتيجيًّا طليقًا، وأن يتجنب التفكير الصلب المقدر من قبل كما يتجنب السيطرة التامة التي فرضتها خطة شليڤن، بل وتقبل ما ينتج عن ابتكار قادة مختلف الجيوش، الغريب أن مولتكه الذي فعل هذا كله جاء في أحرج الساعات وحاول استعادة التنسيق بإعطاء سلطات كبيرة لعضو صغير السن والرتبة من هيئة أركان حربه، لقد كان هنتش في الحقيقة ضابطًا دربًا، وقد أثبت كفاية ممتازة عندما عمل كرئيس هيئة أركان الحرب في الحملة الصربية سنة ١٩١٥، ولكن القرار الذي أصدره في الثامن من سبتمبر سنة ١٩١٤ كان إلى حد بعيد نتيجة للمفاجأة عندما وجد أن حقيقة أحوال معركة الجناح الألماني الأيمن أخطر بكثير مما قدرت القيادة الألمانية العليا الموجودة في لوكسمبورج«!!».

لقد كانت خطة شليڤن في أضعف صورها، «وبالرغم من التوجه المضطرب غير الواضح والمتعدد المعاني للاستراتيجية الألمانية» تعطي الهجوم الألماني لسنة ١٩١٤ قوة دافعة لها خطرها، وما كان من الممكن أن تفشل دون تحقيق النجاح لو كانت القيادة الألمانية العليا قد آمنت بها تمامًا من البداية، بدلًا من التأرجح بين فكرة الحرب «في بروسيا الشرقية» وفكرة «الحصول على القرار الحاسم في اللورين».

لقد كان شليڤن محقًّا عندما تنبأ بأنه من الصعب تحقيق أكثر من نجاح عادي في اللورين بسبب استطاعة الفرنسيين العودة إلى تحصيناتهم، وهو لم ينكر بأنه تجيء في الحرب مواقف جديدة تجعل القائد العام مضطرًّا لإجراء توزيعات جديدة لقواته؛ إلا أن جعل الحشد كله في الجناح الأيمن كان سيمكن من توحيد وتنسيق كل العمليات، وكان من الممكن لو تم هذا أن يقنع القائد العام بترك العمليات العادية لرؤساء أركان حرب الجيوش



سير الألمان في الغرب حتى ٥ سبتمبر ١٩١٤

المختلفة، وحتى في حال اضطراب وسائل المواصلات كان من الممكن لقادة الجيوش أن يعملوا طبقًا للخطة العامة للعمليات.

ولم تكن خطة شليفن لسنة ١٩٠٥ هي إجابة شليفن الأخيرة لحل مشكلات الحرب المقبلة، فهو ـ كما قلت من قبل ـ كان ميالًا لأن يتقبل أن الفرنسيين لن يتركوا تحصينات حدودهم ويتقدموا أمامها، وكان هذا بلا شك صحيحًا فإن الخطة الفرنسية للتعبئة «الخطة رقم ١٥»[١] وضعت على أساس دفاع استراتيچي ، وقد لاحظ شليفن في سني تقاعده زيادة نفوذ المدرسة النابليونية الحديثة في فرنسا أي: مدرسة «الحرب الهجومية»، وقد خشي أن تعمل هيئة أركان الحرب الفرنسية لمواجهة الهجوم الألماني بهجوم فرنسي في البلچيك بالاحتلال المبكر للخط «نامور / بروكسل / انتويرب»، ولم يكن شليفن محقًّا في كل مخاوفه، ولكن من الصحيح أن الجنرال ميتشل ـ الرجل الذي ظن بأنه سيعين رئيسًا لمجلس الحرب الأعلى الفرنسي ـ قدم في سنة ١٩١١ خطة تكاد تكون هي الخطة الألمانية لسنة ١٩١٤، وكانت خطة ميتشل هذه هي التي طبقها الحلفاء تقريبًا في سنة ١٩٤٠؛ مما يجعلنا نشك في أن جاملان[٢] كان متأثرًا بها، على أن الذي حدث في سنة ١٩١١ هو أن خطة

(١) وضعت هذه الخطة سنة ١٩٠٣ ثم عدلت تعديلاً هيناً في سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ والمرجع الرئيسي الذي يمكن منه معرفة الخطط الفرنسية للتعبئة من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٩١٤ هو المؤلف الرسمي للحرب العالمية الأولى الذي اشتركت في إعداده وزارة الحرب وهيئة أركان حرب الجيش والقسم التاريخي ووسم بعنوان "Les Armées Françaises dans la Grande Guerre" المُجلد الأول وملاحقه طبع باريس سنة ١٩٢٢.

(٢) موريس چوستاف جاملان ولد سنة ١٨٧٢ تعلم في سان سير، وكان أركان حرب جوفر ١٩١٤ – ١٩١٦، تولى قيادة فرقة مشاة سنة ١٩١٧ وكان على رأس بعثة عسكرية إلى البرازيل من ١٩١٩ إلى ١٩٢٥ ثم تولى قيادة القوات الفرنسية في الشرق الأدنى حتى=

ميتشل لم تقبل، وعين جوفر قائدًا عامًّا للجيوش الفرنسية ووفق على «الخطة ١٧» التي بنيت على أساس أن الألمان سيغزون البلچيك ولكن لن تتوافر لهم أي قوات فيما وراء نهر «الميز»، ولم يستطع أي ضابط أو مؤرخ فرنسي أن يوضح سبب هذا التحرك الأعمى من جانب إدارة المخابرات العسكرية

=سنة ١٩٢٨، وبعدها تولى رياسة هيئة أركان الحرب للدفاع الوطني سنة ١٩٣٨ فقائد عام قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩.

وكان جاملان بين المجموعة التي أملت كثيراً في قوة تحصينات ماجينو وقد اعتبر بين المجموعة التي تسببت في هزيمة يونيو ١٩٤٠ بالرغم من أن ڤيجان كان خلفه في القيادة قبل أن يبدأ الثلث الأخير من مايو ١٩٤٠، وحوكم في ريوم سنة ١٩٤٣ وحكم عليه بالسجن وقد نشر جاملان في سنة ١٩٤٦ كتابه "الجيوش الفرنسية سنة ١٩٤٠" كدفاع عن دوره في هزيمة سنة ١٩٤٠.

وقد حاول جاملان في كتابه أن يوضح جهوده لإعادة تسليح فرنسا وأن يُثبت أنه لم يغفل قط عن أن يوضح للضباط الفرنسيين طبيعة المعركة القادمة وأن مركزه كان دقيقاً فقد كان هو فعلاً قائد عام القوات الفرنسية ولكن كان الجنرال جورج قائد قوات فرنسا بل وقوات الحلفاء في شمال شرق فرنسا، وقد أطلق جاملان يده ولم يتدخل إلا في التاسع عشر من مايو لإنقاذ الموقف مُصدراً أوامره بأن تقوم المجموعة الأولى الفرنسية بالهجوم المضاد على الضلع الجنوبي للزاوية الألمانية، ولم يُنفذ هذا الأمر لأنه بعد ساعات من إصداره استبدل بفيجان.

والواقع أن جاملان قد فهم الحرب الخاطفة وقدر أهمية المدرعات والجو، وقد أوضح هذا لمرءوسيه كما أوضح في تعليماته أن قطاع مونتميدي – سيدان هو القطاع الذي يحتمل توجيه الهجوم الألماني منه كما حدث فعلاً، ولكن أحداً لم يأخذ برأيه.

ويُلقي جاملان كل اللوم على الجنرال جورج في عدم تقويته لجيش كوراب الجيش الذي اخترق الألمان الجبهة عنده وبدأوا الزحف البرقي الخاطف إلى ما وراء مؤخرة الفرنسيين مما أوقع الفوضى في صفوفهم كما يُنسب إليه إهماله في تقوية جيش هنتزنجر بالمثل وربما يكون من الصحيح أن جاملان كان يواجه مجموعة مُضادة في صفوف الجيش إلا أنه ما كان له أن يترك الأعنة من يده والمعركة معركة حياة أو موت ليس بالنسبة له بل بالنسبة لبلاده كلها. (المترجم) راجع E. Encycl. Vol. ٦ pp. ٢٣٢ – ٢٣٣.

الفرنسية.

والواقع أن من الطريف أن نلاحظ بأن شليفن في سني تقاعده لم يقنع قط بتقدير ما يمكن أن يكون في صالح العدو، بل وبقي سباقًا إلى التفكير في التطورات الحديثة في ميدان «التكتيك» وميادين «البحوث الفنية»؛ وفي غمرة خوفه من احتلال الفرنسيين للخط «انتورب / نامور» وبالتبعية قيامهم بالهجوم في اللورين فقد ألح بضرورة إعداد احتياطي قوي وراء الجبهة الألمانية، وقد اقترح كأحسن تدبير مضاد استخدام هذا الاحتياطي من البداية لتقوية قوات المعركة، كما أوصى بأن يحصل الألمان على قوة «المبادأة» من البداية على طول الجبهة من «بلفورت» إلى «لييج».

وكان شليفن لا يزال محتفظًا بإيمانه بأن نجاح الجناح الألماني الأيمن هو وحده الذي يمكن أن يجيء بنتائج استراتيجية عظيمة، وظن في نفس الوقت أنه اكتشف فرصًا جديدة استراتيجية في النقل بالسكك الحديدية، وكانت الفكرة التي تحدث عنها مولتكه الكبير من أن أي خطأ يحدث في عملية الحشد الأصلية لا يمكن تصحيحه طول الحملة قد بدأت تفقد قوتها في ضوء الأحوال في غرب ووسط أوروبا، فإن كثافة الخطوط الحديدية كانت تمكن القائد من أن يحول القوات من جانب إلى الجانب الآخر، وقد جربت هذه العملية على نطاق واسع في المباريات الحربية والمناورات لهيئة أركان الحرب الألمانية التي تولاها شليفن.

ولكن أظهرت القيادة الألمانية العليا في سنة ١٩١٤ أن كل هذه الآراء لم يكن لها أثرها في عقلية خليفة شليفن، وأثبت الفرنسيون أنهم أقدر وأكثر توفيقًا في استخدام هذا المورد الجديد لخفة الحركة وأنهم أيضًا أول من اكتشف إمكان استخدام النقل الميكانيكي بالسيارات عندما نقل جاليني من

باريس القوات في سيارات التاكسي إلى المواقع على المارن، وعندما استخدم فوش السيارات لنقل ستين ألف جندي إلى الفلاندرز في سبتمبر سنة ١٩١٤ .

ولم تهدم معركة المارن مكانة شليفن بين الضباط الألمان، بل على النقيض وضح أن «حرب المواقع» الحرب الطويلة الأمد المعدومة الأمل ـ في الغرب مع ما صحبها من تأثير في النظامين الاجتماعي والاقتصادي لألمانيا إنما كانت نتيجة لإغفال تعاليمه التي تدل على عبقريته العسكرية، وقد أدى اتباع هذه التعاليم في الميدان الشرقي إلى الكثير من الانتصارات الفذة مثل «تاننبرج» و «حملة شتاء سنة ١٩١٤ عند بحيرات الماسوريان» وفي «هيرمانستادت» في باكورة الحملة الرومانية لسنة ١٩١٦ ؛ وقد استطاع الجيش الألماني بمعاونة هذه الانتصارات من أن يقاتل اتحادًا دوليًّا على نطاق واسع لأربع سنوات وأن يصل في هذا القتال إلى ما يقرب من النصر.

ولم تضعف هزيمة ألمانيا في سنة ١٩١٨ من الاعتقاد بعبقرية شليفن وسيادته على الفن العسكري حتى في ضوء الحرب الحديثة التي كان طابعها يقوى ويشتد مع خطى ألمانيا الواسعة للعودة إلى التسلح؛ ولكن برغم أنه وجدت في الجيش الألماني في الأمد بين الحربين العالميتين، أي بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٩ مدرسة «تدين بعقيدة شليفن» إلا أن استراتيجيي الجيش الهتلري أمثال جرونر وسيخت وفريتشس وبك لم يغفلوا نقد نظريات شليفن بتعديل يتفق مع ما وجهوه إليها من نقد.

كانت قد كثرت في الجيش الألماني الهتلري اتجاهات جديدة للإيمان بقوة الابتكار الاستراتيجية وتقدير قيمة خفة الحركة ومناورات التطويق، ولكن كانت هزيمة سنة ١٩١٨ في ذات الوقت قد جعلت للدروس المستفادة من

الحرب العالمية الأولى أهميتها، ***والواقع*** أنه بعد توقف الهجوم الألماني ضد فرنسا في سبتمبر سنة ١٩١٤ بدأت مشكلة الحرب الدفاعية تتخذ لها طابعًا له أهميته فإن أغلب القتال الذي دار على الجبهة الشرقية كان في الحقيقة قتالًا دفاعيًّا؛ وبينا كان الجيش الألماني بعد سنة ١٩٣٣ ما زال ضعيفًا كانت مشكلات الدفاع تحتل المكان الأول في تفكير هيئة أركان الحرب الألمانية، ومما لا شك فيه أنه توافرت لأفراد هيئة أركان الحرب الألمانية آراء عن الدفاع أكثر مما وضع موضع التجربة والتنفيذ في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، وتلقي دراسات الفيلد ماريشال ڤون ليب عن «الدفاع» في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ بعض الضوء على هذه الجهود(١)، كما وضح في أثناء الحرب العالمية الثانية ميل الضباط الألمان للاستناد إلى التحصينات بدرجة أكبر مما كان لهم من قبل.

على أن الأهم من هذا كان هو «التجربة» أو «الدراية» التي أمكن الحصول عليها من استخدام الهجمات الأمامية بالمواجهة، فقد أرغمت حرب الخنادق «١٩١٤ ـ ١٩١٨» القيادة الألمانية العليا للبحث عن اقتراب استراتيجي جديد للحصول على المعركة الحاسمة، إذ أكد الاقتحام التكتيكي بالواجهة ما سبق أن تنبأ به شليڤن من أن هذا يمكن من إرغام العدو على التقهقر ولكنه ـ رغم تقهقره ـ سيكون طليقًا يستطيع العودة للقتال في مواقع جديدة؛ وإذن فمن الضروري للحصول على نتائج حاسمة

---

(١) نشرت هذه الدراسات لأول مرة في: Militarwissenschaftliche Rundschau, ١٩٣٧ ثم نشرت بعد ذلك في مُجلد منفصل بعنوان: Wilhelm Ritter von Leeb, Die Abwehr (Berlin, ١٩٣٨) ، وقد نشرت الترجمة الإنجليزية له بعنوان "الدفاع" من قلم: S. T. Possony و D. Vilfroy "طبع هاريسبورج سنة ١٩٤٣".

اختراق خطوط العدو إلى المدى الذي يعرض مواصلاته الخلفية للخطر، وأن يسبب تدمير حريته على العمل، وكان أول نموذج لاستراتيجية الاختراق الناجحة هو معركة «جورليستارنو» في مايو ١٩١٥ والتي وضع سيخت تخطيطها، وكانت النتائج كبيرة وكان من الممكن أن تكون أعظم وأكبر لو كانت العمليات قد أعدت إعدادًا كاملًا، ثم مر أسبوع بعد معركة «جورليستارنو» وقام الحلفاء بهجومهم الاقتحامي في «آراس» و «لاباسيه»؛ وهكذا كان الجانبان ـ الحلفاء والألمان ـ يقومان بتجربة عمليات الاختراق في ضوء ما يمكن تحقيقه منها من الاستثمار الاستراتيجي لنتائجها؛ وكانت أكبر محاولة من هذا الطابع مليئة بالأطماع هي هجوم لودندورف في فرنسا في ربيع سنة ١٩١٨ ، هذا الهجوم الذي هدف إلى الحصول على قرار حاسم قبل أن تنضب قوة ألمانيا وتتفتت، ولكنه لم يحقق نجاحًا استراتيجيًّا بل كل ما حدث هو إحداث انبعاج عميق داخل جبهة الحلفاء ولكنه لم يحدث أي تمزق خطير في هذه الجبهة.

وكان فشل هجوم ربيع سنة ١٩١٨ وانهيار خطة شليڤن سنة ١٩١٤ هما الموضوعين الرئيسيين في المناقشات العسكرية التي دارت في ألمانيا بعد سنة ١٩٢٠، وقد أجمل «كرافت ڤون ديلمنسيجين» رئيس أخصائيي المدفعية في عصر لودندورف هذا النقاش قبيل الحرب العالمية الثانية بسنتين في كتابه «عملية الاختراق» الكتاب الذي نشر بين كتب التعليم للجيش الهتلري، وفي صورة ما فإن «ديلمنسيجين» أبقى عقيدة شليڤن من أن «عملية الاختراق هي دائمًا أصعب الصور أو الوسائل للوصول إلى قرار»، أبقاها في نطاق محدد هو «أنها تحركًا تمهيديًّا قد يلقي جزاءً صارمًا على العدو»، «أما

النصر النهائي فيمكن إدراكه بعمليات تطويق متتالية»[١]؛ ومع هذا فقد أضاف المؤلف أنه لن يمكن في المستقبل تجنب محاولة الاختراق، وعلى هذا فإنه «لن يكون أي جيش هو وحده الجانب الذي يستطيع استثمار نظريات الاختراق إلى غاية ما يمكن»[٢].

وكان الحل ـ كما في شبيه هذا من الدراسات الألمانية ـ استعادة عامل المفاجأة وخفة الحركة بواسطة القوات الميكانيكية، والقوات المحمولة بالسيارات، وقد تعلم الجيش الألماني من خصومه في هذا الميدان أكثر مما تعلم منهم في أي ميدان آخر،

فلم ينس الألمان اليومين الأسودين يوم الثامن عشر من يوليو والثامن عشر من أغسطس سنة ١٩١٨ عندما اندفعت دبابات الحلفاء للأمام عند سواسون وأميان وأكدت بهذا هزيمة ألمانيا، لقد كان اقتحام الدبابات نصرًا تكتيكيًّا عظيمًا بالرغم من أن مداه الاستراتيجي كان محدودًا، وقد عملت هيئة أركان الحرب الألمانية لسنة ١٩٣٠ على زيادة مثل هذه الإمكانيات التكتيكية باستخدام الأسلحة الجوية مع القوات المدرعة، ولكن كان الهدف الرئيسي هو تطور التكتيك حتى يؤدي هذا إلى إحياء استراتيجية شليفن للاختراق والإفناء والتي بدا وكأنها قد فقدت قوتها في حرب المواقع من سبتمبر ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ .

وفي هذه الصورة نفسها كان الهجوم الألماني على فرنسا سنة ١٩٤٠ لا يزال يتبع آراء شليفن، ومع هذا فإن خطة شليفن نفسها لم تعد إلى الحياة، فإن خطة سنة ١٩٤٠ كانت تهدف إلى اختراق وسط جبهة الحلفاء «الأمر

(١) K. Kraft von Dellmensingen, Der Durchbruk, ١٩٣٧, p. ٤٠٥

(٢) نفس المرجع ص ٤٠٧.

الذي تحقق في سيدان يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٠»، على أن تتبع هذا معركتا تطويق أولاهما في القتال ضد الجيوش الفرنسية والإنجليزية التي في الشمال على أن تدفع هذه الجيوش إلى الساحل البلچيكي والقنال الإنجليزي، وأن توجه المعركة الثانية من خط «سيدان ـ آبڤيل» هادفة إلى دفع الجيوش الفرنسية ضد تحصينات ماجينو والحدود السويسرية، وكان هتلر محقًّا في أن يؤكد لمجلس الريشستاغ الألماني وجود فروق بين حملة سنة ١٩١٤ وحملة سنة ١٩٤٠ ؛ ***والواقع*** أن المرحلة الثانية من الحرب الفرنسية تقدم بعض الصور التي تماثل خطة شليڤن، على حين تماثل المرحلة الأولى ـ «معركة البلچيك» ـ إلى حد ما استراتيچية مولتكه الكبير ضد ماكماهون في سيدان، ومع هذا فإن كلتا مرحلتي معركة فرنسا كانتا تعتمدان على الاختراق الذي حققته الأفضلية الكبيرة التي للهجوم على الدفاع في هذه الفترة من التاريخ.

وقد أثرت هذه الفرصة النادرة في الصورة العامة للاستراتيچية الألمانية، ولكن كانت تعاليم شليڤن هي التي عاونت لتوجيه الفكر العسكري الألماني نحو إيمان جديد بالحرب الخفيفة الحركة، لقد كان نفوذ شليڤن وتأثيره في التاريخ العسكري الألماني للنصف الثاني من القرن الماضي تأثيرًا ممتازًا لا مثيل له، ومع أن التقاليد العسكرية الألمانية وصلت في ارتقائها إلى مستوى عالٍ جديد عن طريق جهوده ونشاطه الشخصي، إلا أنه توافرت عدة علائم تدل على أن المدرسة الاستراتيچية الألمانية قد فقدت النشاط المثالي والقوى الواقعية التي كانت لها فيما سبق، لقد كان شارنهورست وچنيسناو مصلحين عسكريين كما كانا مصلحين قوميين، لقد أرادا إصلاح الجيش البروسي ليس فقط للقيام بحرب التحرير ضد نابليون، بل لبناء «بروسيا جديدة» أكثر تحررًا، وقد نظر هذان المصلحان إلى مشكلات الحرب من وجهة النظر إلى

السلم الذي يتبع هذه الحرب مقدرين بأن الاتجاهات الاجتماعية لأي تنظيم عسكري عادة بعيدة المنال، وقد وضع كلاوزيڤيتز تعاليمه من أن الحرب عمل سياسي وأن السياسة والحرب لهما ذات المنطق المتماثل الذي يستخدمه الآخر متمشيًا في تنسيق تام مع آراء شارنهورست وچنيسناو.

وقد أوقفت الفترة التي تلت مؤتمر ڤيينا كل محاولات الإبقاء على اتصال مباشر بين الجيش وبين القوى السياسية والاجتماعية الجديدة، واستعاد الأشراف البروسيون السيطرة على الجيش؛ هذه السيطرة التي كانت الدعامة الأساسية للملكية المتحفظة في ألمانيا، ***والواقع*** أنه فيما عدا الاحتفاظ بالسلطات الملكية وعلى الأخص الحقوق التي للملك في المسائل العسكرية فإن الضباط لم يسهموا بأي نصيب في الشئون السياسية وبقوا بعيدين عن الآراء الجديدة لهذا القرن.

وقد توافر لمولتكه الكبير الكثير مما توافر لكلاوزيڤيتز من الرغبة الثقافية العامة، وقد أثرت هذه الحقبات العاصفة من السنين بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧١ في أفكاره إلى عمق كبير، وكانت «إجاباته» على المشكلات السياسية لذلك العصر تتبع الأصول التحفظية بل وأكثر انغمارًا في هذا الاتجاه المحافظ من سياسة بسمارك الانتهازية. وقد عمل مولتكه بقوة ليدعم سلطته ضد تدخل رئيس الوزراء في المسائل العسكرية، ولكنه في نفس الوقت تقبل زعامة بسمارك السياسية.

والواقع أن نجاح بسمارك في الداخل والخارج قد عاونا الجيش ليرتد ثانية إلى صورة الرجعية القديمة بعد أن حرره من الخوف من سيطرة البرلمان ومن السيطرة الشعبية، وتبعًا لهذا كان الجيش راغبًا في أن يتبع الحكومة الإمبراطورية في انقياد أعمى حتى بعد سنة ١٨٩٠ عندما تولى ويليام الثاني

كل السلطات التي كانت لويليام الأول وبسمارك معًا.

وكان من واجب شليفن باعتباره المستشار العسكري الأول للتاج أن يرفع صوته ضد ما يعرض سلامة ألمانيا للخطر، هذه الأخطار التي أوجدتها سياسة ويليام، فإن البرنامج البحري لويليام وتربيتز قد سبب وقوف بريطانيا في المعسكر المضاد، ولكن شليفن لم يحذر الحكومة من هذه السياسة مع أن حال التسليح الألماني كان مثلها مثل خطط ألمانيا الحربية جعلت من غير الممكن إغفال هذا الطابع التهديدي الذي للموقف الدولي. كانت خطة شليفن للعمليات تقوم كما رأينا على أساس توقع أن هزيمة فرنسا سترغم بريطانيا على التماس السلم على أن هذا لم يكن أكثر من أمل لأن هيئة أركان الحرب الألمانية لم تضع غزو إنجلترا موضع التقدير إطلاقًا.

ولو استمرت الحرب بين ألمانيا وروسيا بعد إتمام هزيمة فرنسا فإن بريطانيا تستطيع شل تجارة وصناعة ألمانيا وبذلك تضطر ألمانيا تعديل نظامها الاقتصادي والاجتماعي الأمر الذي كان شليفن يخشاه إلى حد بعيد.

ولكن الذي يثير الدهشة بدرجة أكبر هو أن شليفن لم يكن مسئولًا عن دور الأسطول الألماني في برنامج الدفاع الوطني ولا معنيًّا بهذا الدور؛ ذلك لأنه لم يكن من دور للأسطول في طابع الحرب التي وضع شليفن خطتها، وكان بناء الأسطول بهذا الحجم الكبير مضيعة للمال وللأفراد، بل وكان هذا هو شعور الجيش في كل وقت ذلك لأن الجيش لم يكن يستطيع الحصول على كفايته من الاعتمادات المالية لتكوين وتشكيل الفرق الجديدة وإمدادها بحاجتها من الضباط، هذه الفرق التي كانت لازمة لتنفيذ خطة شليفن.

ولم يشك شليفن كما لم يبد قلقه من الاتجاهات الدولية التي أثارها برنامج

بناء الأسطول، هذا البرنامج الذي كان من المحتمل أن يسبب تدخل بريطانيا عسكريًّا في قارة أوروبا بإنزال جيش بريطاني في أرض القارة، بل وقد فكر شليفن بدرجة أقل في مشكلات النظام القائم للحكومة الألمانية وعلى الأخص فيما إذا كان من الضروري للجيش أن يكون أقرب اتصالًا بالقوى الاجتماعية الجديدة حتى يكون له تأثيره القوي عندما تكون الأمة في حاجة إليه.

ولم يناقش- شليفن إطلاقًا هذا الحكم الأوتوقراطي لويليام الثاني، وقد عزف ـ حتى في محيطه العسكري ـ عن تقرير أن قلة دراية الإمبراطور بالمسائل العسكرية قد تسبب تفتت المملكة التي كوَّنها فردريك الأكبر.

لقد أحب ويليام الثاني أن يكسب مناورات ناجحة بوساطة اقتحام القوات الراكبة التي يمكن أن يقودها بنفسه، ولم يكن هذا هو كل شيء بل كشفت انتقاداته للتمرينات التي تقوم بها هيئة أركان الحرب عن نقص كفايته العسكرية وقلة درايته بشئونها، ***والواقع*** أن آراء ويليام الثاني قد أوجدت لونًا من القلق والخوف في صفوف الضباط، وكانت مدعاة لنقاش طويل بينهم، ولكن شليفن عمل جاهدًا لوقف هذا، على أساس أن توجيه النقد للإمبراطور يضعف السلطان الذي للملكية، هذا السلطان الذي تستند إليه معنويات الجيش البروسي، ولم يهتز إيمانه الأعمى بالملكية حتى بعد تعيين مولتكه الصغير رئيسًا لهيئة أركان الحرب، وإن كان هذا التعيين قد جعل شليفن يوجه النصح والتحذير من أن خطورة الموقف الاستراتيجي بالنسبة لألمانيا لا تسمح بأي خطى عسكرية «زائفة» غير دقيقة التوجيه.

وقد تسبب هذا الإيمان الأعمى بالملكية في بقاء شليفن بعيدًا عن إدراك

أن مشاكل الحرب أعمق من أن ينظر في حلها إلى الكفاية العسكرية وحدها، ولا يأمل أي قائد حديث في أن يقلد مارلبورو أو البرنس دوليني أو فردريك الأكبر أو نابليون في تولي السلطة السياسية والقيادة العسكرية، فلقد باتت المسائل العسكرية والشئون السياسية معقدة بدرجة كبيرة وباتت المهارة في كلٍّ تتطلب تجربة عملية طويلة في كل من الميدانين وإن كانت حقيقة أن الحرب عمل من أعمال السياسة لا تزال قائمة لم تتغير، وأرقى صور الاستراتيجية هي نتيجة المهارة العسكرية مصحوبة بالمقدرة السياسية الإنشائية، ولكن هذه الحقيقة التي كان يعرفها تمامًا أولئك الذين أوجدوا المدرسة الألمانية للاستراتيجية ـ غابت عن شليفن وتلاميذه.

لقد جعل فشل حرب الحركة في الميدان الغربي بعد معركة المارن، جعل القادة العسكريين للإمبراطورية الألمانية الثانية يواجهون ضغط السياسة والأحوال الداخلية والخارجية، وأثر هذا كله في إدارة الحرب، لقد سبب هذا ضرورة استحداث نظام للتعبئة على أساس الحرب الشاملة مع إعداد نظام جديد لاقتصاديات الحرب، إن الحرب تستند إلى استراتيجية برية، ولم يكن تلاميذ شليفن مدربين لتفهم حقيقة الحرب في مستوى عالمي، الحرب التي يجب خوض غمارها بأسلحة سياسية واقتصادية وسيكولوجية أسوة بأسلحة المشاة والمدفعية.

لقد ظن لودندورف أنه يستطيع بسهولة توجيه هذه القوى الجديدة كما يستطيع توجيه الجيش، ولكنه بإخضاعه الحكومة لأوامر القيادة العليا حول ألمانيا إلى ديكتاتورية عسكرية، ومع هذا فشل الجيش في دعم الجبهة الداخلية وإبقائها متماسكة.

لقد جعلت الثورة الألمانية لسنة ١٩١٨ ضباط الجيش الهدف المنطقي

للحملات الشعبية، ومع أن الجيش لم ينس إطلاقًا الإذلال الذي لحق به فقد بقي كقوة رجعية مضادة مدى الأمد القصير الذي عاشته الجمهورية الألمانية.

لقد آمن أصحاب العقول النيرة في الجيش الألماني بأن خطأ لودندورف يجب ألا يتكرر ثانية، ولم يكن هذا في رأيهم يعني أن يتعاون الجيش مع هذه القوى الشعبية الجديدة، بل كان يعني أن يتعاونوا مع أي حركة سياسية تمكنهم من أن يحشدوا كل جهودهم إلى الاستراتيچية كحرفة كما كانت الحال أيام شليفن، أي إلى «الواجب غير السياسي» ـ كما أحبوا أن يقولوا عن الاستراتيچية.

ولقد أدت هذه النظرية ـ حتى بأنبه أعضاء هيئة أركان الحرب الألمانية ـ إلى أن يفسحوا الطريق لوصول هتلر إلى القوة والسلطان في ألمانيا، ***والواقع*** أن القادة الألمان حصلوا من هتلر على كل الوسائل لتجديد حرب ١٩١٤ / ١٩١٨ ، ولكنهم لم يلبثوا أن تعلموا أن «الحرب عمل من أعمال السياسة»، وفي هذه المرة قادتهم السياسة النازية إلى الهزيمة في حرب قد أعدوا لها العدة على أساس تخطيط ناجح لاستراتيچية «كانِّي» ذلك لأن شليفن وأتباعه قد أغفلوا الحقيقة التاريخية، وهي أن قرطاجنة قد هزمت بالرغم من انتصارات هانيبال.

***

حديث المراجع:

مولتكه وشليفن

-M. Lehmann, Scharnhorst (١٨٨٦ -١٨٨٧).

-H. Delbruck, Geneisenau (٣rd. ed. ١٩٠٨).

-F. Meinecke, Boyen (١٨٩٦ – ١٨٩٩).

-C. Frh. von der Goltz, Kriegsgeschichte Deutschlands im ١٩. Jahrhundert (١٩١٤).

-H. Delbruck, Geschichte der Kriegskunst (١٩٢٨) Vol. V.

-R. Von Cammerer, Entwicklung der Strategischen Wissenschaft im ١٩. Jahrhundert (١٩٠٤).

(English translation, London, (١٩٠٥).

-F. Von Cochenhausen, fuhrertum and Heerfuhrer des Weltrieges General Wetzell, Militar- Wochenblatt (١٩٣٩). pp. ٢٢٥٧ – ٢٢٦٣, ٢٣٢٩ – ٢٣٣٨, ٢٤٠٦ – ٢٤٠٩.

-F. Von Cochenhausen, Von Scharnhorst zu Schlieffen (١٩٣٣).

-G. Wohlers, Die Staatsrechtliche Stellung des Generalstabes in Preussen und Deutschland (١٩٢٠).

-H. Von Moltke, Gesammelte Schriften und Denkwurdigkeiten ٨ vols (١٨٩١ – ١٨٩٤).

–F. Von schmerfeld: H. Graf von Moltke, Die deutschen Aufmarschplane (١٨٧١ – ١٨٩٠).

–P. Rassow, Der Plan des Feldmarschalls Grafen Moltke fur den Zweitfronten-Krieg ١٨٧١ – ١٨٩٠ (١٩٣٦).

–German Publication, Die Grosse Politik der Europaischen Kabinette (١٨٧١ – ١٩١٤).

–Prussian general staff: Moltke in der Vorbereitung und Durchfuhrung der Operationen (Kriegsgeschichtliche Eimzelschriften. XXXVII, (١٩٠٥).

–Spenser Wilkinson, The Early Life of Moltke, ١٩١٣.

–A, Von Janson, The Early Life of Moltke, ١٩١٥.

–H. Von Seekt, The Early Life of Moltke, ١٩٣١.

–H. Friedjung, Der Kampf um die Vorherrschaft Deutschlands (١st ed. Stuttgart ١٨٩٦ ١٠th ed ١٩١٦ – ١٩١٧).

–O. Von Lettow-Vorbeck, Geschichte des Krieges von ١٨٦٦ in Deutschland (١٨٩٦ – ١٩٠٢).

–General von Schlichting, Moltke und Benedek (١٩٠٠).

–E. A. Partt, The Rise of Rail-Power in War and Conquest ١٨٣٣ – ١٩١٤ (١٩١٥).

-H. Von Staabs, Aufmarsch nach zwei Fronten, auf Grund der Operationsplane von ١٨٧١ – ١٩١٤ (١٩٢٥).

–W. Von Blume "Politik und Strategie. Bismark und Moltke", (١٩٠٣).

–W. Busch, Bismarck und Moltke (١٩١٦).

–H. Von Haeften, Bismarck und Moltke (١٩١٩).

–P. Schmitthenner, Politik und Kriegsfuhrung in der neuesten Geschichte (١٩٣٧).

–Graf Alfred von schlieffen, Gesammelte, Schriften, ٢ Vols. (Berlin ١٩١٣).

–W. Foerster, Graf schlieffen und der Weltkrieg (Berlin ١٩٢١).

–Reichsarchiv, Der Weltkrieg (Berlin ١٩٢٥).

–R. Von Collenberg "Graf schlieffen und die deutsche Mobilmachung" Wissen und Wehr (١٩٢٧).

–W. Foerster, Aus der Gedankenwerkstatt des deutschen Generalstabs (Berlin ١٩٣١).

–H. A. De Weerd, Great Soldiers of the Two World Wars (١٩٤١).

–Biographical Sketches of Schleffen, by H. Rochs (١٩٢١). W. Elze (١٩٢٨) F. Von Boetticher (١٩٣٣), E. Bircher (١٩٣٧).

–W. Groener, Das Testament des Grafen Schlieffen (Berlin ١٩٢٧).

–W. Groener, Der Feldherr wider Willen (Berlin ١٩٣١).

–J. Courbis, Le Comte Schlieffen, Organisateur et Stratège (Paris, ١٩٣٨).

-J.V. Bredt, Die belgische Neutralitat und der Schlieffensche Feldzugplan (١٩٢٩).

–Reichsarchiv, Der Weltkrieg, Kriegsrustung und Kriegswirtschaft Vol. ١ and Vol. ١, Annexes.

الفصل التاسع

دوبيك وفوش:

المدرسة الفرنسية

ستيفاني بوسوني(*)

وإيتين مانتو

أدى هذا المدى الطويل الذي مر في سلم متواصل والذي انقضى بين سقوط نابليون الأول وبين الحروب الإيطالية والحروب الألمانية لاستكمال وحدة ألمانيا، أدى هذا المدى بالطبيعة إلى انعدام الحركة في تطور النظريات العسكرية، ولم تسنح للجيش الفرنسي بين «ووترلو» و «سولفرينو[١]» الفرصة لأية تجربة عملية في قتال كامل الصورة واسع المدى؛ كانت حرب القرم في غالبيتها حرب حصار المواقع المحصنة، وقنع الجيش الفرنسي بما اكتسبه في سني الثورة وحكم الإمبراطور من تجارب في القتال، وكان غزو الجزائر قد جاء بعدة نظريات جديدة في حروب الاستعمار، ولكن إلى غاية ما يعني الأمر بالقارة الأوروبية فإن كل الدراسات وقفت عند حد حملات

(*) كتب الدكتور ستيفان بوسوني الجزء الخاص بدوبيك، وكتب الدكتور آتيين مانتو الجزء الخاص بفوش.

(١) سولفرينو مدينة تبعد عشرين ميلاً لشمال غرب مانتوا في إيطاليا هزم فيها السردينييون والفرنسيون بقيادة نابليون الثالث الجيوش النمساوية وكان هذا في الرابع والعشرين من يونيو سنة ١٨٥٩م.

نابليون أو على التحديد بالدراسات التي كتبها چوميني، واستخدمت هذه الكتب الصغيرة التي كتبها كمراجع سهلة الحمل بوساطة كل الضباط الفرنسيين، أما غير هذا من مناحي المعرفة النظرية والدراسات فقد بدت وكأنها أكثر مما تتطلبه الحاجة[١].

ولم تبدأ السلطات العسكرية الفرنسية ـ حتى انتهت الحرب النمسوية / البروسية لسنة ١٨٦٦ وحتى كان انتصار البروسيين في سادوقا الذي غطى على النجاح الفرنسي في سنة ١٨٥٩ ـ في أن تشك أن تنظيم الجيش الفرنسي وعمل هيئة أركان الحرب الفرنسية ليسا كما يجب أن يكونا عليه من كمال ودقة ومن ثم بدأت تعمل في عجلة وسرعة، وبدأ نقاش ودراسة طويلان لبحث مشاكل التنظيم العسكري، وكانت الدراسات التي كتبها «أردان دوبيك» من أهم البحوث وأبقاها أثرًا.

***

(١) راجع الدراستين الأساسيتين بقلم: "Dallas D. Irvine"

"The French and Prussian Staff System before ١٨٧٠" Journal of the American Military History Foundation, II (١٩٣٨) pp. ١٩٢ – ٢٠٣.

"The French Discovery of Clausewitz and Napoleon" Journal of The American Military Institute, IV (١٩٤١) pp. ١٤٣ – ١٦١..

[١]

وكان القليل هو الذي يعرف من حياة «آردان دوبيك» اللهم فيما عدا أنه ولد في التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٣١ في «بيريجو» من أعمال «دوردون» وهي منطقة رأى الضوء فيها لأول مرة عدد كبير من أعلام الفرنسيين، وما عدا أنه تلقى دراسته العسكرية في «سان سير» وأنه خدم في حرب القرم حتى أسر في سباستبول، وأنه عاد للخدمة العسكرية في سوريا والجزائر وأنه قتل وهو يقود كتيبة من المشاة قرب متز في الأيام الأولى من الحرب الفرنسية ـ البروسية في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٧٠ ، في ذات الصورة التي فقد فيها تورين حياته في «ساسباك»؛ وعندما مات دوبيك كان قد نشر قبل قليل دراسته «القتال في الماضي» في طبعة خاصة قصد بها أن تكون مرجعًا خاصًّا لعدد قليل من الضباط، ثم طبعت منها طبعة أخرى من المجلة العسكرية «مجلة اتحاد الضباط» مجلد سنة ١٨٧٦ / ٧٧ ؛ وفي سنة ١٨٨٠ نشرت بعض كتاباته في مجلد واحد، ولم تطبع دراسته الأساسية: «دراسات عن المعركة» حتى سنة ١٩٠٢ ، وكانت هذه الطبعة هي الأساس للطبعات التالية التي قصد بها تقديم ما كتبه دوبيك كاملًا إلى غاية ما يمكن؛ ذلك لأنه في الواقع ترك الكثير مما حرره غير معد للنشر، ومع هذا فمن الممكن الشك في أن يكون هذا الكاتب الحاذق لم يكتب غير القليل من التعليقات على ما لا يزيد عن موضوع واحد وأنه لم يكتب شيئًا حتى كان قد أشرف على الأربعين.

وعلى أية حال فإن قصة حياته أو التأريخ له لم يكتب بعد.

ومع أن كتابه «دراسات عن المعركة» كان أكثر كتاب قرأه الجنود في الخنادق الفرنسية طوال الحرب العالمية الأولى باستثناء كتاب «الحرب والسلم» لتولستوي فإن كل دوائر المعارف الدولية لا تزال تتجاهل «دوبيك».

والآن وإن كان من الصعب أن توضع كتابات دوبيك في مكانها الصحيح من الناحية التاريخية، إلا أنه من الممكن الوصول إلى بعض المفكرين وإلى بعض التجارب التي كان لها ولهم التأثير الكبير في تفكيره.

ويقرر «آردان دوبيك» نفسه أن تفكيره العسكري قد تأثر كثيرًا بالماريشال بوچو(*) أشهر جندي فرنسي في العصر الذي بدأ فيه دوبيك دراساته العسكرية، وكان الماريشال بوچو مواطنًا من بيريجو كاردان، وقد يمكن أن تتقبل أن الماريشال بوچو قد تولى في صورة ما توجيه ونصح ورعاية الطالب الضابط طوال حياته العسكرية.

وكان بوچو من جانب آخر أقل تأثرًا بنابليون منه بسوشيه(**) الذي كان واحدًا من أنبغ ماريشالات نابليون بل وأكثرهم أصالة فنية، وقد وضحت حكمة بوچو وأصالة تفكيره واتزان منطقه في كل أعمال دوبيك.

ومهما كانت درجة التأثير المباشر لبوچو في دوبيك فمما لا شك فيه أن دوبيك كان على دراية تامة بكتاب الجنرال تروشو(***) والجيش الفرنسي في

(*) بوچو ... "توماس روبرت ذو لا بيكونيري" دوق إيزلي. ماريشال فرنسا ولد في ليموج (١٧٨٤ - ١٨٤٩) – معجم لاروس ص ١٢٤٨.

(**) سوشيه: لويز جبرابيل دوق البيفرا. ماريشال فرنسا ولد في ليون (١٧٧٢ - ١٨٢٦) – مُعجم لاروس ص ١٧٠٢.

(***) تروشو: لويس جول – قائد فرنسي ولد في باليه من أعمال بيل أيل أون مير سنة=

سنة ١٨٦٧ الكتاب الذي وقف فصلًا مهمًّا منه على الحديث عن مشكلات المعركة والذعر والسيكولوجية العسكرية للقائد، وكان تروشو من الثقات في تقدير بوچو، وكان كتابه الذي عرض فيه ثمار نقده الشخصي للجيش الفرنسي بعد سادوڤا من أكثر الكتب انتشارًا وذيوعًا في الوقت الذي بدأ فيه أردان دوبيك كتابة مؤلفه.

والواقع أن قراءة كتاب «تروشو» هي التي وجهت «أردان دوبيك» إلى وضع مؤلفه «دراسات عن المعركة»؛ فإذا أضفنا إلى هذا أن دوبيك قد أخذ بعض النقاط التي أبرزها في مناقشاته نقلًا عن الماريشال دي ساكس وجيبير وبرنس دوليني والماريشال مارمو(*) استطعنا أن نعرف أعلام العسكريين الذين سبقوه والذين أثروا في تفكيره.

ومن المؤكد أن خدمته العسكرية كانت أيضًا موردًا من موارد توجيهه؛ فإن عدم توافر المهارة والمقدرة بين أفراد القيادة العامة الفرنسية طوال حرب القرم كانت من أهم أسباب الموقف المضطرب، أن يفشل جيش وافر العدد في ميدان المعركة بسبب النسبة الكبيرة التي بين أفراده من غير المحاربين.

=١٨١٥، وتخرج من كلية سان سير سنة ١٨٤٠، ووصل إلى رتبة الكولونيل بعد إحدى عشرة سنة من تخرجه، تولى قيادة الفرقة الثانية من الفيلق الثالث في ماجنتاو سولفرينو سنة ١٨٦٦، وتولى قيادة الفيلق الثاني عشر سنة ١٨٧٠ وعُين حاكماً عسكرياً لباريس في ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٠ وكان يُنادي بعدم التسليم للبروسيين ومتابعة القتال للنهاية، وله مؤلف نقدي جيد هو: "Une étude critique et remarque L'Armée Française en ١٨٦٧" ومؤلف آخر عن حصار باريس، وتقاعد سنة ١٨٧٣ ومات في ثورة ١٨٩٦. (المترجم) مُعجم لاروس القرن العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ المجلد السادس ص ٨١٧.

(*) مارمو – أوجست فردريك لويس أوف مارمو دوق راجيز – ماريشال فرنسا ولد في شاتيو سير سين (١٧٧٢ – ١٨٥٢). معجم لاروس ص ١٥٢٦ (المترجم).

وتعلم من خدمته في سوريا وفي أفريقيا أن نظرية «الكتائب الكبيرة» لا تستحق كل هذه المغالاة في تقديرها، فليس من الصحيح أن النصر يكون دائمًا في جانب (الكتائب الكبيرة) الزيادة في القوى العددية؛ وفي أفريقيا قبل أي مكان آخر يجب على المرء «ألا يثق بالتقديرات الحسابية والمؤثرات المادية عند تطبيق هذه التقديرات والمؤثرات في أصول المعركة».

ويتابع دوبيك حديثه ليناقش نظرية «الحشد» في تعاليم نابليون فيقول:

«فلنناقش واجرام حيث لم يمكن وقف الحشد الذي قام به نابليون، فالواقع أنه لم يصل إلى المواقع الأمامية من الآلاف الاثنين والعشرين الذين حشدهم نابليون إلا من يمكن تقديرهم بين ألف وخمسمائة وثلاثة آلاف جندي فقط، ولا شك أن المواقع لم تسقط بضغط هؤلاء الجنود، بل بسبب التأثير المادي والمعنوي للهاية القطعة من المدفعية التي دفعها للأمام ثم بسبب الخيالة»؛ وهنا يسأل دوبيك: «فهل كان التسعة عشر ألف الذين غابوا عن الاشتراك فعلًا في المعركة غير صالحين للقتال؟ الواقع لا، بل إننا نستطيع أن نقتطع سبعة آلاف منهم أي ثلث جملة تعداد جنوده على أنهم كانوا في خضم المعركة، فماذا جرى إذن للآلاف الاثنى عشر الباقية» لقد كانوا يقفون على جانبي الطريق كالدمي الخشبية فلم تكن من حاجة ليسيروا إلى نهاية مرحلة السير حتى ميدان المعركة».

على أننا يجب أن نذكر النقاش العنيف الذي دار حول ضرورة إصلاح الجيش الفرنسي كنتيجة للانتصار الذي حصل عليه البروسيون في سنة ١٨٦٦ على النمساويين كحقيقة هامة أثرت بدرجة كبيرة في تفكير أردان

دوبيك؛ وفي سنة ١٨٦٧ تولى الماريشال نييل(*) وزارة الحرب، وقد وكل إليه أن يزود الجيش الفرنسي بالأسلحة الحديثة وأن يضاعف من عدده بإعداد احتياطي كبير قوي، بل وللعمل لإقرار التجنيد العام.

ولكن كان من المعروف أن نييل لن يستطيع التغلب على روح السياسة الحزبية، فقد كان الحزب البونابرتي يخشى إضافة أعباء عسكرية جديدة على الناخبين، وكانت المعارضة تخشى أن تثبت إصلاحات الجيش وتدعم من نظام نابليون الثالث، ولكن غير المعروف هو أن الجيش الفرنسي نفسه كان إلى حد ما يعارض آراء نييل، وقد هدف تروشو في كتابه إلى إيضاح مدى التوافق الممكن بين السرعة في تنفيذ الإصلاحات العسكرية وبين كراهية الضباط الفرنسيين لفكرة التجنيد العام.

وكان أردان دوبيك خصمًا عنيفًا لآراء الماريشال نييل، ولكنه كان شريفًا في خصومته مؤمنًا بواجبه في هذه الخصومة، ومن الممكن تفسير كتابه ـ إلى حد ما ـ في ضوء هذا على أنه إثبات بالبراهين والأدلة على خطأ آراء الماريشال نييل الخاصة بالخدمة العسكرية العامة.

(*) نييل – أدولف (١٨٠٢ – ١٨٦٩) ماريشال فرنسا ولد في نيريه وقد عمل لزيادة خفة حركة الجيش الفرنسي – تخرج أصلاً من مدرسة الهندسة، وترقى لرتبة اليوزباشي سنة ١٨٣٣. ولرتبة الكولونيل سنة ١٨٤٦ وعمل رئيساً لأركان الحرب للجنرال فيلا في حصار روما، وترقى لرتبة الأميرالاي سنة ١٨٤٩، وعين ياوراً للإمبراطور نابليون الثالث، ثم عُين خلفاً للجنرال بيزو Bizot في قيادة المهندسين في حصار سباستبول أثناء حرب القرم، وتولى بعد هذا في الحرب الإيطالية قيادة الفيلق الرابع واشترك في معركتي "ماجنتا" و"سالفرينو"، وشغل منصب وزير الحربية خلفاً للماريشال راندون في ١٩ يناير ١٨٦٧ ومات في باريس سنة ١٨٦٩. معجم لاروس القرن العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ – المُجلد الخامس ص ٣٨.

وقد وقف دوبيك في مناقشته القيمة للنسبة بين الجيش المحترف الصغير العدد وبين الجيش الكبير العدد الذي يجمع أفراده من المجندين الذي يحشدون بالتجنيد العام ـ وقف صراحة في جانب الجيش المحترف، وقدم لإثبات صدق آرائه أمثلة كثيرة من حوادث التاريخ.

ويناقش دوبيك المشكلة العسكرية بأسلوب فني دقيق؛ فالحرب بعد كل شيء هي مسألة قتال ومعركة، والمحور الذي تقوم على أساسه هو القتال بين الوحدات العسكرية المتضادة؛ ولكن من المدهش أن كل الذين قدموا النظريات الخاصة بالحرب لم يعنوا قط بأن يقرروا ممَّا يتكون هذا المحور الذي هو بمثابة العمود الفقري لكيانها. وقد قنع هؤلاء بمناقشة الموضوعات النظرية العامة والتي اعتبروها الأصول العامة للحرب؛ ولكن من غير الممكن في الموضوعات العسكرية ـ ومثلها في هذا مثل غيرها من الموضوعات المهمة في ميادين العلم والفن ـ معرفة أي شيء ما لم تكن الحقائق الأساسية مفهومة تمامًا، وعندما حاول آردان دوبيك أن يجمع الحقائق الأساسية للمعركة اكتشف أن هذه الحقائق غير معروفة، وأننا بعد أن نبحث بعناية دراسات أعظم الثقات العسكريين لا يمكن أن نشك في أن الحرب شيء أكثر من «مباراة الشطرنج».

وقد عرف دوبيك أن واجبه الأساسي هو الوصول إلى هذه «الحقائق» عن المعركة؛ ولما كانت تجاربه الخاصة محدودة فإنه اتجه إلى وسيلة كان لها طرافتها في تلك الأيام، فقد أعد مجموعة من الأسئلة بعث بها في نشرة دورية إلى عدد من زملائه الضباط(*) يسألهم عن آرائهم وتجاربهم فيما جاء بهذه الأسئلة من

(*) نظام الأسئلة.



جنرال بوجو (١٧٨٤ ـ ١٨٤٩)

موضوعات عسكرية.

ولا شك أن هذا الأسلوب الطريف كان صدمة لزملاء دوبيك، وتأثرًا بالتقاليد التي كانت معروفة في الجيش الفرنسي، يوم ذاك شك الكثيرون منهم في أن عمل دوبيك مناورة مضللة، واعتبره أغلبهم مزاحمًا يحاول أن يشق طريقه على أساس إزاحة غيره.

والواقع أن إعداد الإجابات الصحيحة السليمة لأسئلة دوبيك كان يتطلب جهدًا كبيرًا، بل وربما أمكن اعتبار هذه الإجابات اختزالًا لعدة كتيبات، فضلًا عن أنها في الحقيقة كانت أعلى من مستوى دراية أركان الحرب الفرنسيين في ذلك الوقت، ولكنها من ناحية أخرى تعتبر وثيقة ذات طابع ممتاز لها قيمتها وخطرها حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه.

وكان المجمل العام لهذه الأسئلة كما يلي:

* كيف تأثر تنظيم أوضاع قواتك ونظام سيرها بسبب طبيعة الأرض، أو تبعًا لاقتراب خطر العدو، أو لكليهما؟

* وإذا كان هذا التنظيم قد تغير فهل كان من الممكن تنسيقه ثانية وإعادته إلى صورته الأولى بسير اقتراب جديد؟

* ماذا حدث عندما وصلت قواتك داخل مرامي مدفعية العدو وأسلحته الصغيرة؟

* متى ـ من ناحية الوقت ـ وعلى أية مسافة اتخذت القوات أوضاعًا جديدة بالغريزة أو بالأوامر لمواجهة نيران العدو والاشتباك معه بالنيران، أو للقيام بالاقتحام، أو للاثنين معًا؟

* كيف بدأ إطلاق النيران؟ وكيف استمرت؟ وكيف تَهَيَّأَ الجنودُ

أنفسهم بمطالب النيران؟ وكم عدد الطلقات التي أطلقوها؟ وكم كان عدد الجنود الذين انبطحوا أرضًا لإطلاق النيران؟

* كيف تم الاقتحام؟ وعلى أية مسافة أسرع العدو بالفرار من ميدان المعركة، أو على أية مسافة تحطم هجومك وتفتت بسبب نيران العدو، أو بسبب ثباته في مواقعه، أو بسبب تقديرك لإمكان قيام العدو ببعض التحركات المضادة؟

* ماذا كان سلوك ضباط وجنود قواتك؟ وماذا كان سلوك ضباط وجنود قوات العدو أثناء عملية الاقتحام وبعدها، وبخاصة بالنسبة للصياح، والصمت، والاضطراب؟

* هل كان الجنود يعملون طبقًا للأوامر التي تصدر لهم بالتقدم للأمام؟ أو هل بدا منهم في بعض اللحظات اتجاه لترك الصفوف بالتراجع للخلف؟

* لو افترضنا أن اضطرابًا قد حدث أثناء الاشتباك، وأن ضبط وربط الجنود قد انهار، ففي أية لحظة أفلت الزمام من يد قائد الكتيبة؟ ومتى أفلت من اليوزباشية، ومِنَ الملازمين؟ ومتى حدث ـ (لو كان هذا قد حدث حقًّا) ـ اضطراب في صفوف الضباط؟

* متى وأين ـ (بالنسبة للوقت وبالنسبة للمسافة من العدو في أي معركة) ـ توقف الجنود عن متابعة الاقتحام الناجح؟

* متى وأين استعاد الضباط السيطرة على جنودهم من جديد؟

والواقع أن دوبيك قد رأى أن التفاصيل التي سيستطيع الوصول إليها من أسئلته هذه ستلقي ضوءًا على العوامل المادية والمعنوية في «العمل العسكري» أي: في صناعة الجندية، وأنها ستمكننا من تفهم هذه الصناعة

تفهمًا أقرب ما يكون إلى الحقيقة، وستمكن من إعداد دراسات لتعليم الجنود أقوى وأصلح من المناقشات التي أعدها أشهر القادة العسكريين كوسيلة لدراسة الاستراتيچية العامة والتخطيط للحرب.

على أن أسئلة دوبيك لم تجئه بنتائج مثمرة مشجعة، وقد أدرك ما بها من نقص فحاول استكمالها بالوصول إلى حقائق المعركة من كتابات القدامى، ولكنه لم يتجه للتاريخ القديم بسبب تقديره وإكباره للتجارب العسكرية للإغريق أو على التخصيص للرومان، بل بسبب أن المؤلفين القدامى قد أكثروا من الحديث عن الحقائق العسكرية الأساسية بدرجة أكبر مما فعل المؤلفون المحدثون، لقد شغل البحث عن سرِّ اللجيون الروماني وتأثير مشاعر التقديس التي كانت له في نفوس الجنود، شغل المفكرين العسكريين منذ أيام مكياڤيلي.

وهنا ساءل دوبيك نفسه:

كيف أن الرومان ـ ولم يكونوا هم شعبًا تتوافر الشجاعة لأفراده ـ كانوا ينتصرون دائمًا وقد هزموا أكثر الأمم شجاعة وبقوات أقل عددًا من جيوش أعدائهم؟

ويجيب دوبيك على سؤاله مستندًا إلى الإجابة التي قدمها «بوليبيوس» من قبل وهي:

«لقد وضع الروماني في كفتي الميزان والمقارنة شجاعة الإغريق وبطولة الغال، وهنا فكر في دقة الواجب الذي يواجهه والمدى الذي يدعم فيه الضبط والربط العنيف لقوة الجموع، على أنه قد فكر أيضًا وقبل كل شيء كسياسي فلم يشغل بالآراء التي لا تتمشى مع الحقائق؛ بل وضع موضع

التقدير الضعف البشري، وعلى أساس هذا كله أوجد نظام وتشكيل ـ اللجيون».

على أن دراسة معارك القدامى وصلت بدوبيك إلى كشف حقيقتين قدر لهما أهمية أساسية:

* نجد وصف الأولى في الجملة التالية للماريشال ساكس: «إن القلب البشري هو نقطة الابتداء في كل المسائل المتعلقة بالحرب».

* والحقيقة الثانية هي أنه في كل المعارك القديمة توجد حدود فاصلة واضحة بين خسائر المنتصر وخسائر المنهزم، فخسائر المنهزم أكبر وأكثر بدرجة كبيرة؛ وفي بداية الصراع البشري تقاتل الأفراد، كان كل رجل يقاتل من أجل سلامته هو وحده؛ ولهذا فقد تقبلت العقول التي لا قدرة لها على البحث والنقد أن المعركة ليست أكثر من جملة حوادث من القتال الفردي، فعندما يصطدم جيشان يبدأ كل جندي القتال ضد الجندي المقابل له في جيش العدو، والجانب الذي يحتمل الخسائر الأكثر عددًا نتيجة لحوادث القتال الفردي هذه إنما يواجه أفضلية عددية تتوافر للخصم ولا قبل له بمواجهتها ويضطر لهذا إلى ترك الأرض التي يحتلها، وهكذا اعتبرت المعركة وكأنها لا تزيد على مبارزات مجسمة تتوقف على قدرة الأفراد، والجيش الذي يتكون من أمهر الرماة وأقوى المقاتلين بالسونكي هو الذي يكسب المعركة. ولكن كان الجندي من الغال أقدر كمقاتل وأفضل كجندي من الجندي الروماني، ولو كانت هذه النظرية صحيحة لوجب أن ينتصر أهل الغال على الرومان دائمًا، ولكن الذي حدث هو أن الرومان انتصروا على الغال، ولو كانت هذه النظرية صحيحة أيضًا لكان من الضروري أن يبقى الخلاف بين عدد الخسائر في الجانبين المتضادين غير واضح فضلًا عن

عدم إمكان تفسيره.

ولهذا فلابد أن تكون «واقعية القتال» شيئًا آخر تمامًا، فليست جملة عدد المقاتلين هي التي تقرر نتيجة المعركة، ولا شك أن «النجاح في معركة مسألة معنوية»، «وفي المعركة تتقاتل قوتان معنويتان وتشترك في القتال أكثر من قوتين ماديتين، وإذا كان الأقوى هو الذي يكسب المعركة فإنه هو (أي المنتصر) الذي يفقد من رجاله أكثر مما يفقد الذي ينهزم، وسينتصر الجانب الذي تتوافر له قوة العزيمة للتقدم للأمام باستمرار؛ الجانب الذي تتوافر له الأفضلية المعنوية سواء أكانت قواته متساوية من الناحية العددية لقوة الخصم أم كانت أقل منها؛ ذلك لأن التأثير المعنوي يبدد مشاعر الخوف في جنود الجانب الأقوى معنويًّا، في الوقت الذي يتحول الخوف بين جنود الجانب الآخر إلى ذعر واضطراب يسببان هزيمتهم، إن حركات المناورة طعنات موجهة، والجانب الذي يبدو أكثر تهديدًا وتوجيهًا للطعنات هو الذي يكسب المعركة».

على أننا نستطيع أن نقول أيضًا أن دوبيك كغيره من الكتاب العسكريين الذين سبقوه ـ مثل جيبير والبرنس دوليني ـ ينكر وجود «الصدمة»(*)،

(*) الصدمة Shock تعني في المراجع اللغوية، الضربة القوية ويجيء تأثيرها الكبير من المفاجأة التي تصحبها "مُعجم ويبستر ص ١٣٤٦"، وتعني في الإصطلاح العسكري، الضربة القوية الموجهة من حشد كبير من القوات تُعد لهذا الغرض وتعمل مُستندة لعامل "المفاجأة"، ومع أن أعمال الاستكشاف في الأرض والجو قد جعلت هذا المبدأ من مبادئ الحرب "المفاجأة" صعب المنال، فقد عرفنا في الحرب العالمية الثانية تشكيل وحدات خاصة في الجيش الألماني لتوجيه هذه الضربات القوية الخاطفة هي وحدات "جنود العصف"، كما ظهر لون جديد من أنواع التكتيك هو "Shock Tactics" أي الإجراءات الهجومية على أساس المفاجأة والتي يقوم بها حشد كبير من القوات. (المترجم).

وينكر أيضًا «الاندفاع الغريزي البدني»، وتبعًا لرأيه لا يمكن أن تتوافر القدرة على توجيه صدمات قوية مفاجئة بين وحدتين متضادتين من الخيالة أو المشاة، ولا تستطيع وحدة من الخيالة أن تمزق خط المشاة بتأثير الضربات المفاجئة فقط؛ ولهذا فإن المعركة لا يمكن أن تقارن «بالمبارزة» والتي يجب أن ينتصر فيها الجانب الأقوى من الناحية البدنية والأحسن إعدادًا من الناحية المادية؛ وليس التدمير البدني الذي تسببه الأسلحة هو الذي يمكِّن من الوصول إلى النتيجة الحاسمة، وليس الجانب الذي يفقد العدد الأكبر من الخسائر في المعركة هو الجانب الذي يجب أن ينهزم، فالحقيقة أن الهزيمة تصيب الجانب الذي تنهار معنوياته؛ ولهذا فإن قوة الأسلحة أو أثرها في القتال إنما يقاس بمدى تأثيرها في معنويات العدو، والمعركة أصلًا صراع بين قوتين معنويتين وليست «إلى حد ما» صراعًا بين قوتين بدنيتين.

إن عملية الاقتحام لا تنجح بسبب أن القوة المادية التي له قد تجاوزت الحد الذي يمكن للعدو احتماله، بل ينجح الاقتحام ويحقق أهدافه ضد عدوّ يتراجع أو يتفتت تبعًا لصلابة الجانب الآخر وتماسكه، وتتقرر نتيجة المعركة قبل أن يصل الجانبان المتضادان إلى التماسك فيما نسميه: القتال يدًا بيد، ويوضح هذا سبب انتصار جيوش غير جيدة التسليح على جيوش أقوى تسليحًا وأفضل عتادًا، كما يوضح هذا أيضًا سبب كثرة ما نلقاه من أنباء استسلام حاميات التحصينات القوية واستسلام الجنود الذي يقومون بأعمال الدفاع في الخنادق.

والواقع أنك «عندما تضع الثقة في أفضلية العوامل المادية فإن هذه الثقة لا تلبث أن تضعف منها عمليات العدو، فإذا ما أطبق العدو عليك بالرغم من الأفضلية التي تتوافر لك فإن معنوياته تزداد تبعًا لتناقص الثقة التي

كانت لك من قبل في أفضلية عواملك المادية، ثم تسود معنوياته معنوياتك، وبذلك فإنك لا تلبث أن تولي الأدبار منهزمًا»، ولا يحدث «التناطح»(*) إطلاقًا بسبب أن أحد الجانبين المتضادين يتجنب القتال عازفًا عنه، مخادعًا للعدو، هذا إذا لم يستسلم أو يفر؛ ولهذا فلا يحدث أي قتال متساو متماثل بين جانبين متضادين يوجه كل منهما ضرباته بأقوى جهد يستطيعه؛ «فالاصطدام كلمة ليس غير، وقد يعني بها العاصفة التي تثيرها الخيالة عندما تتقابل في قتال عنيف، ولكن هذا حديث شعري لا حقيقة له». "C'est la poésie, Jamais la realité".

«ولا تتقابل إطلاقًا في المعركة عزيمتان متساويتان، فلا يكون الاصطدام متعادلًا قط، والعدو لا يبقى ثابتًا في موقعه؛ لأنه لو بقي فيه استطعت أنت النجاة والإفلات منه، فإذا ما اضطرب القتال حدثت عملية استئصال متبادلة، وعمل كل من الطرفين لإفناء الآخر، ولكن مع هذا لا يكون هناك من يعتبر منتصرًا، إن الإنسان يفضل بالغريزة القتال مع وجود مسافة تفصله عن عدوه لا القتال القريب المتلاحم»؛ وهذا هو التفسير للخلاف والتباين في عدد الخسائر بين الجانبين المتضادين، فليست الخسائر نتيجة اصطدام خطي المعركة للخصمين المتضادين؛ بل تحدث عندما يقوم أحد الجيشين بالهجوم وتختل أوضاع الجيش الآخر، ثم تكون المذبحة ويتكبد العدو الخسائر الكثيرة لا أثناء الاصدام بل أثناء المطاردة.

وقد بدأ التفكير العسكري المنتج من نقطة لم تكن هي «الفضيلة العسكرية» فضلًا عن أن تكون «البطولة»؛ بل الواقع أنها كانت «الخوف».

(*) في الأصل (Abordage or head-on clash) وكلمة Abordage تعني "التصاق سفينة بأخرى بقصد الاستيلاء عليها" (المترجم)

والواقع أن الروماني المخادع المعدوم الإيمان هو الذي «وضع موضع التقدير الضعف البشري ثم اخترع تشكيل اللجيون»؛ ولا يمكن أن نغير من قلوب الرجال، ولكن قد يُمكِّن الضبط والربط الجندي من أن يتغلب على مخاوفه لفترة قليلة، وقد تكون هذه الفترة القليلة هي الوقت اللازم لينتصر. لقد أثار القادة الرومانيون معنويات جنودهم لا بالتشجيع بل بثورات الغضب، «لقد جعل القائد الروماني حياة جنوده تعسة بسبب العمل المرهق الذي يقومون به وبسبب افتقارهم إلى الضروريات، ثم مدَّ من قوة وتأثير الضبط والربط إلى الحد الذي عنده يجب ـ في اللحظة الحرجة ـ أن تتفتت هذه القوة أو أن تمكن من القضاء على العدو»، و«هناك مدى لا يستطيع الإنسان بعده أن يحتمل القتال في الخطوط الأمامية دون أن يشتبك تمامًا بعدوه». وقد وافق دوبيك على الحديث التصويري الذي قدمه الجنرال بورباكي(*) من أن: الهجوم ـ أساسيًّا وفي أعماق حقيقته ـ لا شيء غير «الفكاك والتخلص بواسطة التقدم».

وكانت هذه هي أهم الدروس التي يمكن الحصول عليها من دراسة المعارك القديمة، وتبعًا للمادة والتجارب المعاصرة التي جمعها دوبيك لم تكن

(*) بورباكي Bourbaki بول أوجيني شارل، قائد فرنسي من أصل يوناني ولد في بو سنة ١٨١٢، اشتهر في حرب القرم وهو يتولى قيادة لواء سنة ١٨٥٤، كما اشتهر في الحرب الإيطالية ضد النمساويين سنة ١٨٥٩، وفي حرب سنة ١٨٧٠ كان قائد الحرس الأمامي في جيش الرين، وعندما حصر بازيني في "متز" أرسل بورباكي في مهمة سرية، ثم تولى قيادة جيش الشرق في العمليات ضد بلفورت حتى اضطر أخيراً إلى قبول الهدنة، وفي سنة ١٨٧٣ تولى قيادة الفيلق الرابع عشر مع قيامه بأعمال الحاكم العسكري لمنطقة ليون ومات في بايون سنة ١٨٩٧ – مُعجمع لاروس القرن العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ المُجلد الأول. (المترجم).

هذه الدروس موضع التضاد من صورة الحرب الحديثة، ولكن كانت هناك ـ كما أشار دوبيك ـ أساطير وخرافات كثيرة تروى عن عمليات اقتحام ناجحة وعن أعمال الشجاعة العسكرية مما أبقى كل فرد مغمض العينين، «من القادة إلى المواطنين البرجوازيين، وكانت هذه الأساطير هي السبب الدائم لتتكرر هذه العمليات ثانية في ذات الصورة من الاضطراب والفوضى».

إن قنطرة أركول Arcole الشهيرة لم يتم الاستيلاء عليها بهجوم أمامي بالمواجهة، ولم يكسب الفرنسيون معركة سولفيرينو كذلك بهذه الصورة بل ـ على ما يقول مولتكه ـ باستخدامهم الحراب «السونكيات» بعزيمة وقوة» فجددوا بذلك عصر القتال بالحراب.

ولقد تذكر النمساويون ـ على التخصيص ـ أسلوبهم القديم الطابع لتكتيكات الاصطدام، ووضعوا كل إصلاحات جيشهم على أساس الفكرة التكتيكية الحاسمة للاقتحام بالسونكيات، ولكنهم غفلوا تمامًا عن حقيقة أن الفرنسيين لم يستخدموا حرابهم إلا عندما انهارت الخطوط النمساوية، وكان مولتكه مراقبًا جيد التقدير دقيق الملاحظة، وقد وصل إلى الحقائق الصحيحة واستطاع أن يستنبط من هذه المعركة درسًا هو: أنه يجب أن تصل دقة نيران البروسيين إلى غاية ما يمكن من اطراد التحسين، وكانت معركة «سادوڤا» لسنة ١٨٦٦ نتيجة للدراسة الصحيحة التي وصل إليها هو والنمساويون من بحث معركة «سولفرينو».

ولم يكن في الاستطاعة أن تعاد أو أن تتكرر من جديد تكتيكات الاصطدام ـ والتي لم تتوافر لها عادة هذه الكفاية التي تعزى إليها ـ بدرجة أكبر تأثيرًا في ضوء الظروف الحديثة، «ومن الغريب ـ وإن كان هذا الغريب

حقيقة ـ أننا كلما اقتربنا من العدو كلما كنا أقل تجمعًا، ولم يعد من مكان لنظرية الضغط بواسطة الصفوف الخلفية، فإنه إذا أُوقف الصف الأمامي توقفت الصفوف الخلفية بدلًا من تتابع الاندفاع للأمام، واليوم أكثر من أي وقت آخر يبدأ الفرار في الصفوف الخلفية والتي تواجه ذات المؤثرات التي تواجه الصفوف الأمامية، وهذا يوضح خطأ نظرية الدافع البدني؛ أي: عامل الحث الجسماني في داخل الفرد نفسه»؛ بأن الواجب الأساسي لجندي العصر الحديث هو أن يتخلص من مثل هذه المشاعر القديمة وأن يعمل هادفًا إلى تطور التكتيكات التي تمكن الأفراد من القتال إلى غاية ما لهم من جهد، وبالطبيعة يجب أن تتغير الأساليب التكتيكية من وقت إلى آخر، وكما أشار نابليون محقًّا فإن الجيش لا يكون في حال طيبة إلا إذا كان يغير نظم تكتيكاته التي يستخدمها في القتال كل عشر سنوات، «وإن كان الضبط والربط والثقة هما وحدهما الأسس الثابتة التي لا تتغير»، وكانت هذه المستلزمات التي لهما والتي هي أقل تعرضًا للتغير المستمر هي أهم ما عنى دوبيك بدراسته.

ويتوقف «الضبط والربط» كما تتوقف «الثقة» جزئيًّا على التنظيم العسكري وعلى صفات القادة أنفسهم، كما يتوقفان إلى حد ما على ما يمكن أن نطلق عليه «علم الاجتماع العسكري»، ومن الضروري أن يدرب الضباط بقدر كاف ليستطيعوا أن يقدروا من البداية ما يمكن أن يقوم به العدو، ولكن الأكثر أهمية من هذا عامل التصميم أو العزيمة، وهكذا تتكون المعادلة التي تقول: «إن العزيمة والعزيمة ودائمًا العزيمة ثم العزيمة، هي أكبر من مربع سرعة السير في أي مكان من العالم»؛ ولكن لا يكفي أن تتوافر هذه العزيمة لكبار الضباط وحدهم، فمن الضروري أن تتوافر لكل

درجات السلم العسكري وبخاصة لأولئك الضباط الذين يقودون جنودهم فعلًا في المعركة.

لقد عارض دوبيك بقوة «هذا الاتجاه للضغط على القادة التابعين، وعارض في أن تفرض عليهم فرضًا وجهات نظر الرؤساء، وألا تغفر لهم الأخطاء التي تجيء عن غير قصد أو إهمال، وعارض في أن يشعر كل الأفراد على مختلف درجات السلم العسكري حتى نصل إلى الجنود العاديين بأن هناك سلطة واحدة ذات منعة، سلطة واحدة معصومة من الخطأ محصنة ضد النقد؛ إن الضابط الكولونيل مثلًا عندما ينظر لنفسه وحده وكأنه هو السلطة الوحيدة التي يتوافر لها الذكاء ودقة الحكم، وعندما يغتصب من الضباط التابعين القدرة على الابتكار إنما يهبط بمستواهم إلى مستوى منخفض من «القصور الذاتي» ينتج عنه فقدانهم الثقة بأنفسهم، وخوفهم من أن يوَبَّخوا بعنف وقسوة».

ولنفترض «أن هذه اليد القوية التي توجه كل هذه الأشياء قد غابت للحظة ما، ترى ماذا يحدث؟ إن كل الضباط التابعين ـ الذين بقوا في تلك اللحظة توجههم تلك اليد القوية والتي وصلت بهم إلى وضع ليس طبيعيًّا بالنسبة لهم: وضع تخلفها عن توجيههم ـ سيعملون ولا شك عمل الجواد الذي بقي طويلًا يحكمه عنان قوي ثم ترك له الزمام فجأة، إن هؤلاء الضباط التابعين لن يستطيعوا في هذه اللحظة التي جاءت فجأة أن يستعيدوا الثقة في أنفسهم، هذه الثقة التي أخذت منهم قسرًا ودون أية رغبة».

وأخيرًا فإنه بالإضافة إلى الضباط الذين تتوافر فيهم العزيمة، يجب أن يتوافر أيضًا في كل سرية الجنود وعلى الأخص ضباط الصف الذين تتوافر

فيهم قوة العزيمة؛ ذلك لأن ضباط الصف والذين هم الهيكل المعنوي للوحدة يكونون في اللحظات الحرجة كمراكز الالتجاء، فيتجمع حولهم كل الجنود، ويستطيعون إذ ذاك أن يمدوا الضعاف الذين يفقدون معنوياتهم بقوى معنوية جديدة.

ويجب أن تتجمع معًا كل هذه الصور المختلفة للعزيمة، وهذا التجمع وحده الذي «يوجِد المقاتلين» أي يوجِد الأفراد الذين تتوافر فيهم روح الاقتتال؛ والعامل الأساسي الذي «يربط كل الأفراد على مختلف درجات السلم العسكري من القاع إلى القمة؛ يربط بين الضباط القادة؛ بين القادة وبين الجنود، بل وبين الجنود أنفسهم، والذي لا يسمح لأي من هؤلاء أو هؤلاء بالفكاك والتخلص من القتال هذا العامل الأصيل هو الضبط والربط العنيف القوي».

«لقد كان الضبط والربط أكثر عنفًا وصلابة عند الرومان سيما عند مواجهة العدو، وكان الجنود هم الذين يفرضونه فرضًا على أنفسهم، فلماذا لا يسهر جنودنا اليوم على توافر الضبط والربط بينهم على ذات الصورة؟ ولماذا لا يعاقبون أنفسهم عند الخطأ؟» إن هذه الوسيلة «هي وحدها التي تمكن من الاحتفاظ بالضبط والربط عندما تشتد الحاجة إليه في اللحظات الحرجة وتتضح من الاتجاهات المختلفة أنه سيتفتت وينهار».

ولقد وضع الرومان الضبط والربط ـ كما أشير من قبل ـ على أساس الغضب والخوف والعقاب، «ولكن هذا الضبط والربط الدراكوني(*) لا

(*) "Draconian" نسبة إلى "دراكون" المُشرع الأثيني الذي عاش في أواخر القرن السابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام وقد أصدر تشريعات كانت قاسية إلى حد بعيد حتى قيل في وصفها إنها خطت بقطرات الدم.

يتمشى في تنسيق تام مع عاداتنا»؛ **ولهذا فما هي إذن عناصر أو أسس الضبط والربط في الجيش الحديث؟**

ويجيب دوبيك على هذا السؤال التوضيحي، بأنه يجب أن تتوافر في الضباط أولًا الثقة بأنفسهم، ثم أن يدربوا للانصياع تمامًا للقواعد الأساسية «التي استصوبها فيما بعد» ـ ألا وهي:

* التحقق من كل شيء: أي دقة وحسن الملاحظة.
* إقامة الحجة والبرهان: باستخدام الجهد وحسن الوصف.
* التنظيم: أي حسن التوزع.

وعلى أن يضع الضباط نصب أعينهم أن التماسك معناه الضبط والربط؛ وهكذا يستبدل دوبيك كلمة «الغضب» عند الرومان بكلمة «التماسك»؛ ويرجع هذا إلى حقيقة أنه في العصور القديمة كان التراجع عن القتال عملية محفوفة بالمخاطر بالنسبة للجندي، على حين أن الميل إلى هذا التراجع أقوى اليوم عند الجندي الحديث، ثم إن عملية التراجع أيسر وقوعًا اليوم وأقل خطرًا؛ ولهذا فإن القتال الحديث يتطلب المزيد من التماسك المعنوي كما يتطلب رابطة أقوى مما كان يتطلب فيما مضى.

ومن سوء الجد أن عددًا قليلًا من الضباط هم وحدهم الذين يعتبرون جنودًا ممتازين تتوافر فيهم القدرة على الابتكار والاستحداث في أساليب القتال في المعركة والتي تختلف تبعًا لاختلاف العدو، وتتكيف تبعًا لكل حالة فردية، «وهكذا جاءت الحاجة إلى التكتيكات المتحددة المعدة من قبل، والتي تصلح لتوجيه الضابط العادي، ومثلها مثل التكتيكات الواضحة التحديد والتي وضعت لمعاونة قائد اللجيون الروماني، لا يستطيع الضابط

أن يغفلها دون أن يجازف بالفشل في قيامه بواجبه، ولكن هذه «التكتيكات» وإن كانت بلا شك لن تجعل منه قائدًا ممتازًا لا قرين له إلا أنها تحميه من الفشل في القيام بواجبه بالحيلولة بينه وبين الخطأ، اللهم إلا إذا كان هو أصلًا لا يصلح لعمله ولا تتوافر له المقدرة على هذا العمل».

ويتوقف النجاح في الحرب الحديثة على إقدام الجندي وجرأته وعلى معنويات أفراد الوحدات المقاتلة الصغيرة، ويتوقف الأمران بدورهما على التأثير المعنوي المتبادل بين الأفراد «الذين يعرفون بعضهم البعض».

على أن دوبيك ـ بلا شك ـ لم يقل بتعادل الشجاعة والقوة الجسمانية ومساواة كل منهما للأخرى، وعنده أن الإقدام ـ أساسًا ـ مستوى معنوي، وأنه يشبه إلى حد كبير «الإصرار» أو «العزيمة» في كونه صورة من الصور المعنوية، والأكثر من هذا، فهو يرى أن «العزيمة» أو «الرغبة الجماعية» للوحدة ـ لا صفات وخواص الجندي الفرد وحده ـ هي التي لها الأثر الحاسم.

ومن الضروري: أن يقوم الجنود؛ كما تقوم الوحدات المقاتلة بتدريب طويل، يعنى بوضع برامجه ورسم أهدافه، وعلى ألا يكون هذا بقصد الوصول إلى المهارة في استخدام الأسلحة وتوافر المعرفة بصناعة القتال وحسب، بل أن يستهدف ـ هذا التدريب ـ أول ما يستهدف «توافر الارتباط التعاوني القوي بين الأفراد، وهذا الارتباط هو الذي يوجِد بينهم الشعور المتبادل بالفخر(*)؛ كما يتوافر نوع من التماسك والاتحاد والزمالة والألفة

(*) الشعور المتبادل بالفخر، فخر الأفراد بأنفسهم وزملائهم هو الأساس للفخر بالوحدة وهو العامل الأول في توافر روح "حب الوحدة" بين الأفراد، الروح التي تجعل الجندي يخشى الخطأ ويُصر على اكتساب النصر لهدف أساسي هو الإبقاء على سمعة ومكانة=

والصداقة بين كل أفراد الوحدة إلى الحد الذي تغيب معه مشاعر الانفرادية والانعزالية، وتوجد بدلها في كل جندي عاطفة جماعية وتعصبًا دينيًّا وفخرًا قوميًّا وتطلعًا إلى المجد، وتعلقًا بالتملك والكسب للبلاد؛ فإذا ما توافرت روح حب الوحدة بين الأفراد أمكن أن يتوافر بينهم الشعور القوي المليء بالثقة القائمة على المودة والألفة، «والتي لا يمكن أن تضيع في خضم المعركة، وهي وحدها التي تصنع المقاتلين ذوي العزم؛ فإذا ما توافر لنا هذا كان لنا جيش، وليس من الصعب أن نوضح كيف أن الجنود الأقوياء في مواجهة الموت ـ والذين يندفعون بجرأة وعاطفة قوية؛ والذين يواجهون الموت بقوة وشجاعة دون أن تصفر وجوههم أو تهتز جفونهم ـ يمكن ـ إذا لم يتوافر لهم التنظيم والضبط والربط الجيدان ـ أن يهزمهم جنود أقل منهم جرأة إذا ما ارتبطوا معًا متماسكين في وحدة مقاتلة، وحدة جيدة التنظيم موفورة الضبط والربط».

«لقد حان الوقت لنتفهم نقص القوة في جيوش الغوغاء».

ولم يحاول دوبيك أن يوضح أهمية صفوف «طوابير» التعليم والتدريب وأهمية التعليم العسكري، كما لم يوضح أهمية الحاجة إلى جيش كامل من الناحية السيكلوجية، بل أشار إلى أن الجيش صورة صناعية في المجتمع، فهو «مجموعة متعاونة مشتركة معًا من الرجال»؛ ولهذا فالحاجة ماسة إلى وسائل غير عادية للاحتفاظ لهذا المجتمع بتماسكه «فإنها يمكن أن توجد الثقة والمسئولية المشتركة على عجل، ودون توافر الوسائل الصحيحة التي تعاون على إيجادهما».

=وحدته العسكرية المقاتلة (المترجم).

صحيح أنه لا يمكن إعداد الجيش بسرعة ودون تأهب سابق لهذا الإعداد، فإذا ما اضطرت أمة ما بضغط الحاجة لأن تبعث إلى المعركة بقوات أعدت على عجل كانت النتيجة: أن يخوض هؤلاء الجنود غمار معارك عنيفة مليئة بالبطولة ولكن من النادر أن يصلوا إلى القصد أو كسب الحرب، إن حروب الثورة الفرنسية ـ مثلها مثل تجارب غمبتا التي لم يعش دوبيك ليشهدها ـ تثبت هذا الرأي وتؤكد من حقيقته.

ويعني دوبيك بإيضاح وإثبات أن الصور العسكرية التقليدية للمجتمع وللقيادة ليست بحال ما الوسيلة الوحيدة لإيجاد الروح العسكرية الحقة، لقد عارض بقوة إنفاق هذه الملايين التي تضيع كل سنة على «الكسى العسكرية» و «الأعلام» و «الأنواط» وريش القبعات وغير هذا من صور الزخرف والبهرجة».

وهاجم دوبيك بعنف وقبل الحرب العالمية الأولى بخمس وأربعين سنة، هاجم ارتداء الجنود الفرنسيين للسراويل الحمراء الملونة، وبالرغم من أن التحذير الذي صحب هذا الاعتراض كان واضحًا، ومن السهل تفهم دوافعه وأسبابه فقد أغفلته حكومة فرنسا إغفالًا تامًّا.

ولم يغفل دوبيك كذلك عن إيضاح ما يجب توقعه من ضعف التنظيم العسكري الذي يقوم على أساس الروح الحربية وحدها مهما كانت هذه الروح طيبة جيدة؛ ويقول دوبيك: «عندما يناقش الرجال بعد تناولهم العشاء موضوع الحركة أو يتحدثون عن المعركة، فإنهم يتحدثون عن هذا ـ وهم في أمن تام وفي غاية اكتمالهم الجسماني والمعنوي ـ حديثًا نبيل الأسلوب ولكن لا حقيقة فيه، فالكثيرون منهم يكونون في تلك اللحظة حقًّا على أتم أهبة للمخاطرة بحياتهم، ولكن، كم منهم يكونون على أتم أهبة للمخاطرة

فضلًا عن أن يكونوا صالحين للقتال عندما يضطرون للسير لأيام وأسابيع حتى يصلوا جبهة القتال؛ ثم يضطرون في يوم المعركة إلى انتظار الساعات لخوض غمار القتال؟، لو كانوا أمناء حقًّا لقرروا أن الإجهاد البدني والقلق العقلي اللذين يسبقان القتال سيخفضان معنوياتهم، وأنهم سيكونون أقل رغبة في القتال مما كانوا قبل شهر واحد عندما قاموا من مائدة الطعام في حال طيبة»، إنهم يستطيعون التغلب على هذا الحرج المعنوي لو توافر لهم الإيمان بعدالة قضيتهم.

ولم يفشل دوبيك في أن يشير إلى مثل طيب هو جيوش كرومويل، ومع هذا فإن التغلب على مثل هذا الحرج ليس ممكنًا أو مستطاعًا بالإيمان أو بالمبدأ فقط مهما كان قويًّا، بل إنه يتطلب الاكتمال الصحيح للجيش، هذا الاكتمال الذي لا يتم إلا ثمرة للعمل المجهد الطويل المستمر.

وفي تأكيد دوبيك لأهمية «النوع» لا «الكم»، وتقديره للخاصيات لا العدد، كان قد سبق الجنرال ڤون سيخت والجنرال ديجول إلى هذا الرأي، ولقد سبق غيره إلى تقدير الانصراف عن فكرة الجيش الكبير العدد، فكرة العدد المحتشد التي أوجدها نابليون بونابرت، وظن بأنه من الممكن «في هذه الأيام التي توافرت فيها أسلحة التدمير الدقيقة البعيدة المدى ستستطيع قوة صغيرة (تسعد بتوافر التماسك التام بين أفرادها مع توافر الاكتمال المعنوي لها) أن تكسب نصرًا مليئًا بالبطولة على قوة أكبر منها عددًا ومسلحة بذات الأسلحة التي تحملها»؛ ومن أجل هذا عارض دوبيك الإصلاحات التي اقترحها الماريشال نييل والتي هدف بها إلى استدعاء وتدريب عدد كبير من الاحتياطي، وبذلك يمكن نشر روح الديمقراطية في الجيش الفرنسي المحترف الأرستقراطي الاتجاهات، وقد حاجج دوبيك من البداية في أن

«المجتمع الديمقراطي يقف موقف القضاء والتنازع من الروح العسكرية».

وكتب دوبيك: «أي نفع من جيش تعداده مائتا ألف جندي إذا كان نصف هؤلاء هم الذين يقاتلون حقًّا على حين يتفرق ويختفي المائة الألف الآخرون بمائة طريقة مختلفة للفكاك، إن المسألة تدل على أن دوبيك قد أحس بأن جنود الاحتياط ـ من ناحية المبدأ ـ ينفرون من القتال بينا يميل الجنود المحترفون إلى ميدان القتال ويتشوقون إلى المعركة.

والحقيقة التي لا شك فيها: أن الجيش الفرنسي الذي سبق سنة ١٨٧٠ كان يحتاج الكثير من صور الإصلاح عدا هذه الزيادة العددية التي كان نييل يتحدث عنها ملحًّا، فقبل خمس وعشرين سنة أعلن الجنرال بوچو(*)إلى الملك لويس فيليب: أن الكثيرين من الضباط غير ذوي الكفاية قد وصلوا إلى أعلى رتب الجيش، وأن هذا الموقف المؤسف لم ينته تمامًا، وفي نفس الوقت كان ضباط الصف ـ والذين هم القوة الحقيقية للجيش ـ في حاجة إلى المزيد من التعليم، على حين أن الضباط أنفسهم كانوا بدورهم في حاجة إلى زيادة معنوياتهم العسكرية، بل ـ وعلى ما يقول الجنرال تروشو ـ تسودهم «روح رأسمالية»(**) تجعلهم أشحاء بأرواحهم يخشون فقد

(*) بوچو ... توماس روبرت بوچو، ولد في ليموج سنة ١٧٨٤ ومات بالكوليرا في باريس سنة ١٨٤٩، عمل مع الإمبراطور نابليون ومع حكومة البوربون من بعده، وكان واضح النشاط بعد سنة ١٨٣٠ تولى مركز الحاكم العام للجزائر سنة ١٨٤٠ وعمل لمد سلطان فرنسا في الصحراء بتمهيد الطرق وإرسال القوات إلى القرى الداخلية، عين قائداً لجيش الألب سنة ١٨٤٨، وله كتابان في الفن العسكري هما:

La Guerre d’Afrique (٣١٨٩) و Reflections et Souvenirs militares (١٨٤٥).

معجم لاروس القرن العشرين طبعة ١٩٢٨ جزء ١ ص ٩٠٤ (المترجم).

(**) الاصطلاح الأصلي هو ”Esprit capitaliste“ ويعني شعور الضباط نحو البذل=

مراكزهم السامية التي يشغلونها.

ومع هذا فإن الخاتمة التي انتهى إليها دوبيك يمكن أن تعتبر صحيحة، فليس من الضروري بحال ما أن يكون لدينا مجتمع أرستقراطي لكي نوجد ونثير الروح العسكرية الصحيحة، ومع عدم التنكر للعلاقة القوية التي بين الأمرين «المجتمع الأرستقراطي والروح العسكرية» فإننا لا نستطيع أن ننكر أن المجتمعات الديمقراطية تستطيع أن تخوض الحرب بنجاح، كما لا نستطيع أن ننكر بأن من الحق ـ على ما يؤكد دوبيك نفسه ـ أن النبلاء العسكريين يحبون خوض غمار الحرب، فضلًا عن توافر الكثير من الأمثلة التي توضح أن المقاتلين من الطبقات الصغيرة أو المنبوذة كانوا يدفعون إلى الحرب على غير رغبة منهم في خوضها، ويدفعون إليها بواسطة الجموع الديمقراطية المشاغبة المحبة للحرب.

وقد أثبتت الروح التقليدية أنها ـ في ضوء الأحوال الحديثة ـ عائق يعطل من تطور القوة العسكرية؛ وقد أوصى دوبيك: بأن توفر للضباط حياة أرستقراطية، أي توافر المال والراحة مع القليل من العمل، ويقول دوبيك: «ولا نجد في وصف الحياة الأرستقراطية ما هو أبسط من القول بأنها حياة الراحة والمتعة»؛ ولسنا في حاجة إلى الحديث الطويل لنثبت بأن الضباط الذين يعنون براحتهم ومتعتهم في هذا العصر الذي نعيش فيه لا يكونون ضباطًا جيدين، فالتاريخ يشير إلى أن هذا كان صحيحًا أيضًا في الماضي، وكان الضباط الناجحون دائمًا هم في الغالب من الضباط العاملين المجدين

=والتضحية شعور الرأسمالي الذي يعمل للاستزادة من الكسب، ويقصد تروشو أن الضباط في الجيش الفرنسي لم يكونوا مُسرفين في البذل من أجل الجيش والدولة. (المترجم).

الذين لا يعنون براحتهم حتى ولو توافر لهم مستوى مرتفع من العيش.

ويجب أن نعتبر أيضًا بأنه من المشكوك فيه أن يستطيع الضباط الذين ينفصلون عن جنودهم بمدى واسع من الطبقات الاجتماعية قيادة جنودهم بنجاح في المعركة، بل على النقيض فإن الضباط الناجحين هم الذين لا ينعزلون عن جنودهم، وهذه حقيقة تؤكد منها صورة ألمانيا الحديثة ذات الطابع العسكري؛ ومن الواضح أن آردان دوبيك مازال يفكر في صورة الجيش الذي يجند أساسيًّا من الفلاحين ومن الجماعات غير المتكيفة مع المجتمع أو الموضوعة وضعًا غير صحيح فيه؛ ولكن دوبيك قد فشل تمامًا في إدراك أن الطبقات المثقفة والطبقات الصناعية تستطيع أيضًا أن تسهم بقدر كبير من النشاط العسكري، ولم يحاول دوبيك كذلك أن يصل إلى تعرف الوسيلة الصحيحة للتأثير في عقول الجنود.

والواقع أن قيمة الجيش تتوقف إلى حد بعيد على قيم الضباط وضباط الصف، كما أن ضباط الصف ليسوا أقل أهمية من الضباط ويحتاجون هم أيضًا إلى الكثير من الرعاية والعناية مثلهم في هذا مثل الضباط، على أنه من الممكن القول بأن أتباع نظرية اردان دوبيك، أو أن محاولة خلق روح عسكرية بتكوين طبقة عسكرية من النبلاء توَّاقة للاعتداء، لا يمكن ـ في ضوء الأحوال الحديثة ـ أن تحقق شيئًا من النجاح بل إن مصيرها هو الفشل.

إن الحروب التي حدثت في الحِقَب من السنين السابقة لتوضح: أنه عندما تكون القيادة العسكرية مقصورة على طبقات خاصة معينة، أو عندما يوجه الأفراد الذين تتوافر لهم موهبة القيادة بعيدًا عن الحياة العسكرية إلى صناعات أخرى، تكون نتيجة هذا انحطاط وانهيار الروح العسكرية، ولم

تعد الطبقات العسكرية المحدودة، والقاصرة على ألوان خاصة من الناس بقادرة على أن تحتضن الروح العسكرية الحقة؛ فأفراد هذه الطبقات على أحسن الصور ممن يختصون بأمور الحرب وإن كان هذا لا يعني أن عقليتهم عسكرية، ثم أنهم يعنون في الغالب بمصالحهم المكتسبة، كما وضح المرة بعد الأخرى في مجتمع هذه «العصبة» العسكرية التي عاشت في وطن اردان دوبيك.

والواقع أنه في ضوء هذا التطور الحديث يجب أن تكون المواهب على أساس الترقية، وأن تكون هي وحدها السبيل إلى الشرف والمجد؛ بل وربما السبيل إلى الثروة أيضًا؛ والتنظيم العسكري الذي يقوم على أساس الموهبة وحدها لهو الوسيلة الوحيدة إلى النصر، لقد كان من الممكن تجنب الخسائر الكثيرة التي أصابت الجيش الفرنسي سنة ١٩١٤ لو كانت هيئة أركان الحرب الفرنسية قد اتبعت الصالح من نصائح آردان دوبيك، وأغفلت ما لا تراه حكيمًا منها، ولقد بدت الكراهية لاستخدام جنود الاحتياطي من حقيقة واحدة هي: أن چوفر قذف ضد الألمان في سنة ١٩١٤ نصف القوات التي توافرت له، مما اضطره إلى أن يترك مبكرًا و «قبل الأوان» بعض المواقع الهامة التي ظن بأنه من غير الممكن الدفاع عنها لأنها كانت محتلة بقوات الاحتياطي الفرنسي مع أن هذه القوات كانت إلى حد ما يمكن أن تستخدم ولو في أعمال التعطيل.

ويجب أن يقوم الجيش الحديث على أساس التخطيط المنطقي الذي يتقبله العقل، ولا تستطيع أمة ما أن توجد ـ على أساس السياسة أو العسكرية ـ ما يعوضها عن إغفال استخدام أقصى ما يمكن أن يتوافر لها من جنود الاحتياطي المدربين أكمل تدريب بالإضافة إلى جيشها العامل تبعًا

لاحتياجات ومطالب أمنها وسلامتها، أو أن تهمل إمكان تعبئة قواتها الاحتياطية وتوزيعها في وحدات مقاتلة عالية مستوى الكفاية والمرانة.

إن أفراد المدرسة الفرنسية التي تدعو إلى: «الهجوم بأقصى مدى من العزيمة» قد أخذوا هذا الإلهام والوحي عن اردان دوبيك، وعلى الأخص مما جاء في قوله الجامع ومثله السائر: «أن من يكسب هو الذي يهاجم دائمًا» على أساس أنه يقصد: «الهجوم في كل مكان وفي كل وقت، ومهما كانت الوسائل فإن الهجوم يجب أن يؤدي إلى النصر».

وقد لا يكون من الضروري: أن نوضح كيف أن هذا الشرح الضيق «لعقيدة» آردان دوبيك يفكر فيه؟

في الواقع هو: «أفضلية وميزة المناورة سواء في الهجوم أم في الدفاع»، وبدلًا من الطريقة الجامدة التي كان الكولونيل جراندميسون يدعو إليها، دعا دوبيك إلى المرونة في الاستخدام العسكري للقوات المقاتلة، بل وإلى جانب هذا، كان من الضروري عدم إغفال عزيمة العدو، إذ أنه لا يمكن القضاء على هذه العزيمة إلا بالقيام بالأعمال التي يضعها العدو موضع التقدير.

ومما لا شك فيه: أن الآراء الأساسية لدوبيك معقولة ومنطقية ويجب ألا تهمل؛ إن القلب البشري هو في الواقع أساس ودعامة الحرب، وهذا القلب يسيطر عليه الخوف في ضوء الإجهاد الذي تسببه المعركة وتوجده مواجهة الخطر؛ ولكن من الصحيح أيضًا: أن «النوع» يسبق «الكم» في الحرب، «فالخاصيات والصفات» أهم وأكبر قيمة من «العدد»، وأخيرًا فإنه من الصحيح كذلك أن أسلحة اليوم القوية ليست مؤثرة فقط تبعًا لثقل صلب القذائف التي توجهها إلى العدو، «ذلك لأن هذه الأسلحة الحديثة لا قيمة لها في أيدي الجنود الضعاف العزيمة مهما كان عددهم»، وهذا نوع من جديد

يضاف إلى تفضيل «النوع» وتقديمه على «الكم».

ويلقي آردان دوبيك بلا شك ضوءًا على الكثير من مشكلات الحرب الحديثة والتي كانت حتى وقته لم تناقش إلا لمامًا، فضلًا عن أنها تُهيأ الحلول لها؛ فإذا وثقنا من أننا لا نستطيع تقبل حل مشكلة الجيش المحترف كان علينا ـ ولا شك ـ أن نواجه الواجب المليء بالصعاب لمحاولة تجنيد المجندين البرجوازيين إلى جيش قوي متماسك متكامل لا يفقد وحدته في الساعات الحرجة، بل وأن نوجد الوسائل الحديثة لضمان الضبط والربط الجيدين، هذه الوسائل التي تضع موضع التقدير الحقيقة القائلة بأنه: «يجب على المرء اليوم أن يبتلع في خمس دقائق جرعة علاج الخوف، هذه الجرعة التي كانت تتطلب يومًا كاملًا في عصر تورين».

بل وأن نضع كذلك موضع التقدير الحقيقة القائلة: بأن صور القتال المتوزع اليوم تجعل السيطرة أصعب وأعقد مما كانت من قبل.

***



جنرال تروشو (١٨١٥ ـ ١٨٩٦)

[٢]

وإذا كانت معركة سادوفا قد شككت بعض الضباط الفرنسيين في كمال تنظيماتهم العسكرية، فإن حرب سنة ١٨٧٠ قد هزتهم من مراقدهم بعنف فأيقظتهم، ولم يعد إذ ذاك من شك في أن فرنسا قد فقدت سيادتها على العالم العسكري، هذه السيادة التي كانت من نصيبها بالوراثة.

على أنه لم يكن بين أسباب هزيمة سنة ١٨٧٠ ما هو أبرز من قلة كفاية القيادة العليا، وقد لعب القادة الفرنسيون دورهم في حماقة وغباء وطيش ونزق بإزاء قادة بروسيين أحسن تدريبهم وإعدادهم، ووقفت إلى جانبهم تعاونهم مجموعة طيبة من هيئة أركان الحرب أعدت إعدادًا طيبًا، وبذلك لم تمكن شجاعة الجنود الفرنسيين من موازنة الموقف، وأن تعوض من هذا النقص الخطير في كفاية القادة؛ وكان من الواضح: أنه إذا أراد الفرنسيون استعادة مكانتهم كقوة عسكرية من الطراز الأول يجب أن يقوموا بصورة من صور الإصلاح في الجيش، على أن يبدأ هذا الإصلاح من أعلى «القمة»؛ أي أن يبدأ بإصلاح هيئة القيادة العليا نفسها.

وفي سنة ١٨٧٤ نظمت هيئة أركان الحرب الفرنسية على الطراز البروسي، ولكن هذا لم يكن كافيًا، بل كان من الضروري أن يتلقى الضباط دراسة تمكنهم من الوصول إلى مستوى أركان الحرب المحدثين.

ولم يكن أقل أسباب عدم كفاية هيئة أركان الحرب الفرنسية حقيقة أنها كانت قبل سنة ١٨٧٠ تغفل قيمة المعرفة والدراسة على حين كانت تعتبر المقدرة العملية كالمهارة في ركوب الخيل النموذجي الأساسي الحاسم لقياس

كفاية الضباط واختيارهم لما يشغلونه من مناصب وما يوكل إليهم من أعمال.

ولكن بعد سنة ١٨٧٤ تحول الأمر لتكون دراية الضباط بالنظريات العسكرية أساس اختيارهم؛ بل وقاعدة إعدادهم لوظائف أركان الحرب، وفي سنة ١٨٧٨ أنشئت «الكلية الحربية العليا» Ecole Militaire Supérieure، ثم عدل اسمها بعد سنة ١٨٨٠ إلى «كلية الحرب العليا» Ecole Supérieure de Guerre(*) وأضحت المركز الثقافي للجيش ومهد تدريب كبار الضباط(١).

وهنا نقف بإزاء هذه الكلية العليا الجديدة، فأية نظرية عسكرية كانت هي محور الدراسة في هذه الكلية العليا؟ إن أي جيش لا يريد طواعية أن ينزل عن تقاليده وأن يتنكر لماضيه، ولكن كان من الواضح أنه لا يمكن إحياء النظريات العسكرية الفرنسية التقليدية إلا لو روجعت وعدلت لتتمشى مع مجرى الأحوال الحديثة.

ولكن لم تقف نهضة الفكر العسكري الفرنسي ـ هذه النهضة التي حدثت في السنوات بين الحرب البروسية ـ الفرنسية وبين الحرب العالمية الأولى ـ لم

(*) يجب أن ننظر إلى هذا التعديل في إطلاق الاسم على المعهد العسكري نظرة أبعد مما توضحه الألفاظ؛ فالتسمية الأولى إنما تعني إيجاد كلية عليا لكلية ثانوية تسبقها، أي أنها مرحلة ثانية للتعليم بالنسبة للضباط الذين يتخرجون من "سان سير"، ولكن التسمية الثانية تعني إعداد كلية عليا للحرب تستهدف الإعداد للحرب، ويتضمن هذا إعداد كل الأفراد عامة من جهة، ومن جهة أخرى الإعداد الخاص للنابهين من الضباط الذين سيتولون القيادة، وهذا تطور له مداه. (المترجم).

(١) راجع الحديث عن هذا التطور في مقالي "دلاس إيرڤين":

١- The French Discovery of Napoleon and Clausewiz, Journal of the American military Institute, IV, (١٩٤٠). ١٤٣–١٦١.

٢- “The Origin of Capital Staffs”. Journal of Modern History, X (١٩٣٨), ١٦١ – ١٧٩.

تقف عند حد استحداث ، أي تجديد، الميراث التقليدي بل جاءت مؤثرات جديدة كانت لها أهميتها؛ فقد نشرت الدراسة التي كتبها آردان دوبيك، الدراسة التي وسمت بعنوان: «دراسات حول القتال» Etudes sur le Combat في كتاب سنة ١٨٨٠ وبدا أنها تقدم نظريات جديدة وتوجد آفاقًا جديدة للبحث والدراسة.

على أنه بالإضافة إلى هذا؛ فإن الفرنسيين في بحثهم لاستيضاح وتفهم الهزيمة التي أصابتهم سنة ١٨٧٠ / ٧١ ، اتجهوا إلى دراسة النظريات العسكرية الألمانية، واكتشفوا لأول مرة مؤلفات كلاوزيفتز(*) التي بدأت تؤثر تأثيرًا قويًّا وثوريًّا في الفكر العسكري الفرنسي.

وفي سنة ١٨٨٥ عندما ألقى «كاردو» أولى محاضراته عن كلاوزيفتز في الكلية العليا لدراسات الحرب دخل الكلية ضابط صغير اسمه «فرديناند فوش»، وفي سنة ١٨٩٤ أي بعد تسع سنوات كان هذا الضابط الصغير قد عين مدرسًا في الكلية، وكان هذا الضابط بمزجه تقاليد الماضي إلى المكتشفات العسكرية الحديثة، وقيامه بهذا المزج في أسلوب حديث له أصالته هو الموجه الجديد للفكر العسكري الفرنسي، وكان هو الأكثر أهمية والأكثر تأثيرًا في تصوير وصياغة النظريات الثقافية للضباط الفرنسيين قبل الحرب العالمية الأولى.

***

(*) راجع الفصل الرابع الكتاب الأول ص (٢١٥ – ٢٥٣) في الحديث عن "چوميني" وبخاصة رأيه في كلاوزيفتز. (المترجم).

[٣]

وقد بدأ فوش فاتحة كتابه الأول: «أصول الحرب»[١]، الكتاب الذي كان له خطره، بأن أثبت خطأ القول: بأنه لا يمكن تعلم الحرب إلا في ميدان المعركة، وقد كتب: أن الفكرة القديمة التي تحاول زعم أن الحرب لا تدرس إلا بالحرب لهي فكرة غير صحيحة، فليس من الممكن دراسة أي شيء في ميدان المعركة «حيث يعمل المرء ببساطة لتطبيق ما يعرف ولا شيء غير هذا»[٢]وحتى لكي يستطيع المرء أن يعمل هذا «القليل» يجب أن تتوافر له المعرفة «بالكثير»، وأن تتوافر له هذه المعرفة بدرجة جيدة جدًّا.

وكان هذا هو الدرس الذي يمكن إدراكه من دراسة ما حصل عليه البروسيون من نجاح، فلقد استطاع البروسيون بتدريب أكاديمي دون أن تتوافر لهم أية تجارب عن الحرب بعد سنة ١٨١٥ أن يهزموا في سنة ١٨٦٦ النمسويين الذين لم ينتفعوا من التجارب التي حصلوا عليها في سنة ١٨٥٩، ولم يكن هذا كل شيء؛ لأننا نعود ثانية فنجد في الحرب ضد فرنسا سنة ١٨٧٠ ما يثبت هذه الحقيقة.

ولما كانت الحاجة إلى تعليم نظرية الحرب، وإمكانيات هذا التعليم لا تتطلب الاستناد لأكثر من بعض الحوادث التاريخية التي تكفي لتصوير الإيضاح والشرح؛ فإن فوش لم يقدم دراسة في فن الحرب تنتظم فيها مجموعة كبيرة من الأفكار والآراء، وقد استهدف بدراسته هذه أن يصل

(١) نفس المرجع ص ٥.

(٢) Ferdinand Foch, The Principles of War, trans. By Hilaire Belloc. ()New York. ١٩٢٠).

بالمعرفة لمن يعرف ولمن لا يعرف؛ لأنه يقول في وصف «مبادئه»: «إن الرعاة يوقدون النيران على الساحل عند العاصفة لإرشاد رجال البحر حتى الذين لا يعرفونهم».

ولكننا مع هذا نجد في كتابه نقاشًا ودراسة «لعدد من المبادئ الأساسية في قيادة القوات، وفوق هذا في التوجيه الذي يجب أن يوفر للعقل ليستطيع ـ في كل الظروف ـ القيام بعمل تكون له على الأقل أسسه المنطقية»[١].

ويتضح من الكتابين اللذين كتبهما فوش قبل حرب سنة ١٩١٤: أنه كان متأثرًا بكلاوزيڤتز إلى حد بعيد أكثر من تأثره بأي شخص آخر من أصحاب النظريات العسكرية، وكنتيجة لهذا فإن كل الأمثلة التاريخية التي قدمها قد خرج بها من حروب نابليون أو من حرب سنة ١٨٧٠ التي قدم لها دراسة ضافية في كتابه: «إدارة الحرب»، وكما أشار الكبتن ليدل هارت[٢] فإننا لا نجد في كتابات فوش ما يدل على أنه قد عمل حقًّا بنصيحة نابليون التي يقول فيها: «اقرأ، واقرأ حملات كبار القادة» من الاسكندر إلى فردريك. وينسب ليدل هارت بعض أوجه الضعف أو الخطأ في استراتيچية فوش إلى

(١) نفس المرجع ص ٥ "المقدمة".

(٢) B.H. Liddell Hart, Foch, The Masn of Orleans, (London, ١٩٣١), P. ٢١, ٤٦٨.

«ليدل هارت» من ضباط الحرب العالمية الأولى وصل في المشاة إلى رتبة "الكبتين" اليوزباشي، وقد وكل إليه في السنوات التي بين الحربين العالميتين إعادة كتابة "قانون خدمة الميدان" للجيش الإنجليزي، وليدل هارت من أقدر الكتاب العسكريين الإنجليز بل كان أقدرهم بلا منازع في وقتٍ ما، وله مؤلفات عسكرية عدة أهمها: The Strategy of Indirect Approach, The British Way in Warfare, The Remaking of Modern Armies, Reputations. وتطبع كتبه طبعات عدة بعد أن توسم بعناوين مباينة لما سبق نشره بها، والنقد الوحيد الذي يوجه لليدل هارت هو إيمانه الخاطئ بقيمة الدفاع مع أن الهجوم هو أصلح وسيلة للدفاع. (المترجم).

النقص في المعرفة التاريخية، ولكن يجب أن نلاحظ: أن كلاوزيڤتز لم يقدم إلا فيما ندر أية أمثلة مقتطعة من الحروب التي سبقت القرن الثامن عشر، وقد عمل فوش في التعاليم والدراسات التي قدمها، عمل «موصل التيار»، بالنسبة لملاحظات وتعاليم كلاوزيڤتز[١].

ولهذا فإن أصالة فوش تكمن في إيضاحه للأصول الاستراتيچية الجديدة بدرجة أقل مما تبدو في إصراره على هذا العدد القليل من الحكم والأقوال البسيطة جدًّا، والتي بقيت رمزًا إلى تعاليمه، ودعامة لها، وتعكس هذه الرموز الازدواج في طبيعة تفكيره؛ الازدواج بين العامل الثقافي والفلسفة السببية، وبين العامل الروحي والسمو والتفاخر بمضاء العزيمة؛ والحقيقة: أنهما يظهران غالبًا في صورة أكثر قليلًا من مجرد آراء واضحة لا تستحق الذكر، ولكن من الضروري أن يعترف من يدرس تطور الفكر العسكري بأن أقوى وأعرق مبادئ الاستراتيچية لم تجئ إلا من مثل هذه الحقائق والآراء[٢].

وقد بدأ فوش كتابه الأول باعترافه بوجود بعض أصول الحرب الثابتة، ولكنه أسرع فأضاف إلى اعترافه هذا: أن هذه الأصول يجب أن تقاس قيمتها بما لتطبيقها في أحوال خاصة؛ وذلك «لأنه في الحرب لا يوجد أي شيء عدا الأحوال الخاصة، ولكل شيء طابعه الانفرادي الذي يتميز به فضلًا عن أن شيئًا مما حدث لا يتكرر ثانية»[٣]

وهنا نلقى من البداية لب عقيدة فوش، ونجد في نفس الوقت السبيل

(١) نفس المرجع ص ٢٣.

(٢) "Monsieur de la Palisse est mon meilleur ami" Foch once declared to Major Bugnet.

(٣) المبادئ صفحة ١١.

لتوجيهاته المستقبلية، هذه التوجيهات التي عاونته على الخلاص من عدم كفاية تعاليمه عندما ووجهت بحقائق ميدان المعركة وعلى الأخص ضرورة إيجاد التناسق بين الأصول الثابتة، وبين صور فن الحرب الدائمة التغير.

والواقع أننا نستند هنا إلى كلمات الجنرال ڤيردي ڤيرنوا[*] عندما وصل ميدان القتال في «ناشود» سنة ١٨٦٦ ، ففي خضم الصعاب التي واجهته راح يبحث في ذاكرته عن فكرة يمكن أن تمده بها يدبر به أمره، ولكن كل هذا البحث لم يصل به إلى «الإلهام» الذي يحتاجه للتغلب على الصعاب التي تواجهه، وهنا قال لنفسه: «فليذهب التاريخ، ولتذهب معه كل الأصول والتعاليم إلى الجحيم، فأولًا: ماهي المشكلة التي تواجهني؟ وما هو الموضوع؟»[١].

ومنذ ذلك الوقت كانت هذه الكلمات «ما هو الموضوع؟!» تجري مجرى المثل في كل مناسبة، على أنها في الحقيقة هي التي توضح لنا المفارقات والمتناقضات في تعاليم فوش، هذه التعاليم التي تجمع بين العوامل الميتافيزيقية العامة[٢] المجردة الجامدة العسيرة الفهم مع القليل من المنطق

(*) ڤيردي دو ڤيرنوا چنرال بروسي ولد في سيليزيا سنة ١٨٣٢ ومات في استكهولم سنة ١٩١٠، وصل إلى رتبة الليفتينانت چنرال سنة ١٨٨٨، وكان حاكم "ستراسبورج" سنة ١٨٨٧، وفي العام التالي تولى عمل مدير المشاة، وكان وزيراً للحربية سنة ١٨٨٩ – ١٨٩٠، له عدة مؤلفات عسكرية أهمها:

Etudes sur la conduite de و La Participation de la deuzième armée à la Campagne de ١٨٦٦.

معجم لاروس القرن Etudes sur le service en Campagne ١٨٦٦. و troupes (١٨٧٣ – ١٨٧٥) العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ المجلد السادس صفحة ٩٤٩ (المترجم).

(١) "المبادئ" صفحة ١٤.

(٢) "كان هذا الضابط إبان توليه التدريس في مدرسة الحرب يعلم – "الميتافيزيقيا"، وهي علم صعب المنال عسر الفهم مما سبب أنه جعل عدداً من طلبته حمقى أغبياء" – (تقرير=

المتحرر من كل الحلول المعدة من قبل(*)، وربما كانت هذه المقدرة العملية على دقة الحكم السليم هي السر القوي وراء كل مادة علم الاستراتيجية؛ إلا أن عبقرية فوش هي التي طبعت في أذهان تلاميذه وأوحت إليهم، بل وأوحت إلى فوش نفسه، الحاجة المثمرة لتحرر المرء من قيود النظريات المعدة من قبل.

وقد وضحت الأهمية التي قدرها فوش لهذه الحاجة إلى التبصر المستمر والإدراك المتواصل (مع اطراد التحسين واستمرار تعديل النظريات وتكييفها تبعًا للعمليات) في نقده للحملة الألمانية لسنة ١٨٧٠[١]، وقد استخدم فوش بطلاقة إحدى حكم نابليون، وهي الحكمة التي تقول: «الحرب فن بسيط، يكمن جوهره وكنهه في إتمامه وإنجازه». ولم يقلل فوش

=البوليس المرفوع للوزير كليمانصو سنة ١٩٠٨ عندما كان يفكر في تعيين فوش مديراً لمدرسة الحرب).

يوضح لنا هذا أن مسألة البحث في ماضي الذين يُرشحون للوظائف العامة والاتصال بالسلطات البوليسية في هذا الشأن ليست وليدة هذا العصر الذي نعيش فيه بل هي قديمة ترجع إلى فجر هذا القرن، بل وربما قبل هذا بكثير. (المترجم).

(*) في الأصل "Readymade Solutions" والفكرة في هذا أن الكثير ينظرون إلى الأصول التي توضع نتيجة دراسات معارك الحرب القيمة وتطبيق هذه الأصول في الظروف المماثلة إنما تعتبر من "الحلول" المُعدة من قبل (الجاهزة)، ومثلها مثل الثياب الكاملة التي يمكن أن تُشترى من الحوانيت مُعدة للاستعمال صالحة لمن يبتاعها، وكأنه لا ابتكار فيها ولا مهارة لمستخدمها ومن ينتفع بها، وقد يكون أضعف ما في هذا الرأي أن قوة الابتكار والمقدرة هنا إنما تكمن في حسن اختيار الحل المناسب من بين عشرات الحلول المعروفة المدروسة المُجربة من قبل، ثم تطبيقها في ضوء الظروف الحديثة، وثبات الركن الأساسي للحرب أي ثبات المبادئ والأصول مع تطور الأسلحة والصور وتشكيل القوات هو الذي يجعل هذا الاستخدام في الواقع يتطلب خبرة ودراية لا تتوافران للضابط العادي. (المترجم).

(١) La Conduite de la Guerre (Paris, ١٩٠٥).

من قيمة الإعداد المعني به، فقد تتوقف الحرب كلها على الأسلوب الذي يحدث به الاشتباك في المعركة الأولى، ولكنه آمن بأنه من غير الممكن أن يعد التخطيط بدقة، وعلى وجه التحقيق، لأية معركة تالية للمعركة الأولى. وينقل فوش هنا مرة أخرى إحدى حكم نابليون، فلقد أوضح الإمبراطور أنه: «لم تكن له خطة للعمليات، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن يعرف إلى أين يسير، كان نابليون يعد تخطيطه للحرب، وكان كذلك يضع هدفًا نهائيًّا يعمل لتحقيقه، وهكذا كان يتابع سيره وهو يتخير في طريقه ـ تبعًا للظروف ـ الوسائل التي تمكنه من إدراك هذا الهدف».

ومع أن مولتكه قد أدرك هذه الاستحالة للإبقاء على خطة معدة من قبل فإن ضعف حملة سنة ١٨٧٠ ـ على ما لاحظ فوش ـ كان هو جمود القيادة العليا عن العمل تبعًا لترك خطة العمليات لابتكار قادة الجيوش أنفسهم.

كانت الخطة البروسية تقوم على أساس «التعقب التام المستمر لمنطق الحوادث، وكانت أعمال العدو بدورها هي أيضًا تقوم على أساس اعتبارات لها منطقها، وتتفق مع مصالحه الخاصة، وفي مواجهة مثل هذا العدو أعد الألمان خطتهم للهجوم، هذه الخطة التي كانت بالضرورة قد أعدت من قبل»[(١)]، وهنا نمسك بأول أطراف المشكلة؛ فإن القادة إذا لم يعملوا تبعًا للخطة الموضوعة انهارت هذه الخطة، ما لم يكن القائد العام على مقربة من الموقف وعلى أتم أهبة لإصدار قراراته على ضوء الظروف والمواقف المتغيرة؛ ولكن إدارة المعارك وتوجيهها بواسطة القيادة الألمانية العليا «كانت إدارة غير مباشرة، وكان توجيهها توجيهًا أعمى غير صحيح، وقد كان

(١) نفس المرجع، ص ٤٦٨.

النصر لا بسبب الجمع والتنسيق للعوامل المختلفة بواسطة مولتكه، ولا بسبب دقة تنفيذ الجنود للتدابير التي أمر بها ـ إلى غاية ما لهذه الكلمات من معنى ـ بل الواقع: أن الجنود قد كسبوا هذه الانتصارات حينما وحيثما كان القادة أنفسهم لا يتوقعونها»(١).

ويقول فوش في جدله، مع أنه كان مسرفًا في مديحه لمولتكه: إن الجيش الفرنسي لم يهزم باستراتيجية غير خاطئة، بل لأن القيادة الفرنسية لم تستطع الانتفاع من أخطاء البروسيين، هذه الأخطاء التي كان أهمها صلابة وجمود تخطيطهم للعمليات، ثم انعدام التوجيه المستمر للعمليات من جانب القيادة الألمانية العليا.

على أن ملاحظة فوش هذه لها أهميتها؛ وذلك لأنها توضح اليوم أحد أسباب هزيمة الألمان عند المارن سنة ١٩١٤ ، ألا وهو: عزلة وتباعد القيادة الألمانية العليا عن ميدان المعركة؛ إن النقد الدراسي للعمليات الحربية ليتسع لكل عوامل النقص التي تبدو شاذة وغريبة من وجهة نظر التاريخ الافتراضي الذي يقوم على أساس النقاش القائل بأنه: «ولو أن النصر ـ كما لاحظ فوش بعد الحرب ـ منع الألمان من تفهم وإدراك الأخطاء التي تنكبوا فيها، فإن هذا قد جعلهم بالتبعية يثابرون على متابعة هذا الخطأ والتنكب فيه من جديد، لقد كانت خطة شليڤن خطة ممتازة، ولكنها نفذت تنفيذًا رديئًا، ولو تصورنا: أن نابليون كان هو الذي يتولى قيادة الجيوش الألمانية التي قامت بغزو فرنسا، فلا شك أنه لم يكن ليظل على مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ميل من الخطوط الأمامية، ولا شك أيضًا أنه لم يكن ليترك لقادته التابعين

(١) نفس المرجع صفحة ٤٧١.

عبء التدبير وإصدار القرارات، لقد كان نابليون يسيطر على الحوادث بدلًا من أن يتركها تحدث وتقع، إن مولتكه لم يتبع هذه الصورة المثالية، ولكن چوڤر فعل هذا، وكان هذا هو السبب الذي جعله يكسب معركة المارن»[١].

ولهذا تبدو فكرة فوش ورأيه في إدارة الحرب موازنة جميلة بين (المذهب المنطقي» و «المذهب التجريبي» ، ومما لا شك فيه: أن عادة تطبيق المبادئ العامة، وتكييف الحلول على ضوء المواقف القائمة هي سر الاستراتيچية الناجحة.

ولكن ماذا كانت هي المبادئ العامة هذه؟

بل وقبل كل شيء، أي نوع من الحرب هو الذي تطبق فيه المبادئ؟

والواقع أننا يجب قبل أن نعرض لمبادئ فوش في الاستراتيچية أن ندرس في إيجاز نظريته العامة للحرب.

ومع أن نظرية فوش تتبع تمامًا نظرية كلاوزيڤتز؛ فمن الضروري أن نذكر: بأن كلاوزيڤتز قد أوجز التأثير الذي كان لهذا التغيير والتبديل في المظهر الذي جاءت به حروب الثورة الفرنسية، ألا وهو التحول عن الحروب الأهلية المحددة، هذا التحول الذي تنبأ باتجاهاته ميرابو[*]حتى قبل بدء الثورة الفرنسية؛ ولهذا فإن هذا الطابع الجديد «الحرب المطلقة» لم يكن

(١) SR. Recouly, Marshal Foch, His Own Words on Many Subjects, (London, ١٩٢٩), P. ١٣٠.

(*) ميرابو Mirabeau – ڤيكتور روچيه ماركيز أوف، اقتصادي فرنسي، ولد في بيرتويه سنة ١٧١٥ وعاش حتى سنة ١٧٨٩، كان ابنه "هنري جبرييل ميرابو" خطيب الثورة الفرنسية المفوه، وقد اختير الابن سنة ١٧٨٩ في مجلس حكومة الثورة وقد أعدم سنة ١٧٩١ عندما اتُهم بعقد اتفاقات مضادة للثورة. مُعجم لاروس الموجز صفحة ١٥٤٤ – (المترجم).

شيئًا جديدًا ـ على الأقل ـ بالنسبة للفرنسيين، ولكن إغفال إدراك هذه الحقيقة كان سبب هزيمة سنة ١٨٧٠ ، يقول فوش:

«وبسبب إهمالنا هذا التحول الأساسي الذي قام به جيراننا، وبسبب النتائج التي كانت له كنا نحن ضحية هذه الحرب الأهلية التي كنا موجديها وواضعي أصولها. إننا نقف اليوم مضطرين للعودة ثانية إلى النظرية المطلقة للحرب في ضوء ما نستطيع أن نصل إليه منها في دراستنا للتاريخ؛ وذلك بسبب عودة أوروبا كلها إلى النظرية الأهلية نظرية الأمم المسلحة المقاتلة»[(١)]؛ ولهذا السبب وحده تخير فوش كل مراجعه التاريخية من حوادث ودراسات فترة معينة محددة، هي العصر الحديث لحروب الشعب[(٢)] .

ومع أن فوش قد استخدم كلمة «المطلقة» في وصف الحرب؛ إلا أنه في الواقع لم يدرك كل ما فيها من صور، هذه الصور التي بدت واضحة ملموسة بعد سنة ١٩١٤ ، والتي تثبت أنه لم يتوافر لفوش إلا فكرة باهتة عن الحاجة إلى تعبئة اقتصادية شاملة؛ بل وحتى تجارب الحرب لأربع سنوات لم توح إليه بالأهمية الحقيقية للعمليات البحرية، على أنه ربما كان من الطبيعي أن تتوافر عوامل النقص هذه لجندي درب في العمليات البرية، بل الواقع أنها كانت شائعة بين كل الجنود المحترفين سادة فن القتال المعاصرين لفوش.

---

(١) "المبادئ" صفحة ٢٥.

(٢) كتب فوش مُتحدثاً عن حرب سنة ١٨٧٠ "كان لكل ألماني نصيب في "النفع" و "الفائدة، وكانت له مصلحة مباشرة في "الصورة" و "التكوين" في "النفع" و "الفائدة"، وكانت له مصلحة مباشرة في "الصورة" و "التكوين"، كما كانت له مصلحته في النصر"، إن هذا هو المعنى الصحيح لحرب الشعب "المبادئ" ص ٣٦.



فوش (١٨٥١ ـ ١٩٢٩)

وتكشفت نظرية فوش عن دور المعركة في الحرب؛ كما يكشف رأيه في العلاقة بين الاستراتيجية والتكتيك عن هذا الإهمال للعوامل المؤثرة فيما ينتهي إليه القائد تبعًا للموقف الذي يواجهه؛ كما يكشفان عن هذا الإصرار على تقدير المرحلة العسكرية التي للحرب وحدها دون أي شيء آخر.

ولربما كانت فكرة الحرب الأممية مع ضرورة حدوث القتال المسلح ـ لا استراتيجية لوحة الشطرنج التي اشتهر بها القرن الثامن عشر ـ هي أبرز ما في الفلسفة العسكرية لكلاوزيفتز، وقد أخذ فوش دون تحفظ بوجهة نظر كلاوزيفتز، من أن المعركة هي الحل الوحيد لمشكلة الحرب، وأنه في مواجهة «صور التأرجح المتعثر المضطرب» وضد «النظريات غير المستندة إلى أسس ودعامات قوية» التي جاء بها القرن الثامن عشر يجب استخدام الأساليب التي أوجدها نابليون؛ وإذا كان كلاوزيفتز قد قال: «الدماء ثمن النصر»، فقد قال فوش: «لا نصر بغير معركة»، ثم أضاف فوش إلى هذا: «ولا تعلو استراتيجية على تلك التي تهدف إلى ضمان النتائج التكتيكية؛ أي التي تهدف إلى اكتساب النصر بالقتال»(١).

وهنا أيضًا نجد درسًا لنابليون حريًّا بالتقدير إلا أن هذا الدرس ذكرته بروسيا وأغفلته فرنسا في حكم الامبراطورية الثانية(٢) ؛ ذلك لأن القادة

---

(١) "المبادئ" ص ٤٣.

(٢) لا يوجد أي خلاف – على ما ظن في وقت ما – بين هذه العقيدة وبين القواعد العامة لنابليون، فإن الكبتن ليدل هارت ينقل قولاً عن نابليون ذكره في بداية حملة سنة ١٨٠٥ ليوضح أنه كان معنياً "بكسب النصر بأقل ما يمكن من الدماء". وهنا يعترض ليدل هارت على "عقيدة" هيئة أركان الحرب الفرنسية لسنة ١٩١٣ من أنه "لا يمكن الحصول على النتائج إلا بثمن مرتفع من التضحية بالدماء"، ولكن هذا يُعتبر إغفالاً لما وصل إليه فوش من المقارنة بين أساليب القرن الثامن عشر والتي يوضحها الماريشال دي ساكس=

الفرنسيين كانوا متأثرين بأهمية المواقع الجيدة، والتي يظن بأن احتلالها يمكِّن من الحصول على مطالب واحتياجات الاشتباك النهائي بالعدو، أو على الأقل، يجعل الدفاع قويًّا إلى الحد الذي يمكِّن من تقليل الفرص التي تكون في جانب المهاجم؛ وقد جادل فوش على أساس: أن الحرب الحديثة «تتطور لتكون أكثر اتجاهًا نحو الطابع الأممي في أصولها وأهدافها؛ كما أنها تتجه لتكون أقوى في الوسائل التي تستخدمها، وكما أنها تتحول لتكون أكثر تباعدًا عن العوامل ذات الطابع الكمي بتقدير قيم «الأرض، المواقع، التسليح، الإمدادات والتموين»، إنها حرب تغفل تمامًا عن تملك الأرض، الاستيلاء على المدن، غزو واحتلال المواقع القوية»(١) .

لقد كان من «الطفولة» قبول المعركة ضد قوات أكثر عددًا بالاستناد إلى الفوائد التي تقدمها الأرض، ولكنها «طفولة» لا تقل عن هذا ـ لو جاز لنا أن نستخدم كلمات فوش بعد الحرب العالمية الأولى ـ أن نثبت نحو أقصى الطرف الآخر كما فعلت القيادة الفرنسية العليا في الأيام الأولى من الحرب بالاعتماد فقط على «الروح المعنوية»، وكانت نتيجة هذا العودة من جديد إلى «بربرية» المعارك النابوليونية، واصلين بهذا إلى أقصى ما يمكن من الوحشية تبعًا لاستخدام التطورات الفنية الحديثة في هذا القتال العنيف(٢).

لقد آمن فوش بأن هذه الحرب المطلقة يمكن أن توضع ذات طابع

=في قوله: "إنني لا أفضل المعارك الدامية، وعلى الأخص في بداية الحرب، إنني أؤمن بأن القائد الماهر يستطيع أن يجعل الحرب صناعته طوال حياته دون أن يرغم على خوض معركة دامية"، وبين الطريقة النابوليونية والتي أوضحها نابليون في قوله: "لا يوجد ما أرغب فيه أكثر من المعارك العظيمة".

(١) "المبادئ" ص ٤١.

(٢) "المبادئ" ص ٤٩ – ٥٠.

واضح، ويبدو وكأن فوش قد أراد أن يلغي أو يعطل نبوءته السابقة بتحديده للمبادئ التي وضعها للحرب، هذه المبادئ التي جاءت في أولى صفحات كتابه ألا وهي:

ـ مبدأ الاقتصاد في القوى.

ـ مبدأ حرية العمل.

ـ مبدأ حرية استخدام القوات.

ـ مبدأ الأمن... «الخ».

وقد كشف هذا اللفظ «الخ» الذي استعمله فوش هنا عن «انطلاق غير محدود» لم يوضحه فوش في كل صفحات كتابه[١]، ومع هذا فقد لخص فوش ـ بإحكام ودقة ـ ما اعتبره نابليون من «الضروريات» لفن الحرب، وبهذا أوضح إلى حد ما معنى العبارة المبهمة في تصريحه لركولي[*] عندما قال له: «إنني أفكر طويلاً في هذا الأمر»، ويضيف ركولي إلى هذا من حديث فوش: «ويبدو لي: أن فن نابليون يتكون من عدد قليل من الأصول

(١) ليدل هارت – نفس المرجع ص ٢٣ وهامش ص ٤٠.

(*) ركولي - ريموند ركولي (١٨٧٦ - ١٩٥٠) كاتب فرنسي عمل مراسلاً لصحيفة "الطان" في منشوريا أثناء الحرب الروسية – اليابانية، وشغل بعد هذا بالدراسات العسكرية والعمل كمراسل حربي في الحرب العالمية الأولى، وقد كتب عدة مؤلفات عسكرية أهمها:

١ - عشرة أشهر من الحرب في منشوريا (١٩٠٥).

٢ – المعركة في غابة الأرجون (١٩١٦).

٣ – الماريشال چوفر ومعاركه (١٩١٦).

٤ – فوش (١٩١٩).

٥ – معارك فوش (١٩٢٠).

الواضحة المبسطة إلى حد غير عادي، وهو يستعملها بمهارة الرجل المدرب العارف بصناعته ليوجه جنوده ويستخدمهم بمهارة ليستطيع مهاجمة العدو في أضعف نقطة بقوات أكبر، وأن يسيطر على جنوده حتى في توزعهم؛ كما يسيطر قائد العربة على جياد عربته بإحكام الأعنة، ويستطيع تبعًا لهذه السيطرة أن يحشد جنوده في لحظة واحدة، وأن يعين قطاع العدو الذي يهدف إلى تدميره، وأن يميز ويدرك النقطة الحاسمة التي تنقلب عندها هزيمة العدو إلى فوضى، ثم أن يستطيع مفاجأة بسرعة تخطيطه لعملياته، وكان هذا هو القليل من العوامل الضرورية لعبقرية نابليون العسكرية»[١] .

فإذا ما بحثنا «مبادئ» فوش تفصيليًّا لم نجد فرقًا واضحًا بين مبدأ «حرية العمل»، ومبدأ «حرية استخدام القوات»، ويبدو أن فوش قد استعملها على التبادل ليوحي إلى طلبته الأهمية الكبرى التي لقوة المبادأة والابتكار، وأهمية التحرر من رغبة العدو؛ على أن الأكثر أهمية من هذا في الواقع: هو ما قدمه بعدهما في حديثه عن مبادئ الحرب؛ فمبدأ «الاقتصاد في القوى» هو نتيجة لمبدأ «حرية العمل» الذي يبشر به، ثم مبدأ «الأمن» الذي هو أصل تطبيق مبدأ «الاقتصاد في القوى».

على أن مبدأ «الاقتصاد في القوى» ـ تبعًا لوجهة نظر فوش ـ هو الذي مكَّن من بقاء «فن الحرب» واستمراره برغم الفوضى أو الاضطراب الناجم عن أحوال الحرب الحديثة وظروفها، ولم يحدد فوش نفسه فكرته في هذا المبدأ، إلا أننا نستطيع أن نجد بين ملاحظاته عن هذا ما يستحق الذكر، فهو يقول: «من الأمثال الصحيحة مثل يقول صاحبه: «إنك لا تستطيع إصابة

(١) ركولي – نفس المرجع ص ١٢٦ – ١٢٧.

أرنبين في وقت واحد، ولكنك قد تستطيع أن تمسك بأحدهما فقط». والفكرة في هذا هي: أن المرء يجب أن يحشد كل جهوده للوصول إلى نتيجة، وأولئك الذين يقولون: «بأن الاقتصاد للقوى يعني ادخارها، وأن المرء يجب أن يكون على حذر فلا يوزع جهوده» إنما يقدرون جزءًا من الحقيقة وليس كلها، ولكن الأقرب إلى الحقيقة هم أولئك الذين يحولون الأمر إلى ضرورة معرفة الأسلوب الصحيح للتوزع والانتشار، على أن يكون في هذا ما يهدفون إليه من نفع، وبذلك يستطيعون أن يصلوا إلى أحسن الوسائل المستطاعة لاستخدام كل الموارد التي تتوافر لهم»[١].

وقد يكون «التقدير» أو «الحساب» «المنطقي الذي يقبله العقل» تعادلًا مرضيًّا لمبدأ «الاقتصاد في القوى»، هذا المبدأ المعروف جيدًا بين أسس النظريات الاقتصادية والذي يطبق تطبيقًا عامًّا في السلوك البشري المثالي وليس في «فن الحرب» وحده. ويعزو فوش أصل هذا المبدأ إلى حروب الثورة الفرنسية، متبعًا في هذا الرأي خطى چوميني الذي يؤكد: أن نابليون كان يستخدم أقصى ما يتوافر له من قوات ضد أكثر نقط مواقع العدو تعرضًا وصلاحية للهجوم.

ومن الواضح: أن مثل هذا المبدأ الواسع المدى لا يقدم القواعد التي يمكن تطبيقها في هذا العدد الكبير من «الفرص» المحتملة، أو بمعنى آخر لا يقدم الأصول التي يستطيع القائد أن يتخير منها ما يطبقه لكل حال تعرض له لتعدد هذه الحالات وتباينها؛ كما أنه لا يمكننا القول ـ في ضوء هذا المبدأ ـ بأن كل القوات مثلًا يجب أن تحشد دائمًا للقيام بالهجوم الحاسم[٢].

---

(١) المبادئ ص ٥٠ – ٥١ Principles, p. ٥٠ – ٥١.

(٢) "المبادئ ص ٥٧.

ولكن الدرس الذي نستطيع أن نخرج به من هذا هو: أنه ليس من الممكن عمليًّا أن يتأكد المرء من أن العدو ليس هو الأقوى في كل نقطة من مواقعه، مما يضطر معه إلى المخاطرة كضرورة لا قِبل له بتجنبها، «والفكرة أن العدو إذا كان هو الأقوى في قطاع ما من ميدان المعركة فهناك قطاعات أخرى لا تتوافر له فيها هذه الأفضلية، وإلى هذه القطاعات يوجه الخصم حشد قواته».

ثم يتابع فوش حديثه ويقول: «يوجد عدد كبير من القادة المدربين المهرة إلا أنهم يفكرون في أشياء كثيرة جدًّا، إنهم يحاولون رؤية كل شيء، والاحتفاظ بكل شيء، والدفاع عن كل شيء»، عن المستودعات، خطوط المواصلات، المؤخرة، المواقع، إلى غير هذا مما يمكن التفكير فيه وتوجيه النظر إليه، إن مثل هذا العمل منهم معناه في النهاية توزع الجهود، هذا التوزع الذي يحول دون حشدهم لجهودهم كلها تجاه غرض واحد وتوجيه الضربات إليه بقوة، وهكذا فإنهم في النهاية لا يعملون شيئًا ولا يصلون إلى شيء»[(١)].

ولكن ألا تكون نتيجة هذا الحشد خطر التعرض لمفاجأة العدو في المكان الذي لا تتوقعه فيه؟ إن مبدأ «الأمن»[(٢)] يمكِّن من تجنب هذه المخاطرة، وإغفال هذا المبدأ في الأيام الأولى سنة ١٨٧٠ كان من أهم العوامل الرئيسية

(١) نفس المرجع ص ٥٧.

(٢) في الأصل الفرنسي كلمة Sûreté، وكلمة "الأمن" هي التي تُستخدم عادةً في الترجمة للتعبير عن الفكرة وإيضاحها، ولكن في الواقع لا توجد كلمة واحدة بسيطة توضح المعنى الدقيق للأصل الفرنسي، لأن Sûreté لها معنى "الحس بالثقة والتيقن التام مع تأكيد السلامة"، وتعني أن القائد يعمل في دراية تامة بكل ما يحيط به مع الوقاية التي توفرها قواته". ليدل هارت – نفس المرجع – ص ٤٨٢.

للنكبة التي حلت بالجيوش الفرنسية، ومن جهة أخرى فقد أجهد فوش نفسه ليثبت في كتابه: «إدارة الحرب» أن مثل هذا الإغفال للمبدأ نفسه كان شائعًا بين القادة البروسيين.

ولكن ربما كان القادة البروسيون يعرفون كيف ينتفعون من أخطاء أعدائهم؛ فإن هذه الدراية والقدرة على الانتفاع من أخطاء الخصم لم تتوافر للقادة الفرنسيين. لقد وقف فوش نصف كتابه «المبادئ» تقريبًا لدراسة مبدأ «الأمن»، ولعل من النافع أن نلخص هذا في ذات كلمات فوش نفسه:

«وهذه الفكرة الضافية «للأمن» والتي نعبر عنها إجمالًا بلفظ واحد تنقسم في الواقع إلى:

١ـ «الأمن المادي»؛ أي: طابع الأمن الذي يمكِّن من تجنب ضربات العدو عندما لا نرغب في مقابلة ضرباته بمثلها، أو عندما لا نستطيع حقًّا القيام بهذه الضربات المضادة، والأمن المادي هو صورة الشعور بالأمن في خضم الخطر كما تكون الحال عند التوقف أو السير وراء ساتر قوي.

٢ـ الأمن التكتيكي: طابع الأمن الذي يمكننا من القيام بتنفيذ برنامج أو أوامر صادرة من قيادة أعلى برغم الظروف غير الطيبة التي تسببها الحرب، وبرغم البقاء في خضم المجهول، وأيضاً برغم التدابير التي يقوم بها العدو برغبته الخالصة الطليقة، وعلى أن تتوافر لنا برغم كل ما يمكن أن يقوم به العدو – حرية تامة للعمل»[١].

وقد كتب فوش:

«إن هذا «المجهول» الغامض هو الذي يحكم ظروف الحرب وأحوالها[٢]،

(١) "المبادئ" ص ١٣٨ – ١٣٩.

(٢) نفس المرجع ص ١٤٥.

ولهذا كان العامل الأول للأمن اختراق سجف المجهول مع الوصول إلى غاية ما يمكن من المعلومات ولما كانت «القوة الأساسية» تتوزع بالضرورة، فإن واجب الحصول على المعلومات يُلقى على عاتق «المقدمة»(*)، وتتوقف حرية الجيش للعمل على درجة نجاح «المقدمة» في إتمام الواجب الموكول إليها، ولهذا كان واجب المقدمة، هذا الواجب الثلاثي الأركان هو:

١- «التبليغ أي «الحصول على المعلومات وإرسالها للخلف»: وذلك بالقيام بالاستكشاف حتى اللحظة التي تشترك عندها القوة الأساسية في المعركة».

٢- «الوقاية أي «الستر والتغطية»: بإخفاء كل تحركات القوة الأساسية حتى تتم احتشادها وتأهبها للاشتراك في المعركة».

٣- «التثبيت: بإبقاء قوة العدو المعتزم مهاجمتها في الأوضاع التي تم استكشافها فيها وشغلها بالنيران ودوام مراقبتها للإلمام التام بكل تحركاتها حتى تبدأ عملية الهجوم»(١).

ومن الواضح أن فوش في تأكيده لأهمية «حرس المقدمة» لم يفكر في التطور الذي جاءت به الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» عندما قصر جيشان كبيرا العَدد موفورا العُدد – كل نشاطهما في فترات الهدوء من

(*) في الأصل "Advanced guard" وتترجم عادةً في المعاجم العربية بكلمة "الطليعة" (إسماعيل مظهر – قاموس النهضة) واستعملت هنا "المقدمة" وهي الكلمة التي تستخدم في المراجع العسكرية العربية، أما "الطليعة" فتستخدمها هذه المراجع للوحدة الصغيرة التي تجيء في مطلع "المقدمة" عندما "تتشكل" للسير على طريق سابقة القوة الأساسية. (المترجم).

(١) المرجع نفسه ص ١٥٣.

الاشتباكات الدامية – على «أعمال المراقبة». أو بمعنى آخر، على القيام بتدابير الأمن وذلك تبعاً للجمود الذي لحق بالجبهتين المتضادتين من الخنادق بين الحدود السويسرية وبحر الشمال، وكان هذا الإصرار على التفكير في مبدأ «الأمن» وحده تسليماً بالفردية في ضوء أخطاء حرب سنة ١٨٧٠، ثم في ضوء التحول الذي اتجهت إليه الحرب العالمية التي تلتها.

ومن الطريف أن تلاحظ أن فوش مع تحذيره لتلاميذه من «عامل المفاجأة» الذي لا بد وأن يعمل العدو لاستخدامه، لم يتطور هو بدوره لاستخدام مبدأ «المفاجأة الهجومية»، في صورة مماثلة، وإن كان قد ذكره كمبدأ أو أصل رئيسي له أثره الكبير في نجاح المعركة، وفي الفصول الثلاثة الأخير من كتاب «المباديء» انعكست كل نظرية فوش عن «المعركة» في الحاجة إلى العمل الهجومي.

فإذا ما عدنا إلى نظرية فوش عن المعركة، كان من الضروري أن نؤكد من البداية أنه لم يُشر – «بالعمل الهجومي» – بالهجوم في كل حالة، وسنرى فيما بعد إلى أي مدى كان دوره في نشر العقيدة الهجومية في فرنسا تبعاً للأدلة المنطقية التي تؤكد هذا، لقد كانت فكرته عن الهجوم في تعاليمه وبالتبعية في تجاربه العملية فكرة جيدة، وقد كتب: «إن الصورة الهجومية وحدها – سواء استخدمت من البداية أم بعد القيام بالتنظيم الدفاعي – يمكن أن تؤدي إلى نتائج جيدة، ولهذا فمن الضروري العمل على القيام بالهجوم على الأقل عندما تقترب المعركة من نهايتها»(١)، «ومن الناحية التكتيكية فإن العمل الهجومي هو القاعدة السائدة في الحرب»(٢)، ومن الناحية المعنوية،

(١) المرجع نفسه ص ٢٨٣.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٤.

يجب أن توجه الجهود كلها إلى التخطيط للهجوم وذلك ليمكن أن يتم هذا الهجوم في أفضل الظروف المناسبة، ولهذا كانت كلمات «المعركة: الهجوم الحاسم» عنوان الفصل الذي أكد فيه فوش قيمة العمل الهجومي كهدف أساسي نهائي للمناورة(*).

وقد ظن فوش أن المعركة يمكن أن تتخذ في ضوء الظروف والأحوال الحديثة إحدى الصورتين المُحددتين:

صورة «معركة المناورة»؛ الصورة التي يمكن فيها بجهد متكامل لهجوم حاسم إدراك وتحقيق المفاجأة والنصر.

والصورة الثانية، صورة «معركة المتوازيات»(**) أو معركة الخطوط، والتي تشتبك فيها كل المواقع على طول جبهتي القتال ويتوقع القائد العام توافر الظروف والتوجيهات الحسنة التي تمكنه من معرفة المكان والوقت الذي يجب أن يبدأ عنده العمل، فإذا ما ترك القائد العام تقدير «الوقت والمكان» لقادته التابعين تركه هؤلاء بدورهم إلى مرءوسيهم، وهكذا نصل في النهاية إلى معركة يكسبها الأفراد، أي إلى معركة «مجهولة المؤلف!» لا

(*) المناورة Manœuvre، هي: التحركات والتنقل في ميدان المعركة كما تشمل هذه التحركات إلى الميدان أو منه، وتكون هذه التحركات على محور جبهة القتال، وقد تجئ عمودية على المحور أو مائلة بالنسبة إليه أو بالجنب، وهذه التحركات هي التي تمكن من مفاجأة العدو، يقول فردريك الأكبر في حديثه عنها: "عندما تستند عملياتك الهجومية إلى قوة المناورة، فإن هذا الهجوم لن يُكلفك عدداً كبيراً من الضحايا، والجندي الذي تقوده بمثل هذه المهارة يثق بك ويعرض نفسه لكل الأخطار مسروراً". (راجع أصول الاستراتيچية لتوماس فيليبس – كتاب "فن الحرب" لصن تزو و "آرائي في فن الحرب" للماريشال ساكس) (المترجم).

(**) هذه غير معركة المتوازيات التي تحدث عنها ڤوبان – راجع الكتاب الأول الفصل الثاني.

يعرف على التحقيق من هو صاحب الحق في أن ينسب إليه هذا الكسب[١].

ولا شك أن هذا يُقدم لنا «نبوة مبكرة» عن طبيعة الحرب العالمية الأولى العديمة الحركة، وقد يمكن أن نُقدم فيما يلي وصفاً أكمل للمعركة التي لا يعرف على التحقيق من هو صاحب الحق فيها:

«وتشترك الوحدات في القتال حيثما وجهت، ثم يصلها كل ما ومن تحتاجه من معاونة سواء من النيران أو الأفراد أو العتاد، وكما تستخدم الوحدات فرادى في أقسام تبعاً لتطور مراحل القتال فإنها تستعوض أيضاً في نفس الصورة، وتجيء وحدات جديدة تعمل مكان الوحدات القديمة. إن مثل هذه المعركة تتكون من سلسلة متتابعة من الجهود التي تستمر إلى أن تتأكد النتائج بسبب النجاح الذي يجيء دون توقع، ويكون هذا النجاح نتيجة جهد وحدةٍ ما، أو نتيجة لعمل أيٍ من القادة التابعين، دون أن يعرف على التحقيق من هو صاحب الحق في هذا النجاح».

وكانت هذه الصورة هي طابع معارك «ڤردون» و «السوم» و«باشنديل»، ولكن فوش أغفل هذه الصورة على أساس أنها أقل قيمة وأهمية، ولأنها لا تستند إلى عمل القائد العام وإلى قدرته على القيام بالمناورة، ولا يمكن القول بأن هذه الصورة – الأقل قيمة – تفرض نفسها فرضاً على القائد غير الراغب فيها، وقد وضع فوش في الفصل الأخير من كتابه «المباديء» – الفصل الذي تنبأ فيه بشكل المعارك التي ستجيء في المستقبل – كل إيمانه في «المناورة» على أساس أنها أقوى صور الحرب[٢].

---

(١) نفس المرجع ص ٢٩٦.

(٢) يعترف فوش في هذا الفصل بالدين الذي في عنقه لآردان دوبيك وكاردو وميليه Millet وبونال Bonnal.

ولقد كثر القول بأنه لم تتوافر لفوش حتى ولا فكرة باهتة عما ستسببه الأسلحة الحديثة لتوها من أثر في ميدان المعركة، ***والواقع*** أن هذا الحديث لا يُعتبر صحيحاً في جملته، وإذا كان من الممكن أن يتضح لنا من مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «المباديء» من أنه لم ينطبع في ذهنه بعد حملة منشورياً التأثير الكبير لنيران «مدافع الماكينة» و «الأسلاك الشائكة»، إلا أنه في الحقيقة قد أوضح – على الأقل – تقديراً مبكراً لكل هذه الأسلحة يُعتبر أكبر نسبياً مما وضحه كل معاصريه من العسكريين الفرنسيين.

ولقد أدرك فوش أن الأحوال الحديثة ستضطره إلى القيام ببعض صور التعديل والتبسيط، وكتب عن هذا: «لقد توافر للأسلحة المدى الأكبر وأضحت نيرانها أقل، وسترغم القوات تبعاً لهذا على أن تبدأ تشكيلها للهجوم من مسافة أكبر من ذي قبل، وأن تفعل هذا وراء سواتر أصلح وأقوى مما كانت تستخدم فيما مضى»[(١)].

ويمكن أن نصل من الصورة التي وجهت على أساسها العمليات في الجانب الفرنسي لسنة ١٩١٤ إلى أن فوش لم يقدر في تاريخ مبكر الصورة الخاصة بحرب الخنادق، ومع هذا فإنه أكد بإصرار – بعد صفحات من حديثه الأول – هذه القوة المتزايدة للأسلحة النارية: «تزداد درجة الحاجة إلى الساتر يوماً بعد يوم»، ولهذا يجب أن تستخدم المشاة «التحركات على الأجناب وأن تفعل هذا لأطول وقت ممكن»[(٢)].

وقد أدى التطور في فن استخدام المدفعية إلى تقدير الدور الهام لنيرانها في إجراءات الهجوم، وفي أثناء هذه الإجراءات يجب أن تعمل الوحدات

(١) Principles, P. ٣٢٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٣٥.

الأمامية على «الأمن»، أي على سرية التخطيط للهجوم الحاسم، وهي تفعل هذا بإجراء ذي شعبتين: الحصول على المعلومات عن العدو، وحماية ووقاية القوات التي تُعد للقيام بالهجوم.

وقد تحتاج الوحدات الأمامية لتنفيذ هذا إلى القيام بالقتال في صورة ما، وفي هذه الحال يكون للمدفعية أثرها بسبب مراميها الطويلة وبسبب خفة حركتها ووسائلها التي تمكن من تحقيق المفاجأة، وتكون تكتيكات المشاة في هذه العمليات: «فتح طريق المشاة على طول الجبهة مما يمكنها من القيام بأعمال حاسمة، وتعاونها المدفعية في هذا الهجوم وفي هذه الأعمال الحاسمة»[١].

ومن العدالة أن نشير في تحليلنا للدور الذي فرضه فوش للمشاة، بأنه بالإضافة إلى ما أشار به «للساتر الجيد»، أكد أيضاً أهمية «النيران» في قوله: «لقد أضحت النيران صورة من صور الجدل أو النقاش الحاسم»[٢].

وقد حذر فوش الجنود من أنهم سيتعرضون لخسائر فادحة، «إذا لم يعاون هجومهم الجزئي بنيران هجومية»، كما صرح مؤكداً أن «الأفضلية في النيران» ستكون العامل الحاسم الأساسي الذي يستند إليه تأثير القوات المقاتلة.

ومع هذا، فللمرة الثانية هنا نجد أن فوش لم يدرك القيمة الحقيقية التي ستمكن منها هذه الأفضلية في النيران إذا كان على المشاة أن تتغلب على النيران القاتلة التي لأسلحة المدافعين الآلية، فمن الضروري أن تتقدم المشاة

(١) نفس المرجع ص ٣٣٥.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٣٧.

في المرحلة الأولية إلى مسافة من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ ياردة من مواقع العدو مستخدمة ما يتوفر لها من سواتر ومن خطوط اقتراب جانبية، وعلى أن تتخذ التشكيلات التي تسمح لها بأصلح صور الاستخدام لهذه السواتر، فإذا ما جاءت لحظة التنفيذ أو لحظة الهجوم الحاسم وجب أن يمكن التشكيل من الاستخدام الجيد لوسيلتي العمل ألا وهما:

«قوة النيران»، و «قوة الضرب».

وهنا نجد فوش يتابع حديثه عن النيران وتأثيرها القوي وعن العوامل التي تصحبها فيقول:

«لقد باتت النيران التي يستطيع المرء أن يمد بها نفسه أمراً ثانوياً»، أو بمعنى آخر «إن النيران التي يُطلقها الجنود أنفسهم هي في المرتبة الثانية بالنسبة للنيران المعاونة التي تجئ بها الأسلحة المعاونة»، ولما كانت المشاة تتشكل في خطين ثانيهما هو الخط الأقوى، وكان من الضروري أن «تسير وأن تسير بسرعة مسبوقة بسيل منهمر من الرصاصات» فإن أقوى النيران لا تستطيع وحدها أن تضمن القرار الحاسم.

ويُتابع فوش حديثه:

«ويسير الجنود متجهين صوب الغرض، كلٌ يهدف إلى جزء الغرض المُحدد له، ويزيدون من سرعتهم كلما اقتربوا من هذا الغرض، وهم في سيرهم هذا يسبقهم سيل من الرصاصات بل ويستخدمون «سونكياتهم» أيضاً للإطباق بالعدو، ويعمل الجنود ليكون لهم سبق اقتحام مواقع العدو ويلقون بأنفسهم وسط قواته ليُنهوا الصراع التنافسي بواسطة الصلب البارد والشجاعة الأكبر والإرادة الأقوى وتسهم المدفعية في إدراك هذه النتيجة

بكل قوتها تابعة المشاة في تقدمها مع تزويدها بالمعاونة ومع سترها لعملية الهجوم»[١].

وقد ساق چول رومان[*] في روايته «ڤردان» هذه الفقرة على لسان أحد جنود المشاة كتعليق ملئ بالمرارة والأسى نتيجة التجارب التي وصل إليها من حقائق المعركة الحديثة، وعلى ما لمسه الجنود من مظاهر انصراف قادتهم إلى البحث النظري في صورة مليئة بالزخرف[٢]، وفي الجملة فإن هذه الفقرة لهي الدليل القوي - برغم إشارة فوش المتكررة إلى الحاجة لترتيبات المدفعية – على تقليل فوش لقيمة دور الأسلحة الحديثة على التخصيص والدور الذي للعوامل المادية على التعميم، ومع هذا فقد بقي الاقتحام

(١) المرجع نفسه ص ٣٤٤.

(*) چول رومان مؤلف فرنسي اسمه الحقيقي لويز فاريجولي ولد سنة ١٨٨٥، تخرج من كلية المعلمين العليا ودرس الفلسفة، كتب في سنة ١٩٠٨ مُجلداً من القصيد نال به شهرة في الأدب، ولكن أهم أعماله الأدبية كتابه «الرجال ذوو الإرادة القوية» وصدر في سبعة وعشرين مُجلداً نشرت بين سنة ١٩٣٢ و ١٩٤١، وهاجر إلى أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية ونشر بها سنة ١٩٤٢ كتاباً في التأريخ لحياة الكاتب الألماني ستيفان زڤيچ.

(٢) «إن كلمتي الصلب البارد تجملان فصلاً كاملاً من الحديث عن الغباء الذي كان طابع العصر الذي سبق الحرب مع ما صحب هذا من حب للكلمات الضخمة ومع النقص في التصور والأمانة الثقافية بل ومع رفض مواجهة الحقائق، وكان هذا هو الطابع العادي للموظفين العموميين من كل درجة ومرتبة» (ج. رومان ڤردون – طبع نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٦٧)، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الحديث لم يكن عادلاً بالنسبة لوصف الجانب الإيجابي الدال على كفاية عمل هيئة أركان الحرب الفرنسية قبل سنة ١٩١٤، بل وكان في الواقع يعكس الشعور الذي انتشر في الجيش الفرنسي أثناء الحرب، وليس هذا فقط في صفوف الجنود بل وفي جزء كبير من الضباط أيضاً، ولكن بالرغم من هذا فإن الجيش – فيما عدا الفترة التي تولى فيها نيڤل الأمر سنة ١٩١٧ – لم يفقد الثقة بقادته إطلاقاً.

النهائي للمشاة هو العامل الحاسم طوال الحرب العالمية الأولى.

وقد انتقد فوش في محاضراته الأولية في مدرسة الحرب، النظريات الآلية التي انتشرت في فرنسا قبل سنة ١٨٧٠، والتي كان الناس على أساسها يظنون أن النصر يتوقف على الاتجاه الواضح للعوامل المادية نظراً لتساوي وتعادل العوامل المعنوية في الجانبين المتضادين؛ ومن هنا جاء اهتمام فوش بالعامل المعنوي في الحرب، وبالتبعية جاءت نظرته – ولو جزئياً – إلى الحاجة للوصول إلى الأفضلية المادية، ولكن لم تظهر شخصية فوش القوية كما أنه لم يضع دُعامة المكانة التي وصلت إليها دراساته إلا على أساس بحوثه عن «العوامل المادية».

وقد تأثر فوش بسبب تدينه وتعمقه في "الكثلكة" ما في هذا من شك بفلسفة چوزيـف دوميستر(*) المخيفة عن الحرب، فقد اعتبر دوميستر الحرب شيئاً مُقدساً، ورأى أن الحرب قد جاءت في القانون السماوي لتطهر الإنسان من خطاياه وأنها وسيلة للتكفير والاستغفار عن هذه الخطايا.

وفي الديالوج الشهير لمسرحية «أمسيات بطرسبرج»، يعرض أحد المشتركين في النقاش «الديالوج» إلى أهمية هذه العوامل التي تقرر النصر أو الهزيمة حتى بالنسبة للجنود المحترفين، وقد أجاب قائد مضطرب التفكير لأول وهلة على سؤال: «ما هي المعركة المفقودة؟» بقوله: «لا أدري»، ولكن

(*) چوزريف دوميستر:

سياسي وكاتب وفيلسوف فرنسي ولد سنة ١٧٥٣ ومات في تورينو سنة ١٨٢١، تخرج من مدرسة الآباء اليسوعيين، كان من خصوم الثورة الفرنسية ودافع عن سلطان البابا والملك، له عدة مؤلفات منها: «أمسيات بطرسبرج» الذي نشر غداة وفاته سنة ١٨٢١، وله دراسة عن فلسفة بيكون، وقد نشر قبيل وفاته كتابيه «البابا» Du pope و«الكنيسة الفرنسية – الجليكنية» De I’Eglise Gallicane

بعد وقت قصير أجاب قائد آخر: «إنها المعركة التي يظن المرء أنه فقدها لأن المعركة لا تُفقد من الناحية البدنية الملموسة». ويقول فوش في نقاشه: «إن المعركة لا تُفقد إلا معنويًا، ومعنوياً أيضاً يمكن أن نكسب المعركة، ولهذا فإننا نستطيع أن نزيد مدى قاعدة هذه الحكمة بقولنا إن المعركة التي يكسبها المرء هي المعركة التي يعترف فيها لنفسه بأنه لم ينهزم»(١).

وكان للمعادلة التي قدمها فوش في قوله: «النصر يُعادل الإرادة» نصيبها من الشهرة والتقدير؛ وكانت هي في الواقع الإيضاح للجانب الروحي في خلق فوش، وقد يمكن بعد إيضاح هذا الجانب السببي أن نكمل هذا التحليل الموجز لعقيدته بتقديم صورته كرجل يؤمن بعقيدته إيماناً له قدسيته.

لقد كان مزج السبب بالإرادة وربط الثقافة الذهنية بالإيمان هو مظهر عبقريته كقائد لعدة جيوش، ولم يصل أي قائد لم تتوافر له هذه الصفات إلى المرتبة العليا، ولكن الذي جعل فوش أعظم رجال عصره قدرته على أن ينقل إيمانه القوي ونشاطه الجارف إلى تلاميذه أولاً ثم إلى باقي أفراد الجيوش التي يقودها، وأن يجعل هؤلاء كلهم يؤمنون بما جاء في تعاليمه من أن:

«الحرب = ميدان القوى المعنوية».

«النصر = الأفضلية المعنوية للمنتصر والانهيار المعنوي للمنهزمين».

«المعركة = صراع بين إرادتين».

«إن الرغبة في قهر العدو هي الشرط الأول للحصول على النصر، ولهذا

---

(١) Principles P. ٢٨٦

فهي الواجب الأول لكل جندي، ولكنها تسمو وترتفع إلى ما هو أكبر من ذلك فهي المثل القوي الذي يجب أن يقدمه القائد للجندي إذا ما قضت الحاجة بأن يقاسم القائد هذا الجندي روحه ومعنوياته»(١).

وفي مثل هذا العصر المادي عندما تبهر الأنظار بالتقدم الفني والصناعي كان على فوش أن يفعل ما فعله آردان دوبيك قبله من تأكيد أهمية العامل المعنوي في الحرب، وبذلك فقد ذكرمستمعيه بأنه مهما كان مدى التغيير وأثره عظيماً في حياتنا تبعاً لزيادة التقدم الفني، فإنه لا يمكن لهذا التغيير أن يعدل أو أن يبسط من قوانين القلب البشري، وفي الحرب كما في مرحلة أخرى من الأوضاع الاجتماعية يظل «الرجل» المخلوق البشري هو العامل الأول والأخير، وكما لاحظنا من قبل، فإن هذه الحقيقة البسيطة هي التي تقودنا إلى السخف الدامي ما لم توضع الأمور في وضعها الصحيح، وقد اعترف فوش فيما بعد بأنه قد آمن من بداية الحرب العالمية الأولى بأن العوامل المعنوية وحدها هي التي تحسب حسابها، وكانت هذه فكرة مليئة بالطفولة؛ لقد كانت هذه الكلمات مليئة بالشجاعة مليئة بالحساسية، وما دام هناك إصرار على فكرة أقل طفولة فإن الحرب يمكن أن تكسب بالأفضلية المادية وحدها.

وكان لهذا الدرس – الذي وصل إليه فوش – أهميته، بل ومازالت، كما أنه يجب أن يكون تحذيراً وإنذاراً للعسكريين.

وقد يكون من الممكن ربط فكرة «أن القوة المعنوية تستطيع أن توجه الحوادث بدلاً من أن تخضع لها» بفكرته عن «انتصار العقل على العمل،

(١) المرجع نفسه ص ٢٨٧.

وسيطرة المنطق والإرادة على كل ما تسببه المعركة من اضطراب، كما نستطيع أيضاً أن نصل عن طريق نظريته عن «القوة الروحية» إلى آرائه في القادة والقيادة».

ويتوافر في حديث فوش عن المعركة «وأنها تكسب أو تُفقد بوساطة القادة لا بوساطة الجنود»[(١)] نوعاً من الفخر الذهني، ولكننا يجب أن نقدر في الوقت نفسه مسألة تقبل المسئولية، فإن «النتائج الكبيرة في الحرب إنما ترجع إلى القادة، ولهذا فقد صدق التاريخ عندما جعل القادة مسئولين عن النصر الذي يجيئهم بالمجد، كما أنهم يحتملون مسئولية الفشل الذي ينالهم الامتهان بسببه، وبغير القائد لا سبيل إلى خوض غمار المعركة وبالتبعية لا سبيل إلى النصر»[(٢)].

وكان هذا الرأي هو الخاتمة التي أمكن الوصول إليها من التعاليم التي أوحى بها قرار إعادة تنظيم القيادة العليا الفرنسية في سنة ١٨٧٠، وكان جمود وتزمت الحوادث بعد ذلك هو الذي أدى بفوش إلى وضع يبدو فيه ضعفه المعنوي والعقلي.

ولكن هل عندما جاءت حرب سنة ١٩١٤ طبق فوش هذه المبادئ التي بشر بها، أو أنه قد أغفلها؟

والواقع أن المؤرخين قد أثاروا نقاشاً جدلياً طويلاً دار حول: «هل الانتصارات التي وصل إليها فوش كانت بسبب مبادئه أو بالرغم منها»[(٣)]،

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٨.

(٢) نفس المرجع ص ٢٨٨.

(٣) يُقال إن فوش قال لأركان حربه بعد جمود جبهة القتال في سنة ١٩١٤: «أيها السادة، لقد أمسى من الضروري أن تنسوا كل ما تعلمتموه، أما أنا فعلي أن أفعل نقيض كل ما=

ولا شك أن أثر الدروس التي ألقاها فوش في مدرسة الحرب قد بدا واضحاً في الخطة الفرنسية للعمليات والتي اتجهت إلى الهجوم في سنة ١٩١٣، وكان الكولونيل «جراند ميسون» الذي تولى قيادة الجيش التركي الحديث في وقت ما، وأحد الذين نجحوا في تقبل الحكومة الفرنسية لهذه الخطة الهجومية من طلبة فوش، ولكن فوش لم يقم بنصيب مباشر في هذا التخطيط للحرب، ولكن قد يمكن القول بأن عقيدته بالنسبة لمبدأ «الأمن» لم توضع موضع التقدير الكافي قبل بدء الحرب مباشرة»[١].

وعلى أية حال فإن خطة الحرب كما وضعت قد انتهت إلى المذابح التي حدثت في «مورهانج» و «أرلون» و «شارلروا»؛ وقد أفسح إيمان فوش «بحرب المناورة» السبيل للصورة الجديدة «صورة حرب الخنادق»، فعند ما أرسل للشمال بعد معركة المارن لينسق العمل بين الجيوش الفرنسية والإنجليزية والبلچيكية قال لتارديو:

«لقد أرسلوني إلى هنا متأخرين لأقوم بالمناورة، ولكن الأحوال لا تبشر بالضوء، فإن هذا الامتداد الذي لا نهاية لخط الخنادق يؤثر في أعصابي»[٢]، وهكذا فإن معركة المناورة والتي آمن بأنها أعظم صور الحرب كانت تفسح

=علمته لكم»، آستون في كتابه «تاريخ حياة الماريشال فوش» طبع لندن سنة ١٩٣٩ ص ٨٣؛ وقد كتب ليدل هارت في كتابه «فوش رجل أورليانز» ص ٤٨٢، أن «العامل المعطل بالنسبة لفوش كان أنه من الضروري أن ينسى الكثير قبل أن يبدأ تعلمه من جديد»، ويصر لويز مادلين مع هذا على أن فوش كان يُطبق مبادئه على الأقل لتسع من كل عشر مرات بدلاً من أن ينفض يديه منها» – راجع كتاب «فوش» طبع باريس سنة ١٩٢٩ ص ٢٤.

(١) ليدل هارت. نفس المرجع ص ٦٨.

(٢) Tardieu, Avec Foch (Paris, ١٩٣٩) P. ١٠٧.

الطريق لمعركة الخطوط.

ولكن مهما كانت الحرب قد غيرت من مبادئ فوش الأولية، فإن نسيجه المعنوي هو الذي احتمل هذا المد والجزر، وليس قوة ابتكاره العقلية هي التي احتملت هذا.

وقد ترك لنا «بيرفو» صورة لا يمكن أن تضيع من الذاكرة، صورة فوش في المعركة «وهو يندفع كالعاصفة يلج باب كل مركز من مراكز الرياسة وقد جمد وجهه وتيبس جسمه ويلقى قائدًا قد تملكه الفزع، ويقول القائد: «إن جنودي يواجهون ضغطًا كبيرًا من قوات تفوقهم عددًا، وما لم تصلني إمدادات فإنني لا أستطيع القيام بعمل إيجابي»، ويقول فوش في غضب وعنف: "اهجم. اهجم. اهجم" ثم يندفع فوش إلى الخارج كبطارية كهربية مليئة بالنشاط وقد تملكه شعور لا واع ليحاول من جديد في مكان آخر إشعال جهد يكاد أن يخبو، وليقوي عزيمة تكاد أن تنهار»(١).

ولقد لخص فوش دوره في معركة المارن في هذه الكلمات: «لقد هزمت في اليوم الأول، وفي اليوم الأخير كانت المسألة مسألة الصمود للقتال، لقد تقدمت ستة كيلومترات ولكني لا أعرف لماذا حدث هذا، إنه يرجع إلى حد بعيد للجنود أنفسهم، ويرجع القليل فقط إلى أنني كنت مليئًا بالعزيمة لأن أفعل هذا، ثم إن الله كان هناك»(٢).

وكانت الأقدار نفسها تؤكد إصراره السابق على الأهمية الكبرى التي للقيادة بأن جعله القائد الأعلى لقوات الحلفاء، وفي دولنز(*) في السادس

(١) Pierrefeu, Plutarque a menti p. ٣٠٨.

(٢) تارديو نفس المرجع ص ٣٢.

(*) دولنز – مدينة فرنسية في ولاية السوم شمال اميان بها كنيسة من القرن السادس عشر.

والعشرين من مارس عندما كان الجيش الإنجليزي الخامس ينثني تحت وقع ضربات لودندورف، وكان هيج وبيتان يفكران في اضطرارهما للتقهقر أنقذت صلابة فوش الموقف، «والرأي السليم أنه عندما يبدأ العدو محاولته لفتح ثغرة لا ينبغي أن تزيد في سعتها، بل يجب أن تسدها أو أن تحاول سدها، وكل ما تحتاجه هو أن تحاول وأن تتوافر لك الرغبة وسيكون كل شيء بعد هذا سهلًا ميسورًا».

وعندما اجتمع مجلس القيادة الأعلى للحلفاء صاح فيهم فوش: «إنكم تقاتلون، ولكني أريد أن أقاتل، سأقاتل أمام اميان، ووراء اميان، سأقاتل في كل وقت وكل مكان».

وقد يبدو التفاؤل للناس سهلًا ميسورًا وعلى الأخص عندما يصل إلى حد التهوس والاستهتار، وعندما يساق كعذر للتعطل عن العمل، على أن هذا التفاؤل يكون نادرًا غالي الثمن في غمرة الخوف من النكبة المتوقعة وتحت إجهاد المسئولية. إن أولئك الذين مروا بمثل هذه اللحظات الحرجة هم وحدهم الذين يدركون القيمة التي للتفاؤل، وهكذا كان فوش عندما اقترب هذا الإيمان الفريد النادر الذي توافر له من أن يتبدد ويضيع، وكان للتفاؤل قيمته بالنسبة إليه عندما وكل إليه تنظيم وتنسيق عمل جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية.

لقد كان عمله في البداية ذا طابع سياسي ثم لم يلبث أن حصل على سلطات بدأت تتزايد تدريجيا، لقد رويت قصة أعمال وظيفته هذه وما احتوته من مخاطر، رويت أكثر من مرة ولكنها لم تصل إلى مرتبة القيادة المنظمة، وكان فوش في السنوات الأخيرة يفخر بالصورة التي استخدم فيها الإقناع السياسي أكثر مما استخدم السلطة العسكرية.

لقد كانت كل العمليات في الجبهة الغربية من مارس سنة ١٩١٨ حتى نهاية الحرب تحت إشراف فوش وتوجيهه، وكانت استراتيچيته في البداية بسيطة لا تزيد عن كلمة واحدة هي «الثبات»، وقد تمسكت الجيوش بالأرض التي تحتلها بعد أن قضت أسبوعًا واحدًا في تقهقر واضطراب، ولكنها لم تلبث أن استعادت تنظيمها، وعرف فوش أنه عندما يجيء الأمريكان إلى الغرب فإن كل ما يجب عليه هو أن يثبت إلى غاية ما يستطيع وسيمكنه هذا من استعادة قوة الهجوم، ولكن الأمريكان لم يصلوا، وفي أثناء هذا وجه الألمان ضربة أخرى في قطاع «شمين دي دام» في السابع والعشرين من مايو، فقد فوجئ الجيش الفرنسي تمامًا وفتحت ثغرة واسعة في خطوط الفرنسيين، ولأول مرة منذ سنة ١٩١٤، استطاعت الجيوش الألمانية أن تسير بسرعة عشرة أميال في اليوم الواحد، وفي الثلاثين من مايو وصل الألمان إلى المارن، ولكن إذا كان الجيش الفرنسي قد فوجئ مرة فما ينبغي أن يفاجأ مرة ثانية، ولهذا عندما وجه الألمان ضربتهم الثالثة في الخامس عشر من يوليو كان فوش ينتظرها، وقد أعد لمواجهتها كل ما توافر له من قوات احتياطية وبعد ثلاثة أيام وجه هجومه المضاد الأول، وهنا لأول مرة منذ بداية الحرب عاون الابتكار التكتيكي على نجاح كلتا مرحلتي المعركة؛ ففي المرحلة الدفاعية تركت «المناورة» التي فقدها جيش الجنرال جورو فراغًا بين خط الدفاع الأمامي الرقيق وبين خط المقاومة الأساسية، واستطاع الألمان أن يندفعوا في هذا الفراغ دون معاونة المدفعية، وكان من الضروري القيام «بتقهقر استراتيچي» بسبب هجوم العدو المتوقع.

على أن الأمر قد تطلب شهورًا عدة استطاع فوش أن يتفهم تأثير أي انثناء في الخط على الحاجة للتشبث بكل بوصة من الأرض، وكانت هذه الطريقة الدفاعية على بساطتها هي الظاهرة الأساسية للتنظيم الدفاعي للجيش الفرنسي

سنة ١٩٤٠ .

وكانت الطريقة التي استخدمها فوش في الهجوم كبيرة القيمة بسبب ما توافر فيها من جرأة، فقد كانت «ترتيبات المدفعية» النيران التي تطلقها المدفعية لمعاونة المشاة ضرورية في كل مراحل الحرب، وكانت هذه النيران هي التي تشق الطريق للمشاة وسط مواقع المدافعين ونيرانهم القاتلة، ولكن هذه «الترتيبات» مع تمهيدها لهجوم المشاة تقلل إلى حد كبير من تأثير عامل المفاجأة، فلما أن قلل المشاة من فترة إطلاق هذه النيران التي تسبق عملية هجوم المشاة، واكتفوا بأن تطلق المدفعية نيرانها المساعدة لمدة عشرين دقيقة استطاعوا أن يستعيدوا عامل المفاجأة، وجاء فوش بجديد، فقد قرر ألا تطلق المدفعية طلقة واحدة حتى تخرج دبابات «ديجو»(*) و «مانجين»(**) من غابة «ڤيلير

(*) ديجو، جان ماري جوزيف (١٨٦٦ – ١٩٣٨) قائد فرنسي امتاز في الحرب العالمية الأولى وهو يقود الجيش الفرنسي السادس أثناء تقهقر الألمان من المارن الثانية في يوليو وأغسطس ١٩١٨، تخرج أصلاً من كلية المعلمين العليا وبدلاً من العمل في التدريس اتجه إلى سان سير، ودرس القانون واللغات، تولى قيادة قوات الاحتلال الفرنسية في أرض الرين من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٤، وكان عضو المجلس الأعلى للجيش الفرنسي حتى وفاته سنة ١٩٣٨ .

(**) مانجين، شارل ماري أمنويل (١٨٦٦ – ١٩٢٥) قائد فرنسي ولد في ساربورج وكان أبوه من قادة فرق المشاة، بدأ حياته كملازم في مشاة البحرية وخدم في السودان ١٨٩٣ – ١٨٩٩، وكان في فجر الحرب العالمية الأولى قائد الفرقة الخامسة ثم تولى قيادة الفيالق الحادي عشر والتاسع والسادس على التوالي، وفي سنة ١٩١٨ تولى قيادة الجيش الثاني عشر، واشترك في المارن الثانية قائداً للقوات الأمريكية – الفرنسية التي هاجمت الانبعاج الألماني لغرب سواسون قرب شاتوتييري، واخترق بجيشه خط هندنبرج بين الواز والآين في نوفمبر ١٩١٨ أي قبل الهدنة مباشرة، وله مؤلفات عسكرية عدة، منها «القوة السوداء» ١٩١٠، و «كيف انتهت الحرب» ١٩٢١، ثقم كتب الجزء الخاص بالتاريخ العسكري البحري ضمن مؤلف «تاريخ الأمة الفرنسية» الذي نشره سنة ١٩٢٥. (المترجم).

كوتيريه»[*] وتقع فجأة على الجنب الأيمن للألمان عند انبعاج المارن.

وكان فوش قد تنبأ بالهجوم الألماني وأعد عدته للقيام بالهجوم المضاد، وفي مذكرته المؤرخة بالسابع والعشرين من يوليو صرح بأن المد قد تحول: «لقد جاءت اللحظة لننفض أيدينا من الوضع الدفاعي الذي أرغمنا عليه حتى الآن بسبب النقص العددي في قواتنا، وقد أضحى من الضروري أن نتحول إلى الهجوم»[١].

وفي تعليقه على الدروس المستفادة من العمليات الأخيرة ذكر قادته بأن العامل «الأول والأهم هو المفاجأة، وقد أوضحت العمليات الأخيرة أن هذه الحال لازمة وضرورية للنجاح».

وفي الشهور الثلاثة التالية عمل فوش على ألا يعطي للألمان أية فرصة للراحة، كانت عمليات الهجوم تتتابع في كل مكان؛ ولكن الواقع أن فوش قد فعل هذا لأن كل الإمكانيات توافرت له، وتيسر له المدد المستمر من الرجال والعتاد؛ فهل نستطيع أن نقدر انتصاره النهائي في ضوء أسلوب خاص كان هو صاحبه، وفي ضوء إدارته لعملياته الحربية؟

لقد أوضح فوش في تعليقاته بعد هذا على «كيف مكنته الاستراتيچية العليا من الانتصار على لودندورف»، وقد قال معلقًا على العمليات

(*) ڤالير كوتيريه – من أعمال ولاية الآين بفرنسا، تقع على مسافة ٢٧ كيلومتراً جنوب غرب سواسون، بها قلعة بناها فرنسوا الأول وقد تعددت فيها المعارك طوال الحرب العالمية الأولى منذ التقهقر من مونز إلى المارن الثانية، وتشتهر المدينة بسبب أن دوماس الأب ولد بها.

مُعجم لاروس طبعة سنة ١٩٢٨ المجلد ٦ ص ٩٩٨.

(١) The Memoirs of Marshal Foch, (New – York) ١٩٣١, p. ٣٧٠.

الهجومية لسنة ١٩١٨: «لقد وضع لودندورف تخطيطه لعملياته الهجومية ـ وعلى الأخص من ناحية التفاصيل التكتيكية ـ بمهارة تستحق الإعجاب، كان تخطيطه دقيقًا، ولم يكن من المستطاع أن يوفق قائد إلى أحسن مما وفق إليه هو، ولكن لم تكن هناك خطة احتياطية لتخطيطه الأول»(١).

وهنا يسأل فوش:

«فلماذا لم يستطع ـ يقصد لودندورف ـ بعد كل من ضرباته القوية الوصول إلى نجاح حاسم برغم النتائج غير العادية التي حققها؟».

ويجيب فوش على سواله فيقول: «والإجابة الوحيدة على هذا السؤال، أن العنصر النهائي لا يتوقف على الكسب الذي يمكن إدراكه من معركة واحدة مهما كانت درجة هذا الكسب، إن كل عملية من عمليات الهجوم يجب أن ترتبط بعدد آخر من العمليات الهجومية، أي يجب أن تكون جزءًا من كل، لا أن تكون كلًا وحدها، ولقد كان هذا هو ما نسيه لودندورف»(٢).

وهكذا نصل إلى حديث فوش وهو يضع كل الأمر على قيمة التخطيط الجماعي للعمليات والذي أدى إلى الاستسلام الألماني، وكان كل ما يحتاجه الحلفاء هو القيام بسلسلة من عمليات الهجوم «منتظمة متداخلة معًا لتحتضن الجبهة كلها»(٣) أو على ما يقول بالفرنسية:

وقد كرر فوش اصطلاح «متداخلة معًا» في مناقشاته مع ريكولي(*)، بل

(١) Recouly, op. cit., p. ٩٦.

(٢) نفس المرجع ص ٩٨.

(٣) نفس المرجع ص ٩٥.

(*) ريكولي. ريمون مؤلف عسكري أهم مؤلفاته: =

ويبدو هذا الاصطلاح وكأنه الصورة الأساسية في استراتيچية فوش للهجوم سنة ١٩١٨ ، وقبل الحرب العالمية الأولى كان فوش يصف استراتيچية الهجوم على أنها أشبه ما تكون «بسير الببغاء»، أي أنها تتبع نفس الأسلوب الذي تتسلق به الببغاء قضبان القفص مستخدمة على التوالي «منقارها وأظافرها»، وعلى أن تقبض قبضًا جيدًا باثنتين من هذه الثلاث قبل أن تخطو الخطوة التالية والتي تعتبر دائمًا مليئة بالمخاطرة، وكانت كلمات فوش في هذا الحديث من الجمل الاستعارية التي يحذف منها ما هو معلوم أصلًا، وقد ختم بها فوش مرة أحد مؤتمراته قائلًا:

«سادتي إن الببغاء طائر ماجد رفيع الشأن».

ويتفق رأيه في هذا مع المبدأ «الاقتصاد في القوى» أي «فن حشد كل قوى المرء لتعمل ضد المقاومة التي يمكن أن يلقاها في طريقه، وبذلك فإنه يعتبرتنظيمًا لهذه القوى بطريقة ما»[1]، ولكن هذا كان صرخة بعيدة عن «المعركة: الهجوم الحاسم».

ويوجد تناقض آخر بين نظرية فوش وبين إجراءاته العملية وقد وضح

Le Tsar et la Douma (١٩٠٦).=

Dix mois de guerre en Angleterre (١٩٠٩).

La Bataille dans la forêt d’Argonne (١٩١٦).

Foch le Vainqueur (١٩١٩).

La Bataille de Foch (١٩٢٠).

La Barrière du Rhin (١٩٢٣).

La Troisième République (١٩٢٧).

Itinéraires du Rhin (١٩٢٣).

L’Aurore de Napoleon Bonaparte à Toulon (١٩٢٩).

(١) «المبادئ». ص ٥١.

هذا في ترتيباته للهدنة، وإذا كان من غير الممكن تحقيق النصر إلا بالعمل الحاسم بتدمير جيوش العدو، فهل لا يعتبر خطأ إتمام الهدنة قبل توجيه الضربة القاضية، في حين أن جيوش العدو كانت لا تزال في أرض الحلفاء؟

لقد أجاب فوش على هذا وغيره من الأسئلة التي يمكن أن نثيرها اليوم، أجاب عنها قبل أن نفكر فيها، فقد قال لمجلس الحلفاء الأعلى في أوائل أيام نوفمبر سنة ١٩١٨:

«إن الحرب قتال لإدراك نتائج محددة، ولست أخوض غمار الحرب من أجل خوض الحرب في حد ذاتها، وإذا كان من الممكن أن أحقق عن طريق الهدنة كل ما أريد أن أفرضه على ألمانيا فإن هذا يكفيني، وإذا كان من الممكن تحقيق الهدف، فليس من حق أي فرد أن يتسبب في سفك قطرة أخرى من الدماء»[١].

ولقد توافرت الأسباب ليؤمن فوش بأن نصره كامل، وكان كاملًا حقًا إلى غاية ما يعنيه الأمر في ميدان القتال، كانت ألمانيا قد وصلت إلى النهاية، وإن لم تكن كذلك عندما بدأ المندوبون يتجمعون حول منضدة مؤتمر الصلح، ومع أن المندوبين الألمان لم يحضروا إعداد معاهدة الصلح فإن مبادئ برنامج ويلسون التي قبلها الحلفاء أنفسهم قد حررت كل ما يمكن للحلفاء أن يطلبوه تحديدًا لم يتصوره فوش وهو يعد شروط الهدنة، كان دوره قد انتهى ولم يعد له من مكان في المباراة القائمة، وعندما حاول التدخل أعاده كليمانصو إلى مكانه الصحيح غاضبًا أشد الغضب لمحاولة (جندي) اقتحام الميدان الذي لا يخصه؛ ميدان السياسة!.

(١) Memoirs of Marshal Foch p. ٤٦٣. Seymour, The Intimate Papers of Colonel House, (New York ١٩٢٨) IV p. ٩١.

على أن فوش في غمرة اقتناعه بواجبه الوطني أصر على أن يسمع صوته وقد أوضح سياسته في مذكراته العديدة التي قدمها، وخطبه التي ألقاها في المجلس الأعلى للحلفاء بين توقيع الهدنة وتوقيع معاهدة الصلح، ومع أن هذه كلها معروفة ومروية إلا أن من الضروري الإشارة إليها هنا حتى تكمل صورة نظريته للأمن العسكري[١].

كانت الفكرة بسيطة واضحة، فقد جادل على أساس أن الأمن الأوروبي لا يمكن ضمانه لا بواسطة نزع سلاح ألمانيا الأمر الذي لا يمكن إرغامها عليه باستمرار، ولا بواسطة المحالفات التي تعتبر صورية لا قيمة مادية لها، إن الضمان المادي هو وحده الذي يعتبر كافيا مرضيا، وهذا الضمان المادي هو: احتلال رءوس كباري على الرين «فإن النهر هو العامل الحاسم، والذي لا يسيطر على الرين هو الذي يحتمل الخسارة»[٢].

لقد كان لهذا الحل عدة فوائد، فإن احتلال بعض نقط مختارة يكون أكثر اقتصادًا ذلك لأن هذا الاحتلال سيكون بواسطة وحدات صغيرة العدد من الجنود، ولما كان فوش قد اقترح أن تشكل هذه الوحدات من قوات دولية فإنه لا يرى في هذا ما يخشاه حلفاء فرنسا من محاولتها تحقيق سيادتها على أوروبا.

ويبدو أن فوش قد قصد أن يكون هذا الاحتلال دائمًا، وأن يدعمه بإيجاد ولاية مستقلة على الضفة اليسرى لنهر الرين، فلما رفضت خطته وضاعت مع الزمن هذه الضمانات التي منحتها فرنسا من حليفاتها، لم يفشل فوش في اتهام السياسيين وفي مقدمتهم كليمانصو بأنهم قد تسببوا في تحطيم النصر

(١) «ريكولي» المرجع نفسه ص ١٦٥ – ٢٤٩.
(٢) المرجع نفسه ص ٢١٣.

العسكري الذي حصل عليه هو، وكان من الطبيعي أنه قد رأى بالاتفاق مع كل مواطنيه أن المواد التي وضعت لضمان أمن فرنسا غير كافية.

وقد قال ريكولي: «هكذا يجب أن تنظر إلى مشكلة الأمن، يجب أن تدرك المشكلة في ضوء كل ما لها من أهمية وما فيها من تعقد، إنها ليست وقفًا على المانع الذي يمثله نهر الرين، إنها أبعد من هذا، إنها تتكون من الاحتفاظ بسلم أوروبا بأي ثمن، السلم الذي أتمته المعاهدات التي جاءت بعد انتصارنا، إنك لا يمكن أن تقدر ماذا تكون الحال لو فرضنا أن ألمانيا قد نجحت في التأثير في هذه الدول الجديدة، وحتى لو كان هذا التأثير معنويا فقط فإنها ولا شك ستنجذب إلى مدارها، وتدور في فلكها، هل تستطيع أن تتصور القوة الهائلة التي ستكون لها إذ ذاك!».

«ثق أنه لن يكون من جدوى للقتال ضدها إذ ذاك، وثق أننا سنفقد قضيتنا قبل أن تبدأ المعركة»[١].

***

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٨.

مراجع الفصل التاسع

دوبيك وفوش: المدرسة الفرنسية

–Dallas D. Irvine "The French and Prussian Staff Systems before ١٨٧٠" Journal of the American Military History Foundnation II. (١٩٣٨)

–Dallas D. Irvine "The French Discovery of Clausewitz and Napoleon" Journal of the American Military Institute, IV (١٩٤١). ١٤٣-١٦١.

–Dallas D. Irvine , "The Origin of Capital Staffs" , Journal of Modern History, X (١٩٣٨). ١٦١-١٧٩.

–Joseph Monteihet , "Les Institutions Militaires de la France" ١٨١٤-١٩٣٢ , second edition (Paris, ١٩١٧).

–Ardant du Picq , "Etude sur le Combat" , (Paris, ١٨٨٠).

–Colonel John Greely and Major Robert Cotton , "Ardant du Picq, Battle Studies. Ancient and Modern Battle" (New York, ١٩٢١)

–Auguste Fredrick Marmont , "Esprit des Institution Militaries" (Paris, ١٨٤٥).

–Count Henry Amedée le Lorgne Ideville , "Memoirs of Marshal Bugeaud".

–Louis Jules Trochu , "L'Armée Française en ١٨٦٧ " (Paris ١٨٦٧).

–Emile Ollivier , "L'Empire Libéral" , (Paris ١٨٩٨-١٩١٦).

–Piere de la Gorce , "Histoire du Second Empire" , ٧ Vols (Paris, ١٩٠٨–١٩١١).

–Jen Norton , "Témoins, Essai d'Analyse et de critique des souvenirs de combattants" , (Paris, ١٩٢٩) .

–Foch , "Des Principes de la Guerre" , "The Principles of War" by Hilaire Belloc (New York, ١٩٢٠) .

–Foch , "Conduite de la Guerre" , (Paris, ١٩١٥) .

–Colonel T. Bentley-Mott , "The Memoirs of Marshal Foch" , (New York, ١٩٣١) .

–Raymond Recouly , "Marshal Foch, His Words on Many Subjects" , (London, ١٩٢٩) .

–Charles Bugent , "Foch Speaks" , (London, ١٩٢٩) .

–H. Bidou , "Le Maréchal Foch, écrivain militaire" Minerve Française, (February, ١٩٢٠) .

–Maj. Gen. Sir G. Aston , "The Biography of the Late Marshal Foch" , (New York, ١٩٢٩) .

–B. H. Liddell Hart , "Foch, the Man of Orleans" , (London, ١٩٣١).

–André Tardieu , "Avec Foch" , (Paris, ١٩٢٩) .

–Gustave Le Bon , "Hier et Demain" , (Paris, ١٩١٨) .

–Charles Coste , "La Psychologie du Combat" , (Paris, ١٩٢٩) .

–Louis Huot and Paul Voivenel , "Le courage" , (Paris, ١٩١٧) .

–General Percin , "Le Combat" , (Paris, ١٩١٤) .

–G Stanley Hall , "Morale, the Supreme Standard of Life and Conduct" , (New York, ١٩٢٠)